غالب هلسا

ثلاثة وجوه لبغداد

إذا أعجبك الكتاب، فرجاءً حاول شراء النسخة الورقية
تذكر أن الكتاب العرب معترّون والكل يستوطي حيطهم
دعمنا لهم يضمن إستمرار عطائهم
(أبو عبدو)

آفاق رواية

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

غالب هلسا :

ثلاثة وجوه لبغداد - رواية

غالب هلسا :

ثلاثة وجوه لبغداد - رواية

الطبعة الاولى - ١٩٨٤

جميع الحقوق محفوظة . .

الناشر : آفاق للدراسات والنشر

نيقوسيا - قبرص ص . ب : ٣٩٩٧

الغلاف الفنان يوسف عبد لكي

غالب هلسا

ثلاثة وجوه لبغداد

إلى من بسط التي مدت يدها
عبر جحيمها لتنتشلني ....
غالب

الوجه الأول

من خلال عيون مصرية

- ١ -

وعندما هبط من الفَندق ، سمع اللهجة المصرية في كل مكان . منذ ساعة ، فقط ، كان يطير فوق بغداد . بدت له ، ساعتها ، قطعة من المخمل الاسود ، موشّاة بآلاف الدبابيس المضيئة . اعلنت المضيفة ، بثلاث لغات : « ايها السيدات ، والسادة . نحن نطير ، الآن ، فوق بغداد ، وستهبط الطائرة ، خلال عشر دقائق . . . »

ثم عبرت عن املها أن يكون الركاب قد استمتعوا برحلتهم ، ونقلت لهم تحيات قائد الطائرة . واشتعلت بثلاث لغات عبارات حمراء : « ممنوع التدخين ! اربطوا الاحزمة ! » ثم هاهو يسمع اللهجة المصرية تشيع في الجو ، وكأنه عاد الى القاهرة ، بدلاً ان يغادرها الى بغداد .

وهو يسمع وقع خطواته ، ويراقبها ، والاصوات ، بلهجتها المصرية تتكاثر - دون تنوع - دهمه ذلك الاحساس الذي راوده كثيراً في الايام الاخيرة : انه يحلم . لقد اكتشف خلال وجوده في الزنزانة ، في سجن القناطر الخيرية ، وسجن مطار القاهرة الدولي . . . . اكتشف انه يصعب كثيراً التأكد من انه ليس في حلم . في الحلم ، أيضاً ، يصعب عليه ذلك ، في نوع خاص من الاحلام : الكوابيس . في الاحلام الاخرى - كان يعرف انه يحلم ، وكان يقول لنفسه ، في هذا النوع من الاحلام : « مادمت في حلم فلافعل ماأريد ، دون خوف من شيء »

احساسه الآن هو الكابوس .

كان الشارع عتيقاً - رائحته - نمط المعمار ، ارضيته الموحلة - وتحط عليه ظلمة رخوة - تخفف من تماسكها اضواء ذابلة تنبعث من البيوت القائمة على الجانبين . كان

ممكنا ، مع هذه اللهجة المصرية التي تنبثق من مجموعات معتمة ، بعضها يسير ، وبعضها واقف ، ان يكون هذا احد شوارع القاهرة ، في حي عابدين ، او بالتحديد ذلك الشارع الذي يصل بين شارع عبد العزيز وارض شريف .

« ويصعد السلالم الزلقة في الدور الثالث ، وهو يلهث ، الباب ينفرج انفراجة ضيقة ، لاتكاد تلحظ . تتسع انفراجة الباب ، ويختفي الشبح الواقف وراءه . يدخل . تنظر اليه من باب حجرة النوم . تنظر اليه بعينين بيضاوين ، وتقول :

ـ اقفل لباب . . . »

لا . هذا الشارع لايشبه ذلك الشارع . ولكنها تلك اللهجة ، التي تفضح اصول متحدثيها الشعبية ، هي التي اوجدت مكانها .

ـ بنت القحبه ، مسميه نفسها سوزي !

هذا ليس اسمها بالطبع . انه من الاسماء المستعارة لمومسات السائحين العرب ـ لراقصات ملاهي الدرجة الثالثة . . . وحاول ان يرى وجه المتكلم . لم يكن له وجه في هذه العتمة .

ثم ذابت الظلمة . ببطء ، في اول الامر ، تسللت اليها اضواء سمراء عكرة ، اعني خضراء باهتة ، واخذت ذرات الظلام تتوهج ، كما يحدث في شاشة التلفزيون ، عندما ينقطع الارسال فجأة ، وترقص آلاف الذرات الرمادية فاتحة كصنوبر ماء . ثم ، اذ بالظلمة ، تنسف نسفاً .

حدث هذا بعد خطوة واحدة . كان هنالك شارع جانبي . على زاويته مطعم ، تحتل واجهته الزجاجية الزاوية على الجانبين ، وكان الزبائن ، والجرسونات ، وحلل الطعام تسبح في ضباب النيون والابخرة .

على رأس الشارع الجانبي ، وقف بائع اللحمة المشوية (التكة) امام منقل طويل ، صفت فوقه اسياخ اللحمة المشوية ، على طرف المائدة مروحة تعمل بسرعة خارقة وضجيج ، يندفع هواؤها الى جمرات الفحم ، فتصعد منها لهبة تتخلل اسياخ اللحمة . فوق رأس البائع مصباح كهربائي ، تنبعث منه اشعاعات قوية ، فبدا كنبتة شوك .

في الزاوية المواجهة ـ مقهى . بدا محشواً بالضوء الشبحي ، الابيض لانابيب النيون . الزحام في داخله جعله اشبه باتوبيس مزدحم . وتتوالى الاضواء على امتداد الشارع الجانبي ـ مصابيح الشارع ، اضواء من داخل المحلات ، اضواء معلقة على

تدخل المحلات . . . من جميع الاتجاهات يسقط الضوء ، فكان الناس ، والموائد ، والدكك الخشبية امام المقهى بلا ظلال .

رائحة الزيت المقلي ـ رائحة الطعمية والباذنجان ، والبطاطس المقلية ، والفول ـ لايخطئها الانف .

اي كابوس !

توقف امام بائع التكة . قال :

ـ عاوز سندويش ، لو تسمح .

جاءه الصوت حلقياً ، خشناً ، منزعجاً :

ـ شنهو ؟

هو عراقي اذن ـ قال غالب لنفسه . اعاد اليه ذلك احساسه بالتوازن ، فاخذ يشعر بآلام الالتهاب في حلقه . كلم البائع بالعربية الفصحى ، مسكّناً نهايات جميع الكلمات :

ـ اريد اربعة من اشياش اللحمة هذه ، في رغيف من هذا ، واريد طماطم معها . تفهمني ؟

فهز البائع رأسه بتتالٍ سريع وهو يردد :

ـ صار عيني ، صار ، صار . . .

ـ رفع غالب اربعة اصابع ، وقال :

ـ اربعة ، اريد اربعة .

والبائع يردد ، دون ان ينظر اليه ، بتمتمة :

ـ افتهمت عيني ، صار ، صار . . .

في تلك اللحظة ، بينما كان ينتظر انتهاء البائع من اعداد السندويتش ، سمع كلمتي « صالون حلاقة » ، ملفوظة باللهجة المصرية ، لم يسمعها في سياق كلام متصل ، بل كأنهما انفصلتا عن الحديث ، وتوجهتا اليه . كان هنالك ثلاثة شبان ، يجلسون على احدى الدكك الخشبية الموضوعة امام المقهى . كانوا صامتين وابتعدت عيونهم عنه فجأة عندما نظر اليهم . احس انه كان موضوع الحديث . « صالون حلاقة » فكر غالب ، ان ذلك لامعنى له .

القى احد الشبان الثلاثة نظرة الى غالب ، فالتقت عيونهما . ادار الشاب

وجهه ، ثم نهض ودخل المقهى .

سمع صوت البائع . التفت غالب اليه ، فرأى السندويتش في يده . تناوله ، ونقده الثمن . ثم سار وجلس على دكة خالية ، امام المقهى . قال لرجل يقف بباب المقهى ، ظنه ـ خطأ ، كما تبين له فيما بعد قليل ـ نادل المقهى :

ـ ميه من فضلك .

التفت الرجل الى داخل المقهى ـ وقال :

ـ ميه للبيه ، يامحمود .

قال غالب للرجل :

ـ متأسف .

لم يكن بالامكان اطالة الاعتذار . ولكن الرجل ، كان يقف بالباب مسترخيا ، مستغرقاً في شيء ما ، فبدا منتمياً الى المكان بقوة . سمع غالب صوت الشاب ـ الذي يجلس على الدكة ، المجاورة لدكته ، يخاطبه :

ـ خد منك كام ؟

فوجيء ، وقال :

ـ مين ؟

قال :

ـ بتاع التكه .

نظر اليه غالب . هذا الوجه ينتمي الى قاهرة المعز : الدرب الاحمر ، الغورية ، بين القصرين . . .

ـ ربعميه وعشرين فلس .

فقال الشاب الذي يجاوره .

ـ الراجل الحرامي . .

وابتسم . لم يستطع شكله الغلامي ان يخفي كونه تعدى الثلاثين . شعر اكرت ـ وعينان حادتان ، وخدان ضامران . عظمتا الوجنتين بارزتان ، والانف طويل ، بثقبيه الطوليين ، بارز ، كأنه وجه آخر . كان يعلق كاميرا على كتفه ، فوق قميص سبور .

يعرف هذا الوجه . يستطيع ان يراه في شارع ٢٦ يوليو ، يميل بعنقه الى اليسار ، والكاميرا موضوعة فوق عينيه ، ثم تكة الكاميرا ، يعقبها .

ـ صورة يابيه ؟

ثم سؤال من لابس النظارة الطبية :

ـ جيت من مصر امتى ؟

قال غالب :

ـ من شويه ، يعني . . .

وتوقف . شعر بآلام حلقه ، وبصعوبة ابتلاع الطعام واشار بيده الى نهاية الشارع ، حيث يظهر فندقه ، بواجهته المطليه بلون احمر ، قبيح ، كأنه دم متجمد ، وقد غلّقت على اسفل شرفاته انابيب نيون حمراء .

كان الجرسون قد وضع امامه صينية ، عليها كوب ماء ، وكوب شاي . شرب الماء دفعة واحدة . كان لها طعم غريب .

تزايد عدد محدثيه . كانوا يسألون اسئلة لايجاب عليها باكثر من كلمة ولما كان الوقت قد اقترب من الحادية عشره، وهم في نوفمبر الآن ، قال انه يشعر بالبرد . فانتقلوا الى داخل المقهى . لم يكن احساسه بالبرد حقيقياً ، ولكن المصور بقميصه السبور اوحى له بذلك .

انتقلوا الى داخل المقهى . كان ذلك اشبه بدخول قاعة الاجتماعات ، بعد راحة قصيرة ، تناول فيها المشاركون المرطبات والقهوة تعابير وقار ارتسمت على الوجوه ، وساد الصمت فجأة . ثم ارتفعت العيون ، زاغت منه ، واتجهت الى الباب . . الى شاب ، سارنحوهم . توقف امام غالب ، وضع امامه قطعة نقدية . قال :

ـ تفضل من بتاع التكه .

وتوجه الى الاخرين :

ـ راجل حرامي . قلت له : هات الخمسين فلس . مانطقشي .

ثم الى غالب :

ـ ازاي مصر ؟

السؤال موجه اليه .

كانت صورة القاهرة ، التي يحتفظ بها في ذهنه ، تلك اللحظة ، هي منظرها ساعة العصر ، كما بدت من الطائرة . صفراء ، معصفرة ؛ مدينة من حجر ، خالية من الشجر والناس . وبالنسبة له ، كانت قرية اردنية ، تستعاد في الذاكرة . كان

احساساً غريباً قد استولى ، ساعتها : ان تكون قاهرة خان الخليلي والحسين والازهر لها مثـل هذا المظهـر ! كانت لحظة شوق ، استقـرت في قلبـه كالخنجـر . وللحظـة خاطفة ، اعتقد غالب ، انه مطالب بوصف ذلك المشهد ـ والاحساس الذي رافقه ؛ واثقل عليه ذلك حتى الاختناق . ولكنه ابعد الذكرى كأنها عائق مادي ، وقال :

ـ كويسه .

ـ مافيش حاجه فيها تغير ؟

انـه مرهق بالفعـل ، وعـاجـز عن التركيز . يشعر بحلقه يابساً ، وهويتذكر : الكوبري الجديد ، الواقع بين كوبري قصر النيل ، وابو العلا . منظر النهر وهو يصعد من الـزمـالـك ، حتى يلتف حول الجـزيـرة ، الكـازينـوهـات ، واشجـار النخيـل والعشاق . . . كان ذلك يعتصر قلبه . قال :

من الـزمـالـك ، حتى يلتف حول الجـزيـرة ، الكـازينـوهـات ، واشجـار النخيـل والعشاق . . . كان ذلك يعتصر قلبه . قال :

ـ زي ماهيه !

فترة صمت . وانتقل الحديث الى المسائل العملية .

مسألة السكن ، اولاً . هنالك فندق يجب ان ينتقل اليه غداً .

ـ قل له جاي من طرف محمد المصوراتي .

ـ روح معاه ياأخي .

ينظر للمتحدث ، ثم يتنفس بعمق ويعدل وضع الكاميرا على كتفه ، ويقول :

ـ خوش .

ويبتسم . ثم اخـذ يتكلم . صاحب الفنـدق ، رجـل عنـده نظـر . يعني ، بالنسبة للايجار ، سوف يصبر . واضاف ، موجهاً حديثه للجميع ، هنالك عراقيون رجال حقيقيون ، اولاد بلد بصحيح ، يستطيع الانسان ان يعتمد عليهم ـ وهنالك . . .

ولم يكمل كلامه ، بل اشار برأسه اشارة سريعة نحو بائع التكه .

وجاء دور الحكايات . ثم انتهت سريعاً ، امام الحاح الضرورة العملية . بائع التكة كان الشخصية الشريرة ، التي تحدث التوازن في الموقف .

بدا واضحاً لغالب ان بائع التكة ، قد اقترف من الحماقات ، اكثر من مجرد

اضافة خمسين على ثمن السندويتش . وتبين غالب ان بائع التكه كان يدرك ان الحديث يتناوله بالسوء . فقد كان يرفع رأسه ، ويتوقف عن وضع قطع اللحم الصغيرة في الاسياخ ، ويحدجهم بنظرة بيضاء ، صارمة ، ثم يحني رأسه ويواصل وضع قطع اللحم في السيخ الذي مازال يمسكه بيده اليسرى .

قرر غالب ان يتخذ موقفاً حازماً منه .

جاء الجرسون ، حاملاً صينية عليها اكواب شاي ، بعدد الجالسين ، ووضعها امامهم وانصرف . تناول محمد المصوراتي كباية شاي ووضعها امامه . قال :

- شكراً ، انا شربت قبل شويه .

وارتفعت الاصوات :

- اشرب ياراجل . . !

- دي حاجة بسيطة يعني . . !

- دا الواحد بيشرب ، في اليوم ، بيجي عشرين كباية شاي . . !

الضجيج جعله يرضخ . طعم الشاي ماسخ في فمه ، مؤلم حين يمر من حلقه . فتح علبة السجاير فاكتشف ان اللفافات قد نفذت . مد الشاب ، الذي جاءه بالخمسين فلساً ، يده في الفراغ القائم بين الدكة والجدار ، واخرج خرطوشة سجاير (كنت) . فتح الخرطوشة ، واخرج منها علبة مدّها الى غالب . لم يستطع ان يرفض . اخذها ، وحاول ان يدفع ثمنها . نظر الشاب للفلوس ، وقال :

- ايه ده ؟

علا الصخب :

- ياراجل عيب ، مايصحش ، يعني . . . انت لسه واصل . . يعني احنا برضه اولاد بلد !

وبسبب هذا الضجيج وحسب ، اعاد النقود الى جيبه . هكذا في كل مرة ، ينطلقون صاخبين ، دون ان يتيحوا له فرصة للشرح ، اولقول جملة كاملة ، مفيدة . فهم مثلاً ، اعتبروه حلاقاً ، واخذوا يرتبون اموره على هذا الاساس . وهو متأكد انه لم يقل لهم ذلك . وكيف له ان يقوله !

قال الشاب الذي جاءه بالخمسين فلساً ، واهداه علبة السجاير - وقد تبين فيما بعد ان اسمه احمد - : انه بعد تدبير مسألة السكن ، هناك مطعم مصري ، صاحبه مصري ، والطعام مصري ، والعاملون مصريون ، يستطيع ان يأكل فيه على

الحساب . . . كلنا . بالطبع نعرف ظروف بعضنا .

قال غالب :

ـ بس . . .

اراد أن يقول انه ليس حلاقاً . ولكنهم قاطعوه :

ـ مفهوم ، طبعاً ، مفهوم . . . الشغل ؟ . . . مسأله سهله ، ترتاح بكره ، وتلاقي سكن وبعده ندور لك على شغل .

ورسموا له صورة سريعة وعملية : يبدأ العمل عند حلاق ، وعندما يتجمع لديه بعض الفلوس ، يفتح محلاً .

ثم تحدث ذلك الشاب ، الذي يبدو انه سبب الكوارث كلها . كان شديد الهدوء ، خافت الصوت ؛ وبمجرد ان بدأ الكلام ، صمت الجميع . صمت المقهى ، حتى الشارع . قال :

ـ انا اعرف البيه .

واخذ نفساً من سيجارته . ثم اضاف :

ـ كان بيشتغل في صالون فاروق ، في الدقي . ولما شفته داخل الاوتيل وشايل شنطة العده ، كلمت الواد محمود .

قال المصوراتي :

ـ محمود اللي في صالون الهدير .

نظر اليه الهادىء نظرة سريعة . اسكتته . قال :

ـ محمود اللي في صالون الهدير . قال لي ، عايزين حلاق . . .

ادرك غالب عندها ، انه لن يستطيع الا ان يكون حلاقاً ، لقد حسم الشاب الهادىء المسألة ، بالنسبة له وللآخرين .

وعندما انتهى من كلامه ، شعر الجميع ان اية محاولة لاطالة الحديث ستكون سخيفة . عندما اخذت الجلسة في الانحلال . بدت الوجوه مرهقة . تثاءب احمد ، فتثاءب آخرون . واتخذ الحديث طابع الثرثرة ، التي تمهد للانصراف .

ـ اكل العراقيين مش حايعجبك . . اكل ملوّن . احمر واصفر وبمبي واخضر . . .

ـ الباجه

ـ الباجه يعني الكوارع .

ويضحك البعض ضحكات فاترة . الكلام العراقي سوف يكون صعباً في البداية : شاكوماكو واكو . .

قال غالب :

ـ دول بعرفهم .

ـ اشلونك يعني ازيك ، وخوش . يعني كويس . وجوه يعني تحت .

ـ تحت ؟

ـ تصور !

الح غالب :

ـ جوه ، تحت ؟

يبدو انهم فسروا التعبير ، الذي ارتسم على وجهه ، تفسيراً خاطئاً . اذ قال احمد :

ـ همه عرب زينا ، طبعاً ، بس لهجه ، يعني ، زي ماتقول اللهجة الصعيدية . .

قال غالب ، انـه متعب . كلهم متعبون، قالوا ؛ ولم يبق في المقهى الا عدد قليل من الزبائن .

نهض غالب . نلتقي غداً .

ـ بكره . . بكره العصر .

وخرج وحيداً من المقهى . كانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة والنصف . سار عكس اتجاه فندقه . الجامع في مواجهته تماماً . اضواء صفراء ، مسلّطة على الباب .

بعد خطوات قليلة ، كان في شارع الرشيد . طالع الرصيفين المسقوفين ـ والاعمدة . التي تمضي الى آخر ماترى العين . ذكّره بشارع محمد علي ، والبواكي تتوالى اقواسها متسارعة من ميدان العتبة الى ميدان باب الحديد ، مكتنزة تاريخاً من الشبق ، والجريمة ، والحنين . . . « شفت الوليه ؟ عامله زي بتوع شارع محمد علي ! » ولكن هذا الشارع صامت ، والضوء شحيح ، كأنه ضوء ساعة ماقبل الفجر ، ماقبل خلق العالم بلحظة . الشارع خال من البشر ، مشحون بتوقع غريب ، يتراوح بين الخوف وتحقيق المستحيل . سار . وكان لوقع اقدامه صدى .

كان ذلك اشبه بانتظار قدوم المحبوبة ـ بانتظار وقع اقدامها ، واصبعها على جرس الباب .

لن نحكي عن ذلك العهد الذي قطعه غالب على نفسه امام بغداد الصامته ، ولاعن ذلك الحلم ـ التوقع ، الذي عاشه ، للحظات ، في ذلك الشارع . فمن يستطيع ان يأتي بغداد ، ولايحلم ! سيكون التاريخ ـ استعادته ، اعادة صياغته ـ هو موضوع حلمه . ولعل احد اسباب امتناعنا ، هو ان غالب قد عاش حلماً آخر ، مناقضاً تماماً لهذا الحلم ، وذلك عندما دعي الى حفلة ، او اعتقد انه دعي اليها .

كل مانستطيع قوله هنا : ان الشارع ، بدا له في صمته العريق ، يحتبس قهقهة طويلة ، مرحة جداً .

- ٢ -

في طريق عودته ، رأى المقهى يستعد للاغلاق . وكذلك المطعم الذي كان الجرسونات ينظفون موائده بقطع من الاسفنج . بائع التكة ، هو الذي ظل محتفظاً بمكانه وضوئه . عندما اصبح قريباً منه ، نظر بائع التكة الى غالب بعينين مزهرتين ، ضاحكتين ، متوقعاً التحية . كان ابتسامته كالمغناطيس . حاول غالب ان يتجاهله ، ويواصل سيره ، دون ان يحييه . ولكن يده ارتفعت بالتحية ، وكأنها تفعل ذلك من تلقاء نفسها . وسمع رد التحية :

ـ هلا بيك عيوني !

وكان صوتاً مليئاً بالمرح والترحيب . لقد خطف قلبه ذلك الوغد . وابتعد عنه ، وهو يحاول الا ينظر خلفه ، اليه .

ثم اتخذ ذلك القرار .

كان قد تجاوز الجزء الاكبر من الشارع . ثم فجأة رأى الشجرة . شجرة كبيرة ، مليئة بالاوراق ، والاغصان . قدّر انها شجرة تين . كان تقع على يساره ، وراء سور . وكان الضوء يتخللها من جميع الاتجاهات . بدت خارج سياق الشارع .

اللبص ، المعتم ، ولكنها تندرج في سياق بغداد . شجرة مرحة ـ هل يمكن ان يقال ذلك ؟ اعني ، كانت كأنها ضحكة ، في وجه قاتم . ليس هذا معنى ، على اية حال . رأى الشجرة ، فاتخذ القرار :

سيعيش بين هؤلاء الناس ، العمال المصريين العراقيين ، الذين هم رجال حقيقيون ، لاأوغاد امثال بائع التكة . . . وعندما غشيه رعب القرار ، قال لنفسه « لبعض الوقت ، على الاقل » ، وسوف يبتعد عن المثقفين ، ابتعاده عن الوباء . ستكون حياته في هذا الشارع ، بين هذه البيوت .

وكأنما اتخذ هذا القرار منذ زمن بعيد ، فقد كان معه في القاهرة محبطاً . عاشه ، آنذاك ـ كحلم يقظة . اذ دائماً يصطدم بعقبه ما . وهاهي الظروف قد تم اعدادها لتحقيقه . وتشكلت الصورة ببطء في ذهنه : العمل اليدوي ـ لم يحدده ، بل اخذ يحسه منذ تلك اللحظة في ذراعيه وكتفه ـ الحجرة الصغيرة التي سوف يسكنها في هذا الحي الشعبي ، الفتاة التي تسكن في الحجرة المجاورة . وتنبه ، للحظة ، انه عاش ذلك في حي معروف ، في القاهرة ، ولكن الصورة استمرت في التشكل ، مستعيرة معطياتها من تلك الحجرة . في حي معروف . سوف يكتب.هنالك مائدة تصلح للطعام والكتابة .

تذكر انه في اللحظة التي اعتقل فيها شعر بالراحة ، بان حياة جديدة سوف تبدأ . بدأت ، بالفعل ، ، مع المخبرين الذين كانوا يحرسونه ، اوكانوا يأتون للتوقيع ـ الحضور والانصراف من العمل ـ حين ظل اثني عشر يوماً في مباحث امن الدولة . ثم فترة الاسبوعين مع المساجين العاديين في سجن القناطر الخيرية . وكم كانت غريبة وخصبة تلك التجربة ثم تلك الليلة الرهيبة في سجن الترحيلات ، التابع لقسم الخليفة . وبعدها في سجن المطار .

وفجأة تجسدت له الاسطورة التي سوف ينسجها . الكاتب الذي يعيش في بغداد ، بعيدا عن الاضواء . سوف يقرأ له الناس ، ولكنهم لن يروه . سيقال ، أنه يعمل عاملا يدويا . لن يصدق الكثيرون ذلك . سوف يقولون انه غادر بغداد ، او انه يعتكف في مكان ما . سوف يراهم ، ويعرفهم ، دون ان يروه .

كان ذلك رائعا الى حد ، جعله يستعجل الصباح . لست حلاقاً ، ولكنني سوف اعمل عملاً يدوياً ، في مكان مزدحم بالعمال المصريين والعراقيين .

صعد سلم الفندق العالي الدرجات ، الزلق ، الضيق جداً . الدرجات

القليلة جعلته يلهث . كان شابا ، لم يره من قبل ، يجلس على مكتب صغير ، وقد علقت خلفه لوحة المفاتيح . قبل ان يغادر غالب الفندق ، كان يجلس على المكتب صاحب الفندق السمين .

القى غالب تحيه المساء ، رد الشاب بغمغمة غير واضحة . قدّر غالب ، انه فعل ذلك ليمنع حديثاً قد يبدأ . رأى حجرته مفتوحة ، فاتجه اليها . استقبله مشهد مقبض .

كان يضيء الحجرة مصباح معتم ، صغير جداً ، مطلي بلون احمر قاتم . جعل الاشياء تبدو قاتمة ، شبحية . استطاع ان يميز اجساد - جثث ؟ - اربعة رجال ، ممددة على الارض . كان احد السريرين خالياً . والرائحة . رائحة الاجساد في حجرة حارة ، صغيرة ، مغلقة النوافذ . رائحة دورات المياه . رائحة البطانيات التي تختزن عرق الاجساد ، عرقاً قديماً يتجدد كل ليلة . . . وباختصار رائحة حجرات السجن المزدحمة في الصيف .

استولى عليه غضب اختنق به . لقد قال له صاحب الفندق انه سينام في الحجرة وحيداً . وهاهم خمسة رجال ، خمسة اجساد ، تفوح برائح قاتلة ، يضافون اليه . ويختفي الرجل ، دون حتى ان يعتذر . سوف يملأ الفندق صراخاً . . . ولكنه كان يعلم ان ذلك لن يفيده في شيء . اخذ غضبه يهدأ . هي ليلة وتمضي . خلع الحذاء ، والجاكتة فقط . وتمدد فوق البطانية الخشنة .

فكر : هكذا ، اذن ، تكون حجرات الفنادق الرخيصة ، في العتبة والازهر والحسين ، التي تنام فيها شخصيات روايات نجيب محفوظ . لماذا ، اذن ، لم يصف هذا المصباح الكريه ؟ في الصباح ، سوف يذهب الى حي الحسين ليرى تلك الحجرات من الداخل . سيتظاهر بأنه يرغب في استئجار حجرة .

ثم تذكر انه في بغداد . كان يحتاج الى قدر من الارادة واليقظة ليتذكر انه في بغداد . لم يكن ذلك سهلاً . القاهرة تحتويه تماماً ، فتظل بغداد عابرة .

غفا للحظة . ثم استيقظ باحساس من تأخر في نومه عن موعد هام . وتذكر معركته التي لم تتم مع صاحب الفندق ، وكيف ان عليه ، الآن ، ان يظل في هذا المكان حتى الصباح ، كان ذلك اشبه بالاختناق : البطانية الخشنة ، الرائحة الثقيلة . . . وبين النوم واليقظة ، استعاد تلك الليلة في سجن الترحيلات ، قسم الخليفة ، كما يستعيد عاراً .

لم يستعدها بالتواتر الزمني ، الذي نحكيه هنا ، بل كان يستحضرها كمشاهد ، يتأملها ، ويعيد استرجاعها الى حد تعذيب الذات . وكانت تلك المشاهد ، تندغم في ذلك التحلل والخلط الذي يدهم التذكر ، واحلام اليقظة ، في اللحظات الفاصلة ، بين النوم واليقظة .

الحجرة التي ادخله اليها امين الشرطة واسعة ـ بدت له واسعة جداً ـ وتكاد تكون خالية . السقف العالي والجدران المتربة اضفت عليها سمة الاماكن المهجورة . على امتداد الجدران ، دكة حجرية ، علوها متر تقريباً ، تحيط بارضية الحجرة العارية ، وتنقطع عند دورة المياه ، الواقعة في الطرف الآخر للحجرة ، المواجه للباب . قريباً من الباب ، على يسار الداخل كان يجلس عدد من الاطفال ، فوق الدكة ، صامتين ، محدّقين .

قال له امين الشرطة ، وهو يتوقف قرب الباب :

ـ فيه هنالك من جماعتك .

ـ سياسيين ؟

ضحك امين الشرطة ، وقال :

ـ سياسيين ! فلسطينيين ! سميهم زي ماانت عايز .

كان مرحاً . فلقد ابتز من غالب جنيهاً ، وهما في السيارة ، وهاهو يقدم له خدمة مقابلها .

المكان الذي اشار اليه امين الشرطة ، كان ركناً في نهاية الحجرة ، بين دورة المياه ، وزاوية الحجرة . كانت مميزة بحصيرة مفروشة على الارض وبطانيات مطوية لصق حائط الدورة . وكان يجلس هنالك خمسة اشخاص كان احدهم يدقق فيه النظر منذ دخوله . وعندما اقترب ، نهض وقال :

ـ اهلاً غالب .

ومد يده فصافحه غالب . كان سعيداً حين وجد احداً يعرفه . سلم غالب على الآخرين . بعد جلوسه ، قال له الشاب الذي رحب به :

ـ انت مابتعرفني . كنت في الندوة . وسمعت لما اعتقلوك . اسمي سامي .

يستعيد الآن غالب الجالسين ، لاكمارآهم ساعتها ، بل كما يتذكرهم الآن : الفلسطيني الآخر ، برأسه المحني ، والذي كان يرفع عينيه ببطء وينظر الى غالب . كان يصغي بوجه محايد ، ونظرة صارمة . ولم يكن يقول الا القليل .

كان الفلسطينيان قد افسحا مكاناً له فجلس . وعرف ، فيما بعد ، انهما يعملان في الكويت . اعتقلهما المخابرات الحربية المصرية ، منذ اسبوع ، تقريباً . حققت معهما بتهمة الانتماء الى تنظيم فدائي فلسطيني .

لم تقتنع انهما جاءاللفسحة . ثم صدر الامر بترحيلهما . بعد دقائق من وصوله ، اعتبرا غالب واحدا منهما ، في الطعام ، ومكان النوم ، والقضية . وجرى الحديث بين الثلاثة بتلك اللغة الملغزة ـ انصاف العبارات ، والنظرات التي تقول كثيراً ، الصمت ـ التي يتقنها ابناء الفكر السياسي الواحد .

الثالث ، كان رجلاً نحيلاً ، عابساً ، قاتم السمرة ، له جبين واسع ، وعينان لامعتان ببريق غضب دائم . كان يجاوره صبي ، يلبس كنزة صفراء ، له وجه ودود ، وعينان ضاحكتان . كان يبدو عارفاً بكل مايحدث في السجن ، وله وسائله في الحصول على الشاي والسجاير والطعام .

الخامس ، كان ابوراتب . دمشقي ، متهم بقضية حشيش . كان سميناً ، يرتدي ملابس سوداء ـ بذلة سوداء واسعة ، وكوفية سوداء ـ يبرز منها وجهه الابيض الكبير ، بشاربه الكث . كان ناعماً ، ذلك الدمشقي . رقيق في حديثه ، لايقحم نفسه في شيء ؛ ولكنه على استعداد لتأدية اية خدمة ، او للاصغاء بانتباه لكل حديث يوجه اليه . ولكن غالب ، لمس ، تحت هذا المظهر ، ذكاء حاداً ، وصلابة كالفولاذ .

ثم الأطفال !

اغرته سعة الحجرة بالتمشي . يتذكر انه توقف امام الأطفال ! رغم وضوح هويته كسجين . عامله الاطفال بحذر وخوف ، في البداية . عندما حياهم ، ردوا جميعاً بصوت واحد ، مستعار من رجال اكبر منهم سناً :

- وعليكم السلام ورحمة الله .

سألهم عن سبب توقيفهم : انت ؟ وانت وانت ؟ كلهم قالوا ، واقسم واحد منهم ، ان ذلك تم بلاسبب .

قال غالب :

- ماشيين في الشارع ، كده ، ومسكوكو ؟

انفجر احدهم بالضحك .

- بتضحك ليه ؟

قال :

- دا نشال .

اشار الى طفل له وجه مرهق . فالتفت نحو الطفل الضاحك وقال :

- ماتتلم ياابن القحبه .

كان له صوت رجل ، وغضب رجل . قال له غالب :

- وأيه لزوم الشتيمة بقى ؟

قال ، مشيراً للطفل الآخر :

- اصله عيل ، يابيه .

شعر غالب بنفور منه . تساءل : هل هو طفل دمرت الحياة كل مرح الطفولة فيه ، ام رجل توقف عن النمو ؟

قال غالب :

- بيضحك معاك ياأخي .

لم يكن ودوداً حين رد قائلاً :

- ضحك يودي في داهيه .

هل شعر غالب بالخوف من هذه الصرامة ؟ احس بالطفل يصرفه من حضرته ، فتملكه التحدي :

- امال مسكوك ليه ؟

- نصيب .

ثم انتبه ان سامي يقف بجواره ، فوجد فيه خلاصاً من مأزقه . قال :

- شيء غريب !

قال سامي :

- رياض الاطفال في دولة العلم والايمان .

ثم سارا سوياً ، صامتين . كان غالب مازال مستفزاً ، وهو يسترجع كلمة « نصيب » ، التي قالها الطفل ، لقد نطقها بصوت عريض ، فيه تحدي البلطجي الذي يتأهب للعراك ؛ وفيه انهاء لحديث لايعجبه .

قال سامي دون ان ينظر اليه ان عليه ان يكون حذراً في حديثه . التفت اليه غالب ، وقال :

- اللي قاعدين معنا ؟

فقال سامي ان الصبي الذي يلبس الكنزة الصفراء ينقل كل مايسمعه لرجال المباحث . التقت نظرات الصبي بنظرات غالب . . كان الصبي يبتسم . ينتفض جسد غالب ، فيجلس فوق السرير . احد النيام يهمهم بشيء يصعب تبيّنه . يتمطى غالب ، فيسمع طقطقة عظامه . ولكن ماكان يريد الهروب منه ، يفرض نفسه عليه : نظرة الصبي الذي كان يلبس الكنزة الصفراء . كانت نافذة ، وقحة ، ضاحكة . ولكن شيئاً ما ، دنيئاً ، فيه استغاثة نفذ منها الى غالب ، فشعر بالقشعريرة تنساب كالماء المارد ، في قمة رأسه ، وظهره .

كره نفسه ، والصبي ، وهذا الحديث . قال لسامي :

ـ السجن فاضي .

نظر اليه سامي فجأة . لم يكن يتوقع رداً كهذا ، على ماقاله . ثم عاود المسير . قال بعد قليل : انتظر حتى المساء ، لن تجد موطئاً لقدم .

عادا للصمت ، مواصلان سيرهما .

كالمغناطيس اجتذبه وجه الصبي . حاول ان يقاومه ، فلم يستطع . كانت فتنة غريبة تتلبس الوجه شيء مافي انحناءة الرأس ، والعينين المسبلتين ، ثم . . . تلك الحركة السريعة برأسه الى الوراء ، يرد خصلة من شعره الكستنائي ، وخلال تلك النظرة السريعة ، اللامعة ، التي ابتعدت على الفور ، بعد ان التقت بعيني غالب . . .

كان غالب خائفاً ، مايزال خائفاً في هذه اللحظة . وجاءت الكلمات لتصف وتريح : « الصبي يفوح جنساًوعنفاً » . وتمدد غالب على السرير وهو يستعيد وجه سامي : جاداً ، صلباً .

كانت لحظة من الخدر ، بين النوم واليقظة ـ ربما نام دون ان يدري ـ اختلطت فيها ملامح الصبي ، بالطفل النشال . اصبحا واحدا ، اوعلى الاصح ، واحدا انقسم الى اثنين . شيء مايربط بينهما ، قال غالب لنفسه ، عندما استيقظ على حركة . كان احد النيام يئن . ثم رآه ينهض ، يسير متعثر في مشيته ، ويغادر الحجرة ، متجها الى اليسار .

نظر غالب في ساعته . كانت الثانية وبضعة دقائق .

يعود غالب الى سامي ، ليهرب به من الصبي ، والطفل النشال . كان سامي يقول : في المساء سوف يأتون بالعشرات من مهربي البضائع بين ليبيا ومصر .

واحمد هنالك صامت ، يقظ ، يفيض بتحفز ، خلق فراغاً حوله . رغم ضيق الركن الذي يجلس فيه ، كان هنالك مسافة بينه وبين الآخرين . غالب يعرف هذا النمط من الرجال . يعرف هذا الهدوء الخارجي ، والحركات المحسوبة ، والادب الشديد في التعامل ، والصبر على التفاصيل العملية ، ولكنه متحفز على الدوام . وفي اللحظة المناسبة ، هو الذي سيطلب الى ركاب الطائرة ان يلزموا اماكنهم ، والى الطيار أن يغير اتجاه الطائرة .

لقد كان احمد هذا ، في اليوم التالي ، عندما نودي اسم غالب ، طالبين اليه ان يستعد للرحيل ، هو الذي تحدث اليه . قال :

ـ الى بغداد ؟

قال غالب :

ـ الاغلب .

اخرج عشرة جنيهات ، وكنزة صوفية ، وبعض علب السجاير واعطاها لغالب . قال :

ـ خليك حذر

وبدا سامي كالغريب حين ودعه . سارا بجوار احمد وودعاه عند الباب . قال احمد :

ـ مع السلامة ، رفيق .

في مشيته بجوار سامي ، يتذكر ، الابتسامة الحلوة للطفل الضاحك يتذكر الطفل النشال ، محدقاً امامه ، يحاول الاتلتقي عيناه بعيني غالب تلك النظرة المتجاهلة ، كانت تستفز غالب . مازالت تستفزه .

عند المساء ، قبل توزيع طعام العشاء بقليل ، اخذ المكان يمتلىء . عشرات الرجال اخذوا يتوافدون . حاملين على ظهورهم كتلاً ضخمة ، ينؤون تحتها . يضعونها على الارض ، ثم يجلسون فوقها ؛ او بجوارها ويتكئون عليها ، او يدفعونها لصق الدكة الحجرية ، ويسندون ظهورهم اليها .

ظلوا يتوافدون . رغم انه كان يبدو ان لامكان لقدم . كنا نرى امين الشرطة وراء الاعمدة الحديدية لباب الحجرة ، يتقدم طابوراً منهم . يفتح الباب ويدخل ، يلقي نظرة على الجالسين ، نظرة مدققة ، كأنه يبحث عن وجه بينهم ، ثم يصرخ :

ـ ارجع لورا ، ارجع لورا انت وايه .

وتحـدث حركـة تراجـع عامـة . تبدو امام عيني غالب الآن . بلا صوت ، بلا حركـة . يعطي الصـورة حركـة ، لايستطيـع استعـادتهـا ، الآن : حركـة تمايل الى اليمـين والشـمال ، ثم ـ وهم جلوس ـ قفـزة الى الـوراء . يحدث فراغ في مقـدمـة الحجـرة ، يشكـل الجـالسـون خطـاً مستقيماً على حدوده ، وراءهم خطوط مستقيمة حتى نهاية الحجرة . ويلقي اللاهثون القادمون احمالهم . تنزلق الاحمال الى جانبهم الايسر ، تهبط ، ويهبطون معها حتى يصلان الارض .

ـ ٣ ـ

غفا . لايدري المدة . ثم استيقظ . كان الصبي ، الذي يلبس الكنزة ، قريباً منـه . كان عليـه ان يفتـح عينيـه ، يطـالـع المصبـاح ، المطلي باللون الاحمر ، النيام الحجرة ، وحتى يطرد الصبي . يجعله ذكرى .

يستعيده كذكرى . من الواضح ان الصبي يتجاهله . عندما تلتقي عيونهما ، تنطفىء نظرة الصبي . لقد ادخله غالب في سياق ميلودراما . وهاهو يحاول ان يزداد معـرفـة به . ادرك انـه يبـالـغ في ملاطفة الآخرين وعندما تشكلت الكلمات ، في فم غالب ـ « العاهرة » ـ ، احس بقشعريرة تغزو جسده .

اعـد سامي العشـاء ، واخذوا يأكلون : جبنه ، بولبيف ، زيتون . كان احمد يأكل باستغراق . قال الصبي لنا :

ـ عايزين شاي يابهوات ؟

قال سامي :

ـ هات اربعة .

قال ابو راتب :

ـ لا ، لا ، هدا واجب علينا .

وضـع يده في جيبـه واخرج بعض القطع النقدية . اختار منها شلنين ، ومدهما للصبي . قال سامي بحسم :

ـ زي ماقلتلك .

بلهجتـه الفلسطينيـة المتمصـرة . اقسم ابـوراتب ، بلهجة دمشقية نقية ، انه هذه المـرة ، هو الـذي سيـدفع ولكن الصبي مضى ، دون نقوده ، التي مازال يمدها بين سبـابـة وابهـام يده اليمنى . تنهد ثم اعاد الفلوس . استغرب غالب اهمال سامي

للرجل الآخر ، الذى كان عابساً جداً .

راقب غالب الصبي ، يسير بخفة بين الاجساد ، ينهر ويشتم الذين يعترضون طريقه ، وهو يتحرك بخفة ، ورشاقة . لم يكن احد من الجالسين يحتج ، او يبدي اعتراضاً . كانوا يميلون باجسادهم حتى يعبر ، دون ان يلتفتوا اليه . وفي لحظة ادرك غالب كل شيء : كان الصبي بقفزاته الرشيقة ، يستعرض مفاتنه . واحس ، بشكل غامض ، ان ذلك قد اغضب الرجل الجالس وحيداً ، وزاد عبوسه .

اخذ الصبي ينادي :

- ياحضرة الكابتن ، ياحضرة الكابتن !

ظهر امين الشرطة من خلف قضبان الباب ، وفتح الباب ، فخرج الصبي .

نظر سامي الى غالب نظرة متواطئة . انه يذكره بما قاله عن الصبي بأنه ينقل كل مايسمعه الى المباحث .

مضت نصف ساعة قبل ان يعود الصبي . قال غالب لنفسه : لابد انه نقل لرجل المباحث ، الذي يجلس في حجرة مريحة ما ، من هذا السجن ، العلاقة التي نشأت بين الشابين الفلسطينيين وغالب .

بعد ان شربوا الشاي ، انطفأ النور عن الحجرة . كان الضوء مازال مشتعلاً خارجاً . انفتح الباب واطل امين الشرطة ، يحمل شمعة . حدّق في الداخل ، ونادى :

- ياحسن ! راح فين ابن القحبه ؟

قفز الصبي من بيننا ، وصاح :

- حاضر .

تحدث امين الشرطة ، وكان رقيقاً :

- صبركم ياجماعة شويه . حانجيب الكهربائي يصلح النور .

يتذكر غالب ابو راتب ، وهو يحمل الشمعة . اخرج شلنا من جيبه ، وقال :

- تبرعوا ياجماعة مصاري الكهربائي

اخرج الجالسين نقوداً ، ووضعوها في يد ابوراتب ، الذي سار بين الآخرين ، يشرح لهم ، ويتناول النقود منهم . وعندما وصل الى الباب ، نادى امين الشرطة ، ووضع النقود في يده :

- هاي مصاري للكهربائي .

اخـذهـا امـين الشرطة ، واستدار مسرعاً . وعندما عاد ابوراتب ، راح يشرح فضائل النور .

★★★

كان ذلك قبل ان ينقطع النور .

الـرجـل في حوالي الخـامسة والثلاثين . الصلع لمس مقدمة رأسه ، ولكنه كان وسيماً . اثنان من امناء الشرطة كانا يقفان وراءه . خاطب مهربي البضائع :

ـ انا مدير القسم .

علت همهمة . قال :

ـ خليني اكمل كلامي . انا ماشي دلوقتي .

ارتفع صوت :

ـ بالسلامة ، ان شاء الله .

واصل :

ـ يجب اقول لكو ، خليكو رجاله . . فاهمين كلامي ؟ دول . .

اشار الى اميني الشرطة ، اللذين كانا يقفان صامتين . واضاف :

ـ وامنـاء الشـرطـة التانيين رايحين يقولوا لكوراح نفتشكم . فاهمين يعني ؟ كل واحد عايز يهبش له هبشة . انا ، المدير ، بقول ، ماحدش يرضى يتفتش . ابقوا رجاله . . .

وقال كلاماً كثيراً . ثم انصرف ، يتبعه امينا الشرطة .

مضت خمس دقـائق ، اوربـما اقل . وفجأة كان احد امناء الشرطة ورجلاً اخر يقفان بين المساجين . الرجل كان يقف هادئاً ، اما امين الشرطة فكان يقف ، ممسكاً حزامه بيده ، ويزعق :

ـ المدير قال مافيش تفتيش ؟

واشار بيده الى الرجل الآخر وقال .

ـ ده المدير .

كان المدير الجديد يتبسم . عاود امين الشرطة الصراخ :

ـ يعني ، خاتفتشوا . . . فاهمين ياولاد القحبة ؟!

واخـذ صوتـه يعلو ، ويعلو ، وكأنـما امتـداد لذلك العلو اخذ يضرب من حوله دون تمييـز . حاول المسـاجـين ان يبتعـدوا ، ولكن حركة الأبتعاد اثارت امين الشرطة

اكثر ، فاخذ يوجه ضرباته اليهم .

ثم توقف .

يتجمد المشهد ، فيدقق غالب في تفاصيله . يراه لصيقاً بالمصباح الاحمر الكريه يستعير ذلك المصباح ليضيء المشهد . مئات الكتل المدورة ، بجلاليبها وعمائمها البيضاء ، بلا وجوه ، وامين الشرطة يمسك بالحزام العريض ، والمدير واقف يراقب بحياد . . . عندما ثبتت الصورة اصبحت لوحة من لوحات بروغل .

ثم ينفجر المشهد ، كما في قلم صامت ، المدير وامين الشرطة يمسكان باحد المساجين ، الذي يمسك ببضاعته . يخرجون هكذا من الحجرة .

قال ابو راتب :

ـ لاحول ولاقوة الاباالله .

التفت الى احمد ، وقال :

ـ اخذوه للزنزانه .

كان صوته فاجعاً . ولم يدرك غالب دلالة العبارة الا في ما بعد الزنازين الداخلية يحتلها العريقون في عالم الجريمة . ومن يدخل اليها من المساجين العاديين يخرج فاقداً كل شيء حتى رجولته . الشذوذ الجنسي هناك ، وسيلة للاذلال .

ساد صمت طويل تخللته الحركات المعتادة : تحضير الطعام ، اعادة تنظيم المكان ، تبادل الكلام حول شؤون عملية بحته ، فانتهى التوتر الذي ساد منذ قليل . ثم ساد الظلام ، وادخل امين الشرطة الشمعة ، وجمعت الفلوس ، واخرجت مع الشمعة . وفي الظلام والصمت . اخذوا يسمعون مايحدث في الخارج .

انطلقت صرخة ، شلت الحركة والهمس في داخل الحجرة المظلمة . تلت ذلك اصوات مكتومة ، اشبه بسقوط اجسام كبيرة على الارض ، ثم صمت تلاه انفجار ضحكة عالية ، شعر بها غالب تسري تحت جلده كماء مثلج . ثم تكاثرت الاصوات . كان لها جرس الحوار الذي يدور حول مسائل عملية ، تنقصها اللهفة والحرارة . لم يكن بالامكان فهم مايقال ، بل ايقاع رتيب ، تكررت في داخله كلمة « طبعاً » .

ثم انطلقت الصرخة مدوية ، اخترقت الاصوات ، واسكنتها . وانفجر صوت آمر ، قوي ، بدا وكأن صاحبه يصعد السلالم مسرعاً :

ـ كفاية بقى !

تبعت ذلك اصوات متخاذلة كأنها رجع الصدى .

ثم ساد الصمت طويلاً . تتخلله اصوات حركة : وقع اقدام ، سقوط شيء ما ، ابواب حديدية تفتح . . . كل ذلك على خلفية من الصمت وكان للصمت صوت : الانين .

الظلام ، والمكان الغريب جعلا ذلك يبدو ، وكأنه يحدث خارج سياق هذا العالم . جعله جدياً كالطقوس ، كحركة الافلاك في فراغ رمادي .

مرت في ذهنه فكرة ـ نصف فكرة : ماالذي يفكر فيه هؤلاء الفلاحون ، الجالسون بصمت ، وهم يحتضنون بضائعهم المهربة ؟ كيف سيحكون ، في قراهم ، عن ذلك الفلاح الذي يغتصب ، الآن ؟ بدا ذلك تافهاً جداً ، وسط ذلك الصمت .

ثم اضاء النور . ومعه دهشة وخيبة امل . فكل شيء عاد كما كان .

قال سامي :

ـ الكلاب !

نظر اليه احمد ، وهز رأسه .

بعد ذلك اخذت الاشياء ، والبشر ، والحادثة حجمها الطبيعي علا لغط مفاجيء بين الفلاحين ، خاصة الجالسين قريباً من الباب .

ثم سمعت همسة ، كان لها دوي :

ـ لاحول ولا قوة الا بالله .

اخذ الفلاحون يبتعدون عن الباب ، وعيونهم متجهه اليه . كان هنالك صخب في الخارج ، وانفتح الباب ، وادخلت تلك الكتلة الدامية ، الممزقة الثياب : الذراعان تلتفان حول عنقي امين الشرطة ، والساقان لاتكادان تلمسان الارض ، والجلابية البيضاء مشقوقة من النحر ، حتى منتصف الجسم .

دخل امينا الشرطة من الباب ، وسارا به بين الجالسين ببطء ، تخيل غالب للحظة وكأنهما يعلمانه المشي .

وانفتح فم الرجل المحمول ، وصاح :

ـ اي ، باني !

قال امين الشرطة الذي على يساره

- خليك راجل ، امال !

رأى غالب ان فم الفلاح المفتوح كان يسيل بدم وزبد .

قال الصبي ، هامساً :

- دول كسروا اسنانه !

نظر اليه احمد ، ولم يقل شيئاً .

توقف الثلاثة . واخذ الرجل يهبط ببطء .

ارتفع صوت :

- لاحول ولاقوة الاباالله .

صرخ امين الشرطة .

- اخرس انت واياه !

ثم فجأة ، وكأن اميني الشرطة ، قد سئما ذلك كله ، دفعا الرجل فهوى الى الارض .

قال احد الامينين :

- افندم ! اي خدمه !

واخذ يتفرس في الجالسين .

جذبه زميله ، وقال :

- سيبهم بقى !

وخرج الاثنان وهما يغلقان الباب بقوة .

ساد الصمت .

ثم ارتفع صوت احد الفلاحين :

- امال حاجته فين ؟

اخذ الرجل العابس ، الجالس قرب احمد ، يقهقه .

التفت الفلاح نحوه ، وقال :

- البضاعة يعني .

- ٤ -

كان نومه متقطعاً . يصحو لثوان قليلة ، يبحث بعينين مرهقتين عن الشباك - الباب ، المؤدي الى الشرفة ، عن باب حجرة النوم ، الذي ينفتح على الحمام ، عن

الدولاب ؛ ولكن الحجرة تتمرد ، وتخفي تفاصيلها المألوفة . يحاول ان يرغمها على ان تكون حجرة نومه ، في شقته ، في ميدان الدقي ، ولكنها تعصى . ثم يباغته المصباح المعتم ، وتنفس النيام ، فيقرر ان يطفىء هذا ، ويتعجب كيف جاء الى بيته ، ثم يعود الى نوم كابوسي ، ثقيل .

صحا مرة اخرى . حاول ، وعيناه مغمضتان ، ان يتعرف على المكان . الرائحة الغريبة وشيء آخر يلحّان عليه . شيء غريب يحدث ، وعليه ا ن يتخلص من هذا النوم ، ليمنع حدوثه . يفتح عينيه فيهاجمه الضوء كصدمة ، فيغلق عينيه ويأخذه النوم .

ثم استيقظ ، فرأى الضوء الابيض يتسرب من الشباك . اصبح ضوء الحجرة مجرد مصباح مدهون بطلاء احمر خشن : ذكرى مفرحة انبعثت في داخله حاول ان يستعيدها ففشل . وعندما هبط من السرير تذكر انه في بغداد ، مازال الجميع نياماً ، ممددين على سجادة قديمة ، فوق ارضية الحجرة . احد النيام كان يهمهم بكلام مبهم .

في الخارج ، احس ، بالتهاب حلقه يسبب له الماً حقيقياً . الشارع خال تقريباً ، عدا بعض النساء . كن يلبسن عباءات ، تخفي الجسد والشعر ، فلا يظهر الا الوجه . كانت الوجوه تفيض سذاجة ودهشة . كذلك بدت المدينة كلها : حادة وطيبة القلب . قال لنفسه : « هكذا تبدو كل المدن لاول وهلة ! » . ولكن فرح فاض عن حكمته .

سار الى نهاية الشارع ، يشم رائحة الزيت والطعمية . تأكد من اسم الشارع ، قبل ان يتجه يساراً في شارع الرشيد . كان اسم الشارع : سيد سلطان علي .

رائحة اللحم المشوي تشيع في الشارع ، وفي وقت واحد ، احس بالجوع ، وبالم حلقه . لمحت عيناه يافطة مكتوب عليها « صيدلية المنار » . كانت مغلقة . واحس غالب ان المدينة قد ارتكبت اول خطاياها .

دخل احد المطاعم . كان صغيراً ومزدحماً . جاءه الجرسون واخذ يعد د اصناف الطعام : تكة ، جلفراي ، كباب ، . . واصناف اخرى مبهمة . قال :

ـ كباب .

فجاءه الجرسون بكفتة . لم يناقش . على اية حال ، فالجرسون لم يكن في

حالـة تسمـح بالنقـاش . فقـد وضـع الطعـام امـامه ، وزعق بكلام غير مفهوم فوق رأسه ، واختفى .

في الشارع ، سار باحساس الشخصية العامة ، التي تسير متنكرة ، كان ذلك مضحكـاً ؛ ولكنـه حلم يقظـة قديم ، يتجـدد . ينتهي الحلم دائـماً بأن يتعرف عليه شخص ما ،فيشيع المسألة ، في الشارع كله ، والمدينة .

ثم كانت المفاجأة التي اذهلته بالفعل !

كان يود ان يعـبر الشـارع نحـو الصيـدليـة . كانت المكتبة على يساره ، وقد صفت امـام البـاب اعـداد كبـيرة من الكتب . كتـاب ما ، غير محدد اجتذبه قبل ان يغـادر الـرصيف . فوقف امـام الكتب واخـذ يقرأ عناوينها . وخفق قلبه . كان هناك كتـاب يحمـل اسمه ، بعنوان « زنوج وبدووفلاحون » . امسك بالكتاب وتفحصه . انه من اصدار وزارة الثقافة والاعلام العراقية . الغريب انه لم يرسل مخطوطة لتنشر في العراق . فكيف حدث هذا ؟

اتجـه نحـو ساحـة التحـريـر ، حيث قال له صاحب المكتبـة ان وزارة الثقـافـة والاعـلام توجـد فيهـا . فكـر ان كل شيء سوف ينتهي في دقـائق ، يعود بعدها الى المقهى ، في انتظار مجيء اصدقائه المصريين .

وارتسمت في ذهنه صورة لمايتوقعه :

تصور الوزارة مكاناً عتيقاً ، شبيهاً بمصلحة الشهر العقاري ، بباب الحديد ، في القاهرة . الموظفون الذين يتناولون السندويتشات وينظرون بسأم الى المراجعين . تصـور الارشيف يغص بمئـات الملفات والاضابير التي يعلوها التراب . وفي الداخل موظف عجـوز جداً ، يلبس نظـارة طبية ، ذات اطار معدني ، تنزلق على طرف انفه حين يرفـع رأسـه عن الـورق ، ويطالعك . وسوف تكون له طيبة العجائز وخبثهم . مثـلاً ، سوف ينـادي الفـراش ، ويطلب اليه ان يحضر فنجان قهوة للزائر ، وقد اتفق معـه مقـدمـاً الا يلبي الطلب . ثم يأخـذ بالشكوى من فراشي هذه الايام . الذين لايلبون لك طلباً ، حتى لوبححت صوتك وانت تطلب وترجو . اين هم من فراشي ايام زمان ؟ وسوف يتظاهر غالب انه انخدع ، فيكتم ضحكه . ولكن العجوز سوف يكـون كفـوءاً في عمله . حركتـه بطيئـة ، ولكنـه كفؤ . سوف يسأل عن سبب « تشريفه » فيشرح له غالب ، انه يريد ان يسأل عن مكافأة كتاب صدر له . سوف يتأكـد العجـوز من اسمـه اكثـر من مرة ، مستغرباً « هلسا » ثم سوف ينهض العجوز

ببطء ، ويزيح كرسيه الى الخلف ، محاولاً الصعود فوقه ، ليأتي بالملف . يقول له غالب :

ـ بعد اذنك .

فيشير العجوز باصبعه الى الملف ويقول :

ـ هناك .

فيمد غالب يده ، ويأتي بالملف ، وسوف ينتهي كل شيء في دقيقة . يتأمل غالب المشهد كأنه امامه فيكاد يضحك .

ثم يتذكر ان بعض تفاصيل المشهد قد استعارها من احدى تمثيليات التلفزيون المصري .

ـ ٥ ـ

لم يكن هنالك بناء عتيق ، ولا ارشيف ، ولا موظف عجوز . . . بل بناية حديثة ، وحجرات انيقة ، بها مكاتب من طراز ايديال ، واجهزة تليفون ، وشبان وفتيات بملابس انيقة . . . (هل فوجيء غالب بالفعل ؟ الم يكن في داخله يعلم ان هذا ماسوف يجده تماماً ؟) . . .

بمجرد ان ذكر غالب اسمه انتهى تماماً . اسماء القصاصين والروائيين والشعراء ، الذين يزحمون المكان ، معروفة لديه ، واسمه معروف لديهم . . . بل انهم كانوا يتوقعون مجيئه . ولكنهم ـ تأدباً ـ سألوا :

ـ ماذا حدث ؟

وحكى لهم ان ندوة اقيمت في القاهرة عن « المخطط الامريكي في المنطقة العربية » ، وانه كان يرأسها ، وعندما انتهت ، القوا القبض عليه ، ثم وضعوه في طائرة متجهة الى بغداد .

انهم يعرفون . وكانوا يتوقعون وصوله قبل هذا الموعد . لقد نشرت الصحف انباء الندوة ، وانباء القاء القبض عليه .

وتداعت الامور : دعوة للغداء ، ثم الجلوس في مقهى البرلمان ، ثم النقاش في الشكل والمضمون . تحدثوا باعجاب عن فوكنر . سألوا عن آخر اخبار ادباء القاهرة ـ وادباء القاهرة ، بالنسبة لهم هم الذين يداومون الجلوس في مقهى ريش نهارا ، ونادي الاتلييه ليلاً ـ . ثم تناقشوا عن علاقة الايديولوجية بالفن .

وهكـذا نجحـوا ، في نهايـة الامـر ، أن ينتـزعـوه من بغداد ، التي لايعرفها ويجـاهـد ان يتعـرف عليهـا ، ويضعـوه في قلب بغـداد الكوزموبوليتانية ، بغداد التي لاتختلف في رطـانتهـا ، عن الـرطـانـة التي تسمعها ، حين تدخل مقاهي المثقفين في القاهرة ودمشق وبيروت وتونس والدار البيضاء . شعر غالب انه في محيطه الطبيعي ، واندفع مع الموجة .

(للحظات ، تذكر اصدقاءه المصريين ، في شارع سيد سلطان علي ، واجرى مقـارنـة سريعـة ، نفـذت في قلبـه كالسكين ؛ في ذلك الشارع استغرقوا في تفاصيل الحيـاة اليـوميـة ، زاد الكـاتب وماؤه ، المادة الخام للفكر والادب الحقيقيين ، مصدر التنـوع والجدة . لقد بدأوا مؤكدين الخصوصية والتمايز ، الاحداث الصغيرة المشبعة برائحـة الحيـاة ، وانتهـوا الى التشـابـه « كلنا عرب ، ولكنها لهجة » . اما مع هؤلاء المثقفـين ، فتنتقي الفـروق ، وحـين تذكـر ، فانـما كطرائف . (شعر بأنه يتخلى عن وظيفتـه الحقيقيـة ، عن الكـاتب الحقيقي في داخله . لم يبق له الا الحـذق والخـبرة التكنيكيـة ، وتلك الحكـايـة ، التي لاتنتهي : حكاية حياته . احس انه سوف يظل يدور لما لانهـايـة ، في داخـل هذه القبيلة ، التى تعيد انتاج ماتقرأه في دائرة لاتنتهي ، سيظل في اطار هذه القبيلة ـ قبيلة المثقفين العرب ـ في مدن العرب كلها . .)

كانت لحظة وعبرت .

وسـارت الامـور في تتال متوقع ، ومريح . انتهت بسيارة مرسيدس 220S ، وقفت امام الفندق البائس الذي يسكن ، فحمل ملابسه القليلة ، وسارت به السيارة الى فندق فاخر ليصبح ضيفاً على الحكومة العراقية .

في اللحظـة ، التي تحركت فيهـا السيـارة ، من امـام الفندق رأى ذلك الشاب الهـاديء ، الـذي تصـور غالب حلاقـاً ، ودبـر له عملاً في صالون الهدير . طلب من السـائق ان يتـوقف قليـلاً ، وغـادر السيـارة . كان الشـاب المصري ينظر الى اللوحة المعـدنيـة ، المطليـة باللون الابيض ، والمكتوب عليها « وزارة الاعلام ـ وفود » ، ثم يدقق النظر في غالب . بدا واضحاً ان الامور قد اختلطت عليه . قال له غالب :

ـ الجماعة ، يعني الحكومة . . . زي ماانت شايف . . .

قال الشاب بتردد :

ـ اشتغلت ؟

قال :

ـ لا ، لا ، انا ضيف الحكومة . . . ماهوه بصراحة ، انامش حلاق ، يعني انا ماقلتش . . .

ـ حضرتك يابيه اشتغلت سواق ؟

قال غالب بنفاذ صبر :

ـ لا ، لا ، انا ضيف ، انا صحفي . . . كاتب يعني . . .

وشعر غالب انه ، اطال ، فقال :

ـ عن اذنك .

فقال الشاب بصوت قوي ، استغرب غالب صدوره عنه :

ـ تفضل يابيه ، تفضل يابيه .

ـ ٦ ـ

شارك غالب في بعض النشاطات الثقافية ، ولكنه لم يحقق المشروعات الكبيرة ، التي كان يحلم بانجازها . شرب البيرة في بارات شارع السعدون ، والوسكي المغشوش في دار اتحاد الادباء ، والشاي صباح الجمعة في مقهى البرلمان . كان طرفاً في بعض المؤامرات الادبية ، وتعرض لكثير منها . تحدث عن المساواة بين المرأة والرجل ، فنالت اراءه موافقة جماعية ، ولكنها قللت من احترام الآخرين له . قال : آراء في الحياة الاجتماعية اعتبرها السامعون نكاتاً ، وقال نكاتاً اعتبروها آراء . ازعجه هذا الخلط فحاول ان يشرح فاعتبروه ظريفاً جداً ، فانتهى الامر به الى اليأس .

اما شارع سيد سلطان علي ، والاصدقاء الذين التقاهم في الليلة الاولى ، فقد كانوا ، في خياله ، ذكريات حدثت في مكان آخر . لقد بدا له ، انه لمجرد ان غادر ذلك الشارع ، راكباً سيارة المرسيدس ، ان ذلك الشارع نهض ، في التو واللحظة ، وهرول خارجاً من بغداد .

★★★

ثم يبدو أن غالب دعي الى حفلة .

الوجه الثاني

الحفلة
أو
كوميديا بالأسماء

- ١ -

هذا الحي ، من احيـاء بغـداد ، له خصـوصيـة . هواؤه ، رغم حر بغـداد القاتل ، ناعم ونقي . تشيع فيه عطور الياسمين واريج زهور القدّاح المسكرة . هواء تحب أن تذوقـه ، او ان تحتفـظ به . بيـوت هذا الحي حلم يقظـة ، يتر واح بين التجسد والمراوغة ، باسوارها الحجرية ، وحدائقها الكثيفة الاشجار ، والضوء الملون يشيع في المكان كالضباب ، وضوء النيون الابيض ، عذرياً ، بريئاً ، يجاهد بمعابثة ضاحكـة للنفـاذ من الاغصـان . ولكن نسمـة خفيفـة تسـد بعض المنـافـذ ، وتفتح أخـرى ، فتـعـتـقـد ، انت السـائـر في الشـارع ، ان تلك هي لعبـة الضـوء الابيض ، القادم من انابيب معلقة في جدار البيت الخارجي .

هل هذا كل شيء ؟

لا . فهنالك الشرفات الواسعة ، والزجاج النبيذي والبرتقالي والاخضر ، يبدو وكأنـه يشـع الضـوء من سطحـه المحبب ، وهنـالـك العشب الذي يكسو الحديقة ، والطرقات الاسمنتية التي تتخلله . وهنالك ، بين الاشجار ، المراجيح ـ الكراسي ، وكراسي الخيزران المنّجدة بالمساند المحشوة بالاسفنج ، تتناثر في فراغات بين الشجر . وفي الممر ، الذي يؤدي اليه باب الخارجي ، ترى سيارة تيوتا واقفة ، ودراجة طفل ، ولمحـة من شبـاك المطبـخ الـذي ترى زجـاجـة خلف ارابيسك من المعينات والمثلثات الحديدية ، و . . . ظل امرأة يسقط على الزجاج .

والمرأة ؟ وتئن احشاؤك شوقاً ، وتمتلىء بانفعالية مضى زمنها ، اذ تراها ـ تلك المـرأة ـ في اطـار التـاريـخ ـ الاسطـورة حلم اليقظـة متجـذّر في التـاريـخ ، في عراقة الماضي ، وحكايات الف ليلة وليلة ، وكتاب الاغاني و . . . هذه بغداد في النهاية ، والذاكرة لازمن لها . وهذاالشارع ذاكرة الاسطورة والتاريخ والحلم ، وانت في

قلبها .

ثم تدخل واحداً ، من تلك البيوت ، وترقب ؛ فترى الحلم يتفكك ويتبعثر ؛ الحديقة ليست بتلك السعة التي تصورتها . مجموعة من الاشجار قد لاتزيد عن العشرة . وفي داخل الفيلا تصدمك الفراغات ، التي لاوظيفة لها ، تلتهم المكان ، فيبدو ضيقاً ، رغم اتساعه . ولقد اوحى لك المكان ، انك تستطيع ان تنوه وتختبىء في سراديبه ، ودهاليزه ، وحجراته السرية ، واذا به مفتوح على الهواء والشمس ، وعلى تلصص العابرين . تلك الشبابيك التي تحيط بالبيت من كل جانب ، وليس لك الا الستائر تخفيها وراءها ، والصمت ، الذي يجعل الهمسة ، والخطوة ، في كل جزء من البيت تنتشر الى كل الاجزاء الاخرى ، فاضحة الاسرار ، عابثة بالخلوة ، فتشعر وكأنك تعيش في العراء .

ولكن الغريب في الامر حقا ، هو انك ماتكاد تغادر هذا البيت وانت مفعم بالخذلان وخيبة الامل ، حتى ينبعث حلم اليقظة ، مرة اخرى ، اقوى مما كان . اقول « اقوى » لأن الحلم استمد حياة جديدة من المشاهدة . انك تعيد بناء البيت تغرس له جذوراً عميقة في الارض ـ اقبية وسراديب وزنازين ـ توسّع حديقته ، تصنع له حوشاً داخلياً كحوش (المسافر خانة) في القاهرة ، وشبابيك ضيقة ، عالية ، بزجاج معشّق ، وتضع حواجز للصوت . . . وماذا ينقصك ! فكل تكنولوجيا احلام اليقظة

- ٢ -

شعر غالب ، منذ اللحظة الاولى ، ان هنالك خطأ ما في دعوته الى هذه الحفلة . او ، ربما ، في قبول الدعوة اليها . ولكن ، هل دعي اليها حقا ؟ هذا مالايستطيع الجزم به . كان يجلس في مقهى البرلمان ، ثم تتالت الاحداث . كانت هنالك سيارة تقف امام المقهى . . . ثم . . . لم يعد يتذكر . . . واذا به هنا .

والكـارثـة ، التي مابعدها كارثة ، ان يكون غير مدعو اصلا ، وانه جاء يفرض نفسه عليهم ، دون لياقة . . . وان يكونوا حائرين كيف يتعاملون معه ! هل يهمسون في اذنه باعتذار رقيق ـ ان هذه حفلة خاصة ، وان مكانه ليس هنا ، ثم يقودونه الى الباب ؟ ام هل يتحملون وجوده على مضض ؟

اخذ يطالع الوجوه . هنالك بعض المعارف . ولكن ، هل هم معارف حقاً ، ام مجرد وجوه مألوفة ؟ كان يحدث له هذا حين يدخل مبنى التلفزيون . يرى وجهاً يعتقد انه يعرفه . يبتسم ويرفع يده بالتحية . فيرى الوجه يطالعه باستغراب . ثم يكتشف الحقيقة . ان هذا الوجه لممثل اومذيع يتكرر ظهوره على الشاشة ، وان هذا هو سبب الخلط .

الايمكن ان يكون هؤلاء « المعارف » مجرد وجوه شاهدها في مكان ما ، ولم يقم صلة مباشرة بها حتى الآن ؟ انه غير متأكد انه يعرف اسماءهم . فهو يسمع اسماء ينادي بها : كاظم ، نجم ، حسين ، جاسم ، رعد ، فهد ، وسعاد ، واسماء وبتول وسناء . ولكن الاسماء تراوغ ، وتتملص ؛ تتلبس جسداً ، ثم تنفلت منه ؛ فتظل الوجوه بريئة ، عارية ، تكاد تلمح في العيون نوعاً من الخجل ، اوالحيرة ، اوربما الالم ، لكونها وجوهاً دون اسماء ، اوصفات ، اوتاريخ ؛ في حين تظل الاسماء معلقة ، تنتظر ، في الفراغ ـ تظل مجرد علامات سؤال .

كان الدوار الذي استولى على غالب ـ ربما ـ هو ماجعله يشعر ، انه يعيش اول يوم في تاريخ العالم ، حين كانت اللغة تقسف على جانب ، والموجودات على الجانب الآخر ، يعيش اللحظة السابقة لانسياب اللغة نحو الجانب الآخر .

ولم تكن هذه هي المعضلة الوحيدة !

فقد كان من الصعب ، ايضاً ، تصنيف هذه الحفلة . لم يكن ـ ابتداء ـ هنالك مناسبة محددة لاقامتها . ام ان هنالك مناسبة ما ، ولم يكلف احد نفسه ابلاغه بها ؟ كما عجز غالب عن تحديد اصحاب البيت ، الداعين الى الحفلة . يبدو هذا او تلك وكأنهما اصحاب البيت لدقائق . ولكنهما يجلسان فجأة في اماكن الضيوف المميزين ، ويتصرفان كضيفين خجولين . تكرر ذلك المرة بعد المرة ، حتى اصبح هنالك شبه يقين عند غالب ان اصحاب البيت لاوجود لهم .

هل اقتحم المدعوون هذا المكان ، في غيبة اهله ؟ « لم يكن ينقصني

الاهذا ! » قال غالب لنفسه .

وأي نوع من الحفلات ، هي هذه ، على اية حال ؟ انها بالقطع ليست حفلة كوكتيل ، رغم ان مجموعات ، من ثلاثة او اربعة اشخاص ، تقف حاملة كؤوس الويسكي في ايديها ، ورغم تلك المائدة الطويلة التي استعملت كبوفية . وضعت في طرف منها زجاجات الويسكي ، والجن ، والفودكا ، والبيرة ، وجرادل الثلج ؛ بينما تكومت فوق جزئها الاكبر اسماك مشوية (مسقوف) ومقلية ، لحوم مشوية ، لحوم مطبوخة مع مواد غامضة ، سلطات ، طرشي ، عنبا ، ثم كوم هائل من لحم الدجاج المحمر الخ . . . وهي ليست حفلة راقصة ، رغم ان البعض كان يرقصون في نهاية مكان الحفل ، الذي يتكون من قاعة كبيرة ، مكوّنة من حجرتين ، فتحتا على بعضهما . ورغم المكياج الثقيل على وجوه النساء وملابس السوارية السوداء التي يرتديها بعضهن ؛ ورغم البذلات السوداء ، والقمصان البيضاء ، ذات الازرار الذهبية ، واربطة العنق الفاخرة ، فالحفلة لم تكن رسمية . والا فاين كبار المسؤولين والحراس الذين يقفون على الباب ، والسيارات التي يجلس سائقيها ، خلف مقاودها بانتظار خروج المحتفلين !

ولكن ماهمية تصنيفها ؟ الحفلات وجدت قبل التصنيف وسوف توجد بعده ، وبالاضافة الى هذا ، فليست هذه هي القضية .

واشد مازعج غالب ، وجعله يشعر بالوحدة والغربة ، هو عجزه عن فهم الحديث الدائر . كان يفهم نتفاً منه ، عبارات وكلمات مفردة ، ولكنه لم يستطيع وضعه في سياق . كان الجميع يشاركون في احاديث متفرقة ، بحيوية ، ولكن موضوع الحديث كان مبهماً ؟ والكلام مدغماً ، مختنقاً . تعلو اصوات احدى المجموعات المحتفلة ، وتتحول الى صراخ وترتفع وتتردد كلمة : « قواد » احياناً مفردة ، واحياناً في صيغة المضاف اليه : « رب القواد » ، واحياناً اخرى بصيغة الاستنكار « غير قواد ! » ، ومرة أكثر بصيغة الجمع : « قواويد ، قنادر ! » . . . ويتوقع غالب ان يتحول الصراخ الى معركة بالايدي . ولكن الاصوات تهدأ فجأة ، وتصبح جزءاً من دوي الحفلة ، وانين المبردة ، وهاث المرواح .

ثم اخذ غالب يلاحظ امراً غريباً . فعندما يستغرق في ذاته ، وتصبح الحفلة ، بالنسبة له ، مجرد صوت ، لاتفاصيل له ؛ صوت يمتزج بحركة جسده الداخلية . . . يتبين لديه ان لهذه الحفلة ايقاعاً خاصاً كان يبدأ بطيئاً ، على شكل

همس رقيق ، حلقي . هنا ، يستطيع غالب ان يلتقط عبارات ، مثل : « انه وداعتك ، ووداعة ابويا » « هلا بالورد ، هلا بيك عيني » « آني ممنون » . ثم يتسارع الايقاع ويزداد علواً ، يترافق مع ضحكات قوية ، اوشتائم من نوع : « قواد ، قندره ، زمال » ويظل يتعالى الايقاع ، ويتسارع الى ان يصل قمة ما ، يعاود بعدها هبوطاً متدرجاً ، ينتهي الى شبه همس او سكون .

حين يصل الايقاع الى لحظة السكون . يتمايز انين المبرّدة ، وحشرجة المراوح . كانت قمة الكريشندو هي : « عباس » ، أوربما « بالعباس » . بعد قليل تأكد لدى غالب ، انها عباس . فكّر غالب ان ذلك قد يكون مجرد صدفة ، اوربما انه هو الذي يسقط ايقاعه على دوي الحفلة . فاخذ يصغي ، باقصى قدر من الحياد ، فرأى ان ذلك يتكرر ، المرة بعد المرة ، دون تغيير . ولاحظ ، ايضاً ، ان اسم عباس يأتي بصياغات مختلفة ، مثل : « خوش ! عباس ! » او « عباس من هو عباس ؟ زين ، زين ، زين . . . » او « يابه ، عيوني ، شنهو عباس هذا ؟ »

على نحو غير واضح ، وبشيء من الخوف الذي لم يعرف له سبباً محدداً احس غالب بأنه مقصود بالحديث الدائر . كيف ؟ لايدري . هل هي العيون التي تراوغ ، تتملص بسرعة عندما تلتقي بعينيه ؟ للحظة ، تلتقي عيناه بعينين . فيرى الانف ينتفخ ، وتفقد العينان تحددهما ، وتترددان هنا وهناك ، ثم يختفي الوجه . هكذا اذن ! فكر غالب . اصبحت مشكلتهم ؛ هل انصرف ؟ قال لنفسه . لابد ان خطأ ما ، او ، على الاصح ، سلسلة من الاخطاء ادت الى مجيئه . هل يعتذر لهم عن هذا الخطأ المقصود ، ويغادر المكان ؟

ولكن شيئاً حدث ، حسم الموقف !

تشكلت بعض المجموعات المختلفة ، على شكل دائرة ، كان غالب مركزها . بدا وكأن ذلك ، قدتم دون تعمد . ثم وقف رجل في مواجهته . كان يلبس بذلة سوداء ، بدت ضيقة عليه ، خاصة الصديري ، الذي جعل غالب يعتقد ان كرش الرجل سيأخذ مداه الطبيعي ، ويمزق الصديري تمزيقاً . كان الرجل يلهث . (هل سبب ذلك ضيق ملابسه ؟ فكر غالب) . وكان قصيراً ، منتفخاً من الوسط ، يكاد يكون بلارقبة . له انف كبير ، ووجه سمين شاحب .

مد الرجل يده نحو غالب ، قبل ان يتكلم . وقد تشكلت اليد الكبيرة وكأنه يمسك بها برتقالة ، وسبابتها تقترب من غالب ، متجهة الى بطنه ـ موضع الصرة

بالضبط ـ واخذ يردد وهو يلهث :

ـ ايه ؟

قال غالب :

ـ انا ؟

قال الرجل بصوت عصبي مختنق :

ـ ايه ، انت !

ـ انا ؟

قال الرجل :

ـ رأيك . شنهو رأيك ؟

ـ رأيي ؟

ـ رأيك .

عن اي شيء يتحدث ؟ وماذا يحدث على وجه التحديد ؟ وتتالت اصوات الآخرين متسارعة ، متصاعدة في العلو ، وهم يقترِبون وكأنهم يهددونه :

ـ قول !

ـ اشييك ساكت .

ـ احكي يابه !

ـ قابل اخرس !

ـ خرا بمذهبك ، دي قول ، احكي !

قال الرجل :

ـ اخرس ؟

بدا لغالب ، من طريقة القاء الرجل للسؤال ، وكأنه بالفعل يود ان يعرف .

قال غالب :

ـ لا .

ـ زين ، ماتحكي .

ـ صدق لله ، قابل نبوس ايده ، احكي عيوني !

وغالب يحاول ان يصد هذه الهجمة ، وان يشرح ، ويقول لهم انه لايعرف . .

قال :

ـ يعني .

كان واضحاً ان الرجل الذي بدأه بالسؤال ، قد انتهى الى نقطة لم يعد يطيق معها الصبر . كان يتنفس بصعوبة ، واخذ يزيل العرق من على جبهته بقطعة من الكليكس ، ويمر بها على حاجبيه وعينيه ثم توقف وصاح ، موجهاً حديثه للآخرين :

- عوفوه لخاطر الله !

قال غالب :

- بس يعني . . .

- ايه . هاي . بس يعني !

- زين سويت ! بس يعني .

- بس يعني . صدقه لله !

- ٣ -

اخذت الامور في التحسن . يبدو ان قراراً اتخذ بهذا الشأن . قدّر غالب انهم اخضعوه لامتحان ما ، وانه نجح فيه . ولكن عجز عن فهم الاختبار الذي خضع له ، وعن الكيفية ، التي اثبت فيها جدارته .

دعاه الرجل القصير اللاهث ان يستريح . وسار امامه ، ثم اشار الى كنبه تتسع لاربعة اشخاص على الاقل ، كانت خاليه ، فجلس عليها غالب . جلس آخرون على نفس الكنبه ، وعلى كنبات مجاورة ، قد وضعت على شكل نصف دائرة .

قال الرجل القصير لغالب :

- الله بالخير .

فرد غالب :

- الله بالخير .

وتتالت التحايا « الله بالخير » وغالب يجيب .

بعد فترة صمت قصيرة ، بدأ الحديث . كان الكلام مفهوماً ، واخذ بعضهم يوجهون الحديث اليه . كان حديثا عن الجو . وافقهم غالب على رأيهم ، أن هذا الحر استثنائي ، حتى بالنسبة لبغداد ، رأى ان سعادة قد عمت الوجوه وكأن عبئاً قد

انـزاح عنهـا . ابتسم البعض له ، واطـرق البعض خجلاً . كان غالب مليئا بالكلام عن الجـو في مختلف البلدان ، وقـد كاد ان يمتـدح الحر الذي لاترافقه رطوبة ، ولكنه قرر ان يتأنى قليـلاً ، قبـل ان يقـول كلامـاً يجعلهم يغضبون منه ، وينطلقون في ذلك الحديث الغامض ،

عاد الصمت . كان مريحـاً . البعض نهضـوا واتجهـوا الى المـائدة . عادوا وقد ملأوا اطبـاقهم بالطعـام ، وكؤوسهم بالـويسكي . يتهامس اثنان ثم يتوقفان ، وقد انطبع على وجهيهما تعبير تقوى .

اخـذ غالب يراقب الـراقصـين . قدّر انهم هم ، ذاتهم ، لم يتغيروا منذ بداية الحفلة . الرجال بوجوه كالاقنعة ، عيونهم مسبلة ، واطراف انوفهم ساقطة ، وكأنهم يسيرون نيـامـاً . والنسـاء يتحـركن بسرعة ويدرن في المكان عيوناً لامعة ، ضاحكة ، وكأنهن يتعرفن على كل وجه يقع في مجال رؤيتهن ، ويلقين اليه تحيه . لم يدع غالب للرقص ، ولم يتـح له ان يراقص أي من النسـاء الحـاضرات . الاغلب ان الرقص ، هنا ، كان مقتصراً على المتزوجين ، او من له اقارب من النساء .

ثم لمح الفتاة . انخطف قلبه حين رآها تمر امامه . تصور ان الرجل القصير يود ان يقـول له شيئـاً ، وحينـما التفت اليـه رآه يهمس الى رجـل بجواره . اما الفتاة فقد تاهت . اخذ يبحث عنها بعينيه ، في كل مكان ، ولكن دون جدوى .

اكتشف غالب ان كأسـه قد تجدد ـ كميـة كبـيرة من الويسكي ، وبعض قطع الثلج . كما وجد امامه طبقاً فيه نصف سمكة مشوية ، وبعض قطع اللحم المشوي ، وطبقاً آخر فيه سلطة . اندهش قليلاً ، فلم يكن ليختر طعاماً غير هذا ، لو كان هو الـذي قام بالانتقاء . ثم نسي كل شيء ، واخذ يبحث عن الفتاة . « انها هي ، اوربما تشبهها » ولكنه لم يستطع ان يتذكر من تكون ، او من تشبه .

يئس غالب من العثور عليها . ولقد اعتاد مثل هذا اليأس في بغداد . فالنساء الجميـلات لم يخلقن له . اين ذهبت تلك اللعينـة ؟ سأل نفسـه ، وقـد شعـر بنفسه عاشقـا حقيقيـاً . سوف يمضي وقت طويـل قبـل ان ينساها . ثم ، اذ بها تباغته من الخلف . قالت :

ـ استاذ غالب !

هذا النـداء اللعـوب ، والصـوت السـريع ، المليء بالضحك النقي الصافي ، وخفة الدم ، يعرفه ، يعرفه كما يعرف اقرب الناس اليه . وبقلب ملهوف ، قال انها

هي ، هي بذاتها . قال :

ـ ليلى .

وكأنه يستغيث . التفت اليها . . فلم يعثر لها على اثر . واخذ يتلفت حوله : اين ذهبت ؟ مامعنى هذا كله ؟ ثم اذا بها تقف على يساره ، قريبة حتى ان ركبتها كانت تلمس كتفه ، منحنية عليه ، ووجهها قريب . قالت هامسة :

ـ ايه ؟

ثم ضحكت ضحكتها التي يعرفها جيداً ، ضحكتها الطلقة ، الصافية كالكريستال . قال :

ـ ايه الحكاية ؟ شفتك . . .

قالت :

ـ جاوب على سؤالي .

كانت اللهجة مصرية ، الا انها قد تكون هي غير مصرية . شيء ما في الايقاع غير مصري . قال :

ـ مش واخد بالي . سؤال ايه ؟

ـ روايات نجيب محفوظ الاخيره . بحب اعماله الاولى اكثر ، خان الخليلي ، زقاق المدق ، بداية ونهاية .

واكمل لها غالب :

ـ القاهرة الجديدة ، السراب ، بين القصرين . . .

فقاطعته ضاحكة :

ـ قصر الشوق ، السكرية . . ايه اللي جرى له ؟ ولا ان ذوقي متخلف ! ، وضحكت . وضحك .

لم يجب على الفور . أخذ يتأملها . يتذكر هذا الوجه ، يبدو مألوفاً الى درجة مذهلة . ماعليه ان يبذل مزيداً من الجهد ، ان يتخلص من حالة الحذر العقلي ، ويتحكم في إرادته ، حتى يستعيد عالماً باكمله . ولكن اين رآها قبل الآن ؟ الانتفاضة الرقيقة للخصر النحيل تدعوه لاسترجاع ملمساً ما . اجهد نفسه في التذكر ، ولكن الذكرى تنفلت منه . اللهجة التي تحدثت بها لاتنتمي الى مكان ، أو بلد بعينها وهذا يعني أنه بامكانها ان تنتمي الى جميع الامكنة . تبدو خارج سياق هذا الحفل ، والمدينة كلها . ولكن من الواضح انها تمتلك الحيوية والجرأة واللباقة التي

تجعلها منسجمة مع المكان والحفلة ، وتعرف طريقها جيداً كأنها عاشت حياتها كلها في هذه المدينة ، وبين هؤلاء الناس .

ضحكت ضحكتها الطلقةوقالت :

ـ سارح دايماً . زي عوايدك .

يتذكر هذه الضحكة . . يتذكرها . . كيف بامكانه ان ينساها ! ولكن اين ؟ الشفتان الجميلتان ، الحمراوان كشفتي طفلة يستعيد مذاقهما على شفتيه . هل هي طالبة في جامعة القاهرة ؟

قالت ، وهي ماتزال تضحك :

ـآه ، ياني منك !

وطالعته بنظرة مباشرة ، صريحة نظرة مشحونة بشيء حلو ، حلو الى حد البذاءة . . . فيها تواطوء ، أو تذكير بشيء خاص جداً ، لايعرفه احد سواهما . تلك النظرة كانت اشبه بتلك النظرة الودودة التي تلقيها احدى المحارم عليك لتذكرك بلحظة غبتما فيها عن مواضعات هذا العالم واندمجتما في علاقة حميمة ، مضت الى نهايتها المعلومة .

قال :

ـ ليلى !

اعترتها حيوية جامحة ، وكأن هنالك من يزغزها ، فبدت كمن ترقص ، وهي منحنية فوقه ، وكان الضحك اللعوب يشيع في وجهها كالضوء .

قالت :

ـ ساكت ليه ؟ ماتتكلم !

قال :

ـ انا موافق على رأيك ياليلى .

قالت وهي تكركر بالضحك :

ـ موافق على ايه ؟

التفت اليها احد الجالسين . كان قصيراً ، نحيلاً ، له انف كبير ، مقوس ، مدبب الطرف ، كالسنّارة تتخلل وجهه غضون كثيرة وندوب . وعلى وجنته اليسرى كانت حبة بغداد ، مدوّرة ، بيضاء وسط وجهه الاسمر .

قال :

ـ تفضلي ، استريحي ، عيني سهام .

والقى الى غالب نظرة لم يستطع تفسير معناها ، وقال :

ـ تعرفوا بعضكو ؟

قال غالب :

ـ طبعاً .

ضحكت ليلى بتلقائية وصخب ، ضحكة كالانفجار . كأنها سمعت نكتة بذيئة ، وحاولت ـ احتشاماً ـ الاتضحك ، غير ان الضحكة انطلقت منها ، رغم ارادتها .

لم تفت غالب السخرية التي تضمنتها عبارة الرجل ، ولكنه تجاهلها ، كما تجاهل الرجل تماماً . وقال للفتاة بلهجة ودودة :

ـ اقعدي ياليلى .

بحثت بعينين عصبيتين ، وبقدر كبير من التهريج وخفة الدم ، عن مكان تجلس فيه . لم يكن هنالك ، رغم النية الطيبة ، الا حيز ضيق بجواره . فحاول ان ينهض ويجلسها . ولكنها ، بحركةٍ سريعة وبارعة ، إحتلت ذلك الحيز الضيق . كانت ملتصقة به تماماً ، الاانها لم تكن تضايقه . كان سعيداً بهذا الالتصاق . ودّ ان تسكن ، ليستمتع بحس جسدها . ولكن ليلى ، لم تكن من نوع الفتيات الذي يلتصق بك في السينما ، ولا يتحرك الابالقدر المرغوب فقالت بقدر كبير من المرح :

ـ ماجاوبتش على سؤ الي ، عايزة افهم ايه السبب ؟

حاول ان يتذكر : « عن اي شيء تسأل ، قطعة المارون جلاسية هذه ؟ »

قال :

ـ لامؤاخذة ، نسيت الموضوع اللي كنا بنتكلم فيه .

ـ نسيت ؟

يبدو ان ذلك ازعجها فقد كان وجهها حزينا . فكّر غالب : ان المسألة ليست مأساوية الى هذا الحد . سمع امرأة ، لم يستطع تحديد مكانها ، تقول بانفعال :

ـ لذيذ !

« من هو اللذيذ هذا ؟ » ثم قدّر انه هو المقصود بذلك . « ان الامور تسير نحو الاحسن . »

قالت ليلى :

ـ ليه لما يكبر الانسان ، لمايتقدم الكاتب في السن ، يفقد قدرته على الكتابة الجيدة ؟

قالت :

- مثلاً .

بدت مختنقة بعذاب مجهول . كأنها تسترجع ذكرى رهيبة مرت بها وماتزال تعكر صفو حياتها . وادرك غالب ، ساعتها ، ان المرح والطلاقة اللذين ابدتهما ، لم يكونا سوى المظهر الاجتماعي ، القشرة الخارجية ، الذي يحاول به الانسان القوي ، الكبير ان يخفي ألمه عن الآخرين . قرر ان يربطها اليه بخيط من الرعاية الابوية ، وبنفس القدر يشدها اليه ، بمعابثة عاشق ماكر . هذا لا يعني انه هو لم يكن يشاركها الالم . فلقد لمست الفتاة عصباً حساساً في داخله - التقدم في السن . قال بحزم :

- ليلى .

نظرت اليه بعينين بنفسجيتين - رماديتين محتقنتين ببكاء مكتوم قالت :

- ايوه .

قال :

- كفاية بقى .

قالت بعناد طفولي :

- انت دايما كده .

وفي صوتها رعشة البكاء .

وغالب يحاول ان يتذكر . يتذكر وجهاً باكياً ، ثم ، ان ماتقوله ليلى استمرار لحديث ، اوربما لاحاديث سابقة . ولكن اين ؟ ومن غيره وليلى شارك فيه ؟ كل مايستطيع ان يتذكره هو قبة الجامعة ، المفروض ان تكون خضراء ، وهي ليست كذلك .

كانت ليلى تتنهد ، تنهدات البكاء المحتجز . واما غالب ، فعندما عجز عن التذكر ، ابتكر ذكرى ، ووضع ليلى ضمنها . الجلوس في كافتير يا كلية الآداب ، والتمشية ، عصراً ، على كورنيش النيل . . . ثم تكلم . بصوت يتخلله يأس من خبر الحياة ، وعانى خيباتها ، فتعلم كيف يوازن الامور وكيف يتجاوز ردة الفعل العابرة قال شيئاً كهذا :

- ماذا تعرفين ، ايتها الطفلة العزيزة جداً ، عن ذلك ؟ هل تعرفين كيف يفقد ، الكاتب روحه ، وتوهجه ، وكيف تتمزق الخيوط التي تصله بالحياة الحقيقية ، الحياة الحارة ، البكر ، لأنه يخلق حياة اخرى بديلة على الورق ؟

ازداد التصاقها به ، فاخذ يهذي :

ـ سيصبح العالم شاحباً ، لأن الروائي قد اعتصر كل مافيه من حياة ، فلم يعد بامكانه ان يشعر بطزاجته . . . انه يعيش اللحظة ليكتب عنها ، فينتزع حدتها . . . هل تفهمين ماأعني ؟

بدا له ذلك فاجعاً جداً . كالموت يأتي بعد حياة مليئة بالآلام والعذاب ، يأتي قبل ان يمتلىء الانسان بالحياة . وبصعوبة استطاع ان يمنع دموعه .

حاول غالب ان يتوقف عن الكلام ؛ ولكن الكلام كان يضغط عليه ، يكاد يخنقه . فمضى :

ـ عن اي شيء يكتب بروست ، بعد ان انتهى من روايته « البحث عن الزمن الضائع » ؟ اخبريني ! لقد امضى سبعة عشرة سنة ، مسجوناً في حجرة ، مبطنة بالفلين . وكتب خبرة حياته كلها . كلها ، لم يهمل شيئاً . ماذا كنت تريدين منه ان يكتب بعد ذلك ؟ ماذا ؟ تكلمي !

كان صوتها غريباً حين قالت :

ـ كمّل الاول .

واكمل :

ـ هل كنت تريدين منه ان يكتب رواية ، عنوانها « سبعة عشر عاماً من العزلة » ؟ وحتى لو كتبها ، فماذا يكتب بعد ذلك ؟

سمع صوت رجل يتساءل :

ـ سبعطاعش ، لو مائة عام من العزلة ؟

لم يلتفت اليه غالب ؛ فقد كان الكلام يلحّ عليه . قال :

ـ الآن تصمتين ، كعادتك . تثيرين المسائل المؤلمة ، ثم تمتنعين عن مواصلة الحديث .

صمت ، حين تخيل ان ليلى لم تكن مصغية . توقف تدفق الكلمات في داخله ، وهمس :

ـ مابتردیش لیه ؟

كان ردها عملياً .

اعانها على ذلك ضيق المكان ، والتصاقهما . كانت تمد ذراعها خلف ظهره ، وتعبث بخاصرته . ثم تزايد ضغط جسدها عليه ، بحنكة امرأة مدربة عندما نظر الى

وجهها ، رآها تنظر الى الطرف البعيد من الحجرة ، وتبتسم لنفسها . وعندما قرر ان يعيد سؤاله ، احس بشديها ناعماً ، صلباً ، مراوغاً يحتك باعلى ذراعه ، بايقاع خفيف ، ولكنه فعّال للغاية . ادرك انها ، بذلك ، تدعوه للصمت .

وصمت .

اخذت يدها تعبث في ظهره ـ « مامعنى هذا ؟ » قال لنفسه ـ ثم اذبها تجذب القميص والفانيله من تحت الحزام ، وتدخل يدها ، وتسير بها ببطء الى بطنه . ثم اخذت تهبط بها .

قال غالب :

ـ ساكته ليه ؟

اكتشف ان صوته قد اخشنه التوتر . ولدهشته ، اكتشف ان جسد ليلى يرتج ، وان تنفسها قد تسارع ، وازداد عمقاً . رغم ذلك ، مضت اصابعها في عبثها بجسده ، باستغراق ودون توقف . رفع غالب ذراعه ، واحاط به كتفي ليلى ، ليتيح لها وضعاً انسب في مداعباتها . واخذ يداعب خصرها ، ثم يصعد الى ابطها ، ويمسك بثديها ، ثم تهبط يده مرة اخرى الى خصرها .

ربما بهدف اخفاء مايحدث بينه وبين ليلى ، اخذ يطالع الجالسين حوله ، متخذاً وضع اصغاء .

كانت الحلقة المحيطة بغالب ، مستغرقة في الحديث عن الاسباب ، التي ادت الى ارتفاع درجة الحرارة في العالم كله . اخذوا يرددون مانشرته الصحف ، عن موجة حارة تجتاح العالم كله .

قال الرجل القصير ، النحيل ، ذو الانف المقوس كالسنارة ، ان ذلك يعود الى الانفجارات الشمسية ، التي تطلق طاقة حرارية هائلة .

قال رجل صارم المظهر ، يبدو على وجهه آثار جدري قديم :

ـ ياه انفجارات شمسية ، ياه طاقة حرارية ، عيني . . . هاي كلها قشمريات ، اخويا !

كان انفه ، يرتعش وهو يتكلم ، وكأنه يستنكر رائحة المكان .

قال الرجل القصير :

ـ او عندك تفسير ثاني ؟

قال ذلك وهو يبتسم .

فقال الرجل الصارم المظهر :

ـ طبيعي اكو . الحرارة الزايدة لأن الارض تقترب من الشمس . الارض ماشيه عدل للشمس ، ورايحة تطب جواها . العلماء متفقين على هذا .

قالت سيدة نحيلة ، تلبس نظارة طبية ، وهي تهز ساقها الموضوعة فوق الساق الاخرى بعصبية :

ـ شلون خربطات هاي !

لاحظ غالب ان لها ساقين جميلتين .

قال الرجل القصير مستنكراً :

ـ خربطات ؟ هاي وينها الخربطات ؟

قالت السيدة بحدة :

ـ صدقه لله . السبب مفهوم ، ماينراد له (واخذت تقلد الرجلين) الانفجارات الشمسية ، التي تطلق طاقة حرارية هائلة ، ولا (وأخذت تحرك انفها مقلدة الرجل الصارم) الارض ماشيه للشمس ، ورايحة تطب جواها . .

ـ شنهو تفسيرك انت ؟

قال لها الرجل القصير . فقالت :

ـ التجارب الذرية الاميركية هيه السبب .

قال غالب :

ـ لكن التجارب الذرية الامريكية تقام تحت الارض ، اوهكذا كانت في السابق ، اما الآن . .

غير انه لم يستطيع الاستمرار . فبدعوى الانصات للحديث الدائر ، مالت ليلى بجسدها نحو المجموعة ، حتى اصبح رأسها مستقراً على صدره تقريباً ، واصبحت اصابعها اكثر حماقة في تنقلاتها داخل البنطلون . وعندما ابتدأ يتكلم عن التجارب الذرية الامريكية احس بكوعها ، وكتفها يداعبان ابطه وجانبه بالحاح ، فكاد ان ينفجر بالضحك ، لولا انه امسك نفسه بصعوبة .

حاول غالب ان يتجاهل امام الآخرين ماتفعله ليلى ، فمال بجسده قليلاً نحو الجماعة ، واخذ يصغي باهتمام . ولكنهم تجاهلوه . بل بدا واضحاً ان احداً لم يسمع ماقاله ـ ام هم قد سمعوه ، ولم يعتنوا بالرد عليه ؟ـ . وادرك غالب فجأة انهم

منتبهون لوجوده ، ولكنهم يتجاهلونه عن عمد . ان عصبية السيدة النحيلة ، وهزات قدمها العصبية ، السريعة التي لاتتوقف ، وصرختها « شلون خربطات » كانت استنكاراً لسلوكه ـ او حتي لمجرد وجوده ـ وقدّر غالب انها ، هي نفسها ، لم تكن تؤمن ، بالفعل ، ان التجارب الذرية الامريكية هي سبب موجة الحر التي تجتاح العالم ، وانها اوردتها لتعبر عن اشمئزازها لما يدور بينه وبين ليلى .

لم تكن تلك المرأة ، وحدها ، التي جعلته يشعر بذلك التجاهل المتعمد ؛ بل احسه ، ايضاً ، بابتعاد كتف من يجاوره عنه ، وميله الى الطرف الآخر من الكنبة ، متظاهراً بالاستغراق في الاصغاء للحديث عن الجو . احسه ، ايضاً ، بالمناظر الجانبية للوجوه ، وقد انطبعت عليها بسمة لاتكاد تلحظ ، استقر مافيها من الاستهانة به ، والاستنكار لمايفعله مع ليلى ، في اعماقه .

« كان عليهم أن يتمهلوا قليلاً ، أن يسألوا ، حتى يعرفون ماحدث بالفعل ، وماهي نيته في المستقبل . . . اي مستقبل ؟ الآن . . » كذا قال غالب لنفسه ، وقد عزم ان ينفذ قراره فوراً . قرر أن يقول لليلى انه يحبها ، وان عليها أن يتزوجا ، الآن ، في هذه اللحظة . وان يقفا امام الجميع ، ويعلنا قرارهما . هنالك حجرات للنوم ، وفي داخلها نفعل مانريد . . . كان ذلك رداً على الاستنكار الذي يحيط بهما ، ودعماً لشجاعة ليلى التي عرضتها للمخاطر .

وحين التفت الى ليلى ليقول لها ذلك ، رأى رأساً صلعاء تتكىء على صدره . رعب اصم استولى عليه ، للحظة ، ثم ادرك ان الرأس للرجل الذي يجلس بجواره ، وانه مال على هذا النحو ليصغي الى الحديث الدائر عن الحر . وتصور للحظة ، ان ليلى مختبئة بينهما . ثم تبين الحقيقة كاملة . ليلى لم تعد بجواره .

اين ذهبت ؟ هل غادرت المكان بسبب خطأ ارتكبه ؟ عليه ان يجدها في الحال ، قبل ان تنصرف ، ويعلن لها حبه ، ورغبته في الزواج منها . اخذ ، ملهوفاً ، يفتش عنها بعينيه . تصورها قلك التي تقف امام البوفيه . ولكن تلك الفتاة التفتت اليه بسرعة ، وثبتت بوجهها الذي يواجهه . « كأنها صورة فوتوغرافية » قال غالب لنفسه . تصور غالب انها تقف هكذا التؤكد انها ليست ليلى . وتتحداه ان يثبت عكس ذلك . ثم استدارت فجأة مواصلة تحديها الى المائدة . تناولت طبقاً وشوكة واخذت تضع الطعام في طبقها ، وراحت تأكل ، لكن غالب لم يتوقف عندها طويلاً . فلم يعد يبالي بها ، او بأي شيء آخر . كان همه ليلى وحدها ، العثور عليها

في التو واللحظة .

ثم بدأ الرجل ، الذي يتكىء برأسه على صدر غالب ، معابثته . اعتقد غالب في البداية ، ان ذلك لم يكن متعمداً . ثم كلّمه الرجل القصير ، النحيل ، ذي الانف المقوس .

قال غالب وقد فوجىء :

ـ افندم ؟

وكرر الرجل :

ـ متونس ؟

ـ نعم ؟

قال بصوت اعلى :

ـ اقول ، متونس ؟

استفهم منه غالب :

ـ من تونس ؟

ابتسم له الرجل وضيّق عينيه . كانت ابتسامته جميلة ، قال وقد امتلأ وجهه مرحاً وخبثاً :

ـ اقول . . .

ـ نعم ؟

ـ سهام وينها ؟

تعمد غالب ان يتحدث بلهجة عراقية غير متقنة :

ـ سهام منهو ؟

ـ سهام يابه ، اللي كانت قاعدة يمك .

ـ ماكو واحدة اسمها سهام كانت قاعدة يمي .

قال الرجل باستنكار :

ـ صدقه لله . البنيه اللي . . .

رد غالب بعنف لايتناسب مع سياق الحديث :

ـ اسمها ليلى .

ان معابثات الرجل الذي يجاوره تجاوزت الحدود المعقولة . كان يزغزغه في خاصرته ، وكأنه يود ان يدفعه الى الضحك ، ثم اذ به يمسك بخاصرة غالب

بعنف ، جعلته يرد على الرجل القصير بتلك اللهجة الحادة .

شعر غالب انه قد اخذ يفقد ليلى . هنالك خطة محكمة لابعادها عنه . وعليه ان يفعل شيئاً ما ، حاسماً وسريعاً ، حتى يحتفظ بها . وضع يده على صلعة الرجل ، المستقرة على صدره وقال :

ـ اعتقد انا لم نتعرف على بعض .

اصبحت صلعته حمراء . كانت صلعة انيقة ، نظيفة ، رفع الرجل وجهه نحو غالب . كان غاضباً جداً ، وقال بعصبية وحدة :

ـ بلي ؟

وضع الرجل القصير يده على يد غالب ـ وقال :

ـ ليلى ؟ تقول ليلى ؟

وضحك ضحكة خشنة ، اشبه بالسعال وردد :

ـ يقول ليلى !

قال غالب :

ـ ليكون معلومك ان اسمها ليلى .

توقف الرجل عن الضحك . سقط جانبا انفه ، وضاقت عيناه ، واخذ ينظر الى غالب بحدة :

ـ اقول لك اخويا ، ليلى زوجتي .

نهض غالب ، وهو يدفع الرجل الذي بجواره بقوة ويقول للآخر :

ـ كل شيء ممكن !

اخذ يتمشى دون هدف . عيناه تبحثان عن ليلى ، دون جدوى خلال تجواله التقى بالناس ، اعتقد انه يعرفهم . يبتسم لهم ، فينظرون اليه بدهشة ؛ يدقق النظر في وجوههم فتصدمه غربتها . فيقول لنفسه ألن يتوقف هذا السيل من الوجوه المألوفة ، والغريبة عنه في الوقت ذاته ؟

احس بخاصرته تؤلمه . فاخذ يمسّدها . وارتفع غضبه : « ذلك الوغد . كان عليّ ان اصفعه ! » . ثم انبثق ذلك الوجه ، مبتسماً ، من زحمة قرب المائدة . « هل يبتسم لي ؟ » ثم تذكر . انه صاحب السيارة التي جاءت به الى هذه الحفلة . اقترب من غالب ، وقال بحماس :

ـ هاي انت وين ؟ د دوّر عليك !

ـ وانا برضه بدوّر عليك . فيه بينا حساب .

ـ حساب ؟

عبس الوجه الضاحك ، وغشاه الذهول ، وهو يقول « حساب ؟ » واخذ يحدّق في وجه غالب ، كأنما ليتأكد ان هذا الوجه ، هو الذي صدرت عنه تلك الكلمة . بدا انه لن ينتهي ابداً من التحديق والذهول . ثم تمتم ، دون ان يتغير تعبير وجهه ، وكأنه يحدث نفسه :

ـ حساب ؟ حساب شنهو ؟

قال غالب :

ـ سيب الموضوع دلوقتي . فين ليلى ؟

ـ ليلى ؟ من هي ليلى ؟

قال غالب بضيق :

ـ كفاية ، الله يخليك « واخذ يقلده » ليلى ؟ من هي ليلى ؟ حساب ؟ حساب شنهو ؟ وبعدين . . . ! ليلى اللي كانت قاعدة جنبي هناك . . .

واشار غالب الى الكنبة التي كان يجلس عليها . اعاد الرجل رأسه الى الخلف ، وقال :

ـ ايه ، ايه ، ايه !

ثم ابتسم ، واخذ يهز رأسه ، وكأنه يلوم نفسه على غفلته . ان مابدا له ، في اول الامر ، لغزاً محيّراً ، قد اتضح الآن ، انه مجرد سوء تفاهم بسيط . وقال :

ـ ايـ . . . ـه . . . سهـ . . . ام . . . سهام . . .

ثم ضحك واضاف :

ـ اريد اقول : من هي ليلى هذي !

قال له غالب برجاء :

ـ ارجوك تقول لي الحقيقة : اسمها ليلى فعلاً ؟

كان انفعال الرجل يفوق كل توقع ، واخذ يزعق ، حتى ان غالب تصور ان الجميع صمتوا ، واخذوا يصغون اليه :

ـ عمري كذبت عليك ياعباس ؟ انا اعتبرتك دايماً اخ ، وحتى اكثر . .

ابتعد غالب عنه متعجلاً ، وهو يقول لنفسه : « يحمل لي كل هذه العواطف ، ولايعرف حتى اسمي ! »

ثم فجأة ، اكتشف حل اللغز الغامض :

انها ليلى في البيت . وعندما كانت تجلس على مكتبها ، عابسة ، صغيرة ، جادة ، تذاكر دروسها ، وينادونها فترفض بعناد طفولي ، فيشدونها من شعرها ، ويطلبون ويرجون ويلحون ان تعد لهم الشاي ، فتضحك تلك الضحكة الطفولية ، العابثة ، الصادقة ، الصادرة من القلب ، وترفض :

- عيني ، دا اقرأ . . . مادا تشوفوا !

فيقبلونها على جبهتها ، ويداعبون كتفيها وظهرها بايديهم الكبيرة القوية :

- ايه عفيه ليوله ، دي قومي وداعه ابوكي . . .

وتكركر بالضحك ، وقد اعجبتها اللعبة ، وتنهض ببطء ، وتتنهد ، شأن الكبار ، تنهيدة شكوى واستسلام وتتجه الى المطبخ . . . ويسمونها ليلى حين تطالعها الضيفات مبتسمات ، ويقلن لامها ان ليولة كبرت ولابد من البحث لها عن عريس ، فيتضرج وجهها حتى جذور شعرها ، وتحاول الهرب منهن ، ولكنهن يحتوينها بقوة ، ويتأملن وجهها « شلون كيكه ! » يصرخن ، ثم ينهضنها ، ويجلسنها بجوارهن ، وهي تصارعهن ضاحكة بعصبية ، متضرجة الوجه ، لاهثة من الانفعال ومقاومة النساء ، والعريس يتراءى ويتجسد خلال ذلك ، فيخفق قلبها ، وتحس بالشوق غامضاً ، تحسه كلسعة النار في احشائها ثم

- ليوله ، عيني ، سوي لنا قهوة . .
- ليوله ، بعد كبدي ، فرد شاي . .
- ليوله ، ياوردة ، اعصري لنا نومي

وهي :

- آني ممنونة ، آني ممنونة ، آني ممنونة . . .

وتعدو ضاحكة ، ترتفع تنورتها عن فخذيها . . . اما سهام ، فهو ذلك الاسم ، الذي لاطعم ولارائحة ولالون ولاتاريخ له . . . نبض ثديها في كتفه ليلى ، وكذلك يدها المعابثة ، والتعبير الحزين المطبوع على وجهها . . . اما سهام فهو ذلك الاسم الذي يكتب في الاوراق الرسمية ، والذي تقدم به نفسها في الحفلات المقيتة ، والمناسبات المملة ، وتسجله في السجلات الرسمية - نماذج الالتحاق بالجامعة ، او الحصول على وظيفة ، او طلب سلفة ، وكل هذا ليس له ، لايعنيه في شيء .

العثور على ليلى لم يكن ، فقط ، بحث عاشق دفعه العشق الى حافة الجنون بل استعادة لكرامة اذهلها الرجل القصير ، والاصلع - يكاد يقول « وكل من الحفلة » - . وخاصة الرجل القصير . لم يعد غالب يراه ، ولكنه يشعر بأنه يراقبه ، من مكان ما ، بنظرة ثاقبة ، شريرة ، يحس بها غالب تتخلله حتى العمق .

واصل التجوال . قالت لنفسه : « كيف انخدعت ليلى واستكانت لهم ؟ هل يضعونها الآن في احدى تلك الحجرات ، ويضعون عصابة على عينيها ، وكمامة على فمها ؟ » لم يخطر بباله ، للحظة واحدة ، ان تكون ليلى شريكة ، فيما حدث له .

« أهي ملقاة عارية ، على السرير ، مفروجة الساقين بالقوة ، والمحتفلون من الرجال ، واحداً إثر الآخر ؟ . . . » ثم سيفكون العصابة من على عينيها ، والكمامة ، ويضعونها بين يديه :

- تفضل استاذ ، حبيبتك ، زوجتك . . .

ولكنه شعر انه يبالغ كثيراً . فالوجوه جادة ، مشغولة بذاتها ، إن كلمتها فوجئت . . . وهذا يعني ان لاشيء يحدث ، وان الامور تسير في مجراها الطبيعي .

وواصل التجوال ، يبحث . الفتيات ، كل واحدة على انفراد ، يكنّ ليلى في البداية . فيخفق قلبه . يكنّ ليلى وهن يرقصن ، اويأكلن ، وهن يصغين بادب ، او وهن يحاورن الاصدقاء والصديقات ، اويتأملن لوحة على الجدار ، اويطالعن وجوههن في المرآة . . . ثم تراهن ينسلخن عن ليلى ببطء ، واصرار ، يضعن انوفاً واعيناً أخرى ، وشعراً له تسريحة ولون ولمعة مختلفة ، واثداء وثياباً واحذية وايدٍ وافواه خاصة بهن ، الى ان يتكاملن ويصبحن اخريات ، غريبات غير ليلى اوسهام او نيولة ، ويتحولن الى عضوات في جنس ، لايتمايز . تكون الواحدة ليلى وهي تضحك ، ثم يتماسك الانف الذي تسطح ، والفم الذي انفتح على سعته ، والخدان اللذان انبسطا ؛ ويحدث صراع بينهن وبين غالب . . . غالب يصيغ لهم ملامح ليلى ، وهن يتمردن ، ينجحن بعض النجاح ، ثم يفشلن ويعاودون ، مرة أخرى المحاولة . وفي لحظة ينهزم غالب ، ويتمكن ، لهن .

ربما نسي نفسه ، واخذ يصغي للاحاديث الدائرة . فتاتان تتقابلان . تتعانقان وتتحدثان معاً :

- هاي أنت وين ؟

- اشو أنت ماكو !

لم يندغم الحديث ، ليصبح صوتاً خالصاً ، ماعدا بضعة كلمات تنفلت : حرامات ! جديات ؟ داتقشمريني ؟

ثم تنأى عن الاحاديث الخاصة ، ويظل الصوت . ومرة آخرى يكتشف الايقاع ، المتصاعد المتسارع ، الذي ينتهي باسم « عباس هذا »

تظل ليلى مطلبه . وفي داخله ثقل ، يجثم على صدره ، كالبكاء ؛ ثقل يبهظه ، ويكاد يخنقه . وفي داخله التساؤل كالحمى ؛ تساؤل لاجواب عليه الا بالعثور على ليلى : « اين اخفوها ؟ وكيف استطاعوا ان يفعلوا ذلك ، دون ان يرتاب فيهم احد ؟ ولكن من هم ؟ من هم الذين فعلوا ذلك ؟ » واعترته لهفة ، وسعار . يجب ان اجدها ، قال لنفسه .

وبدا كمن يرقص على انغام موسيقى اسبانية ، سريعة الايقاع ، وهو يتنقل بين المحتفلين باحثاً عن ليلى . عدد من الفتيات يدرن ظهورهن له . كسن يقفن امام المائدة يخترن كميات صغيرة من مختلف انواع الطعام ويضعنها في اطباقهن . خطوط الظهر ، تحمل تشابهاً بليلى - متى رأى ظهرها على اية حال ؟ - . وقف بينهن ، وبحجة التعرف على اصناف الطعام ، تفحصهن واحدة ، واحدة . لم تكن ليلى بينهن . قبل ان يدير ظهره تذكر ان عليه ان يتناول طبقاً ، ويضع فيه طعاماً . والا اعتقد الجميع - خاصة ذلك القصير النحيل ، (الاصلع استبعده من ذاكرته) الذي اصبح رقيباً يجلس في داخله - انه انما وقف في هذا المكان ليزعج الفتيات ، او يجتذب انظارهن .

اصبح اختيار الطعام معضلة حقيقية . فقد اعتقد انهم لن يراقبونه ، فقط ، وهو يضع الطعام في طبقه ، بل سوف يعملون على التأكد انه اكله كله . وضع قليلاً من السلطة في طبقه . اكثر من الخس للتعمية . وقبل ان يمد يده ، ويختار الصنف التالي سمع الصوت بجواره :

- جرب هذا .

المتحدثة هي المرأة النحيلة ، التي عزت موجة الحر الى التجارب الذرية الامريكية . لم تكن تلبس نظارة طبية ، ولم تكن نحيلة . كانت تشير الى دجاج مطبوخ بصلصة بنية . قال :

ـ شكراً . رايح اجربه .

مد شوكتـه ، وغـزهـا في ورك دجـاجـة ووضعهـا في طبقـه . ثم التفت الى المـرأة ، وكأنـه ينتظـر ان تدلـه على صنف آخـر . كانت تبتسم تلك الابتسـامـة السـاحرة ، المتـواطئة ، وقد نظرت في عينيه مباشرة . شعر بالدم يندفع الى رأسه . « اية امرأة » قال لنفسـه . ذلـك الجسـد الـرياضي ، المتماسك ، والذي ينبض بايقاع غير ملحوظ ، بكهربية احس بها تلسعه . النهدان البارزان المرتفعان ، والخصر الدقيق ، والارداف القـويـة . وهي في حركتها وسكونها تجسّد قوة ارادة ، وسيطرة . جعلت مفاتنها وكأنها اسلحة . تنازل بها متى شاءت . قالت ، وعيناها مسلطتان على عينيه :

ـ تحب الافخاذ ؟

كان فمه جافاً . قال :

ـ بلي .

قالت :

ـ فخاذ الدجاج ؟

قال :

ـ الافخاذ عموماً .

قالها ، ولم يدرك التلميح البذيء الذي تحمله ، الاعندما رأى عينيها ترقصان .

قال ، دون محاولة ، ان يستمر في الموضوع ذاته :

ـ اسمي . . .

همست بذلك الفحيح المتواطيء ، المفعم رغبة :

ـ اعرف .

ثم التفتت الى المـائـدة واخـذت تملأ طبقها ، وهي ، خلال ذلك ، تنظر اليه نظرة جانبية ، وعلى شفتيها بسمة خفيفة . قال :

ـ مش عامله ريجيم ؟

كان يريدها ان تواصل تلك التلميحات الجنسية . مالت اليه برأسها وهمست :

ـ قميصك وفانيلتك عيوني !

احس بسخرية باردة في صوتها

ـ اشبيها ؟

نظرت اليه :

ـ خليها جوا البنطلون .

قال لها :

ـ طبعاً ، طبعاً .

واخذ يدفع القميص والفانيلا في فتحة البنطلون ، بيد واحدة .

تناولت الطبق من يده ، وقالت :

ـ بايديك الثنتين .

قال بارتباك :

ـ زين ، زين . . . !

ثم همس لها ، وهو مايزال يحشر قميصه تحت البنطلون ، ويشفط بطنه الى الداخل ، حتى ينتهي من القميص بسرعة :

ـ على فكره . .

ـ بلي ؟

قالت .

قال :

ـ احب نكمل حديثنا عن الجو والتجارب الدرية الامريكية .

انفلتت منها ضحكة ، كان واضحاً انها صدرت رغما عنها ثم قالت ، وهي تحاول ان تكتم ضحكها :

ـ بعدين .

ـ متى ؟

ـ بعدين .

ـ ماقلت لي اسمك ؟

قالت وجسدها ينتفض معابثة وخفة دم :

ـ سهومه .

ـ إمتى اشوفك سهومه ؟

ولكنها استدارت ومضت دون ان ترد . لحق بها وأمسك بكوعها وقال :

ـ ماقلت امتى ؟

نزعت ذراعها بقوة ، وسارت بتصميم ، دون ان تلتفت اليه .

وقف متردداً ، ثم عاد وتناول طبقه . وفجأة تذكر : « لماذا لم اسألها عن ليلى ؟ »

- ٥ -

كان مرهقاً ، ماذا بعد البحث الذي لاجدوى منه ؟

وكما تكون واقفاً على رصيف الشارع ، وترى وجهاً في سيارة مسرعة ، هكذا ظهر وجه ليلى ، تعبر الطرف البعيد من الحجرة ، ثم اختفت .

عاد اليه حماسه للبحث عنها . اسرع يصطدم بكل من يقف في طريقه وصاح :

- ليلى !

بصوت سمعه الجميع ! وهكذا اعتقد . ولكن الزحام حول الطعام ، الذاهبون بايد فارغة ، والعائدون باطباق مليئة ، وتوقف البعض امامه وقد تذكروه فجأة - ومصافحته بقبضات قوية ، تكبله وتمنعه من الحركة لبعض الوقت ، ثم السؤال عن الصحة ، وآخر كتاباته ، والالحاح على تحديد موعد للزيارة . . . وخلال ذلك كله يفقد كل أثر لليلى .

اصبح في حالة يائسة ، وهو يتحرك هنا وهناك دون فائدة . جلس في اول مقعد وجده (قال لنفسه : ماجدوى البحث ؟) واخذ يأكل . لقد سار فترة طويلة ، حاملاً طبقه ، وعليه ان ينتهي منه . كان الغضب قد اخذ يتسرب اليه . واتجه نحو ليلى هذه المرة : « من حقي عليها ان تبذل ، ولو مجهوداً صغيراً ، للبحث عني ، لماذا اقوم انا وحدي بالبحث » ثم تراءى له وجهها حزيناً ، وصوتها الذي يحمل رنة البكاء .

اكتشف انه جائع ، فالتهم طعامه ، وهو يشعر بالتوتر ينساب منه . نهض ، ووضع الطبق الفارغ على المائدة ، ثم اخذ يسير دون هدف ؟! او هكذا حاول اقناع نفسه . ولكن قلبه كان يرتعش كلما توهم ان الفتاة التي راها هي ليلى . كان يتجه نحوها ، ويناورها ، حتى يقف في مواجهتها . لم تكن ليلى . بدأ الشك يراوده أن ليلى هي التي تتجنبه ثم استوقفه ذلك الرجل .

وهو مازال بعيداً عرف ان الرجل يقصده . حاول ان يتذكر اسمه عمله ،

مناسبة تعرفه به ــ لكنه فشل . بدا الرجل ، وهو يتجه نحوه ، كأنه يسير ببطء على حذاء للانزلاق . . اذ كان يتقدم وجسده متصلب ، وكأنه في حالة انتباه . كان قصيراً جداً ، عريض الكتفين بشكل ملفت له وجه متجهم ، منتحب ، وجه كبير ، كقناع ملصق على رأس ضخم والــرأس قد وضــع دون واسطـة ـ اعني رقبـة ـ بين كتفـين العـريضـين . كان يخفي عينيـه بنظـارة سوداء ، ذات زجـاج لامـع ، لاترى فيه الا انعكاس وجهك المزدوج . جعلت النظارة انفه الكبير ، الواسع الفتحتين اضخم من حقيقتـه . وجنتـاه البارزتان جعلتا وجهه الكبير يبدو ضامر الخدين ، كأنه وجه لرجل مريض ، أو يعاني مجاعة

اقترب من غالب كرجل آلي . ملامحه لاتحمل اي تعبير . وقف امامه تماماً ، وهتف :

ـ غ . . . ا . . ل . . ي . . . ب . . !

كانت رائحة البيرة تفوح من فمه قوية ، نفّاذة . ولكن العجيب في الامر ان صوته كان صادحـاً ، جميـلاً . ولم يستطـع غالب ان يتأكـد إن كان ذلـك يحمـل استنكـاراً ، ام ترحيباً ، وكأنه عثر عليه بعد جهد ، وفي آخر لحظة قبل ان يفلت منه .

قال غالب :

ـ هذا انت ؟

وكأنه لايتوقع وجوده في بغداد كلها .

كشف الآخـر عن اسنـان كبـيرة بيضـاء ـ بيضاء من ذلك النوع الذي يجعلك تتساءل : هل هي اسنان اصطناعية ؟ـ واخذ يكرر وهو يلهث :

ـ غاليب ، غاليب ، غاليب . . !

قدّر غالب ان الرجل لابد ان يكون سكراناً . تشنج الوجه ، وانتفخ الانف

كان يبـدو وكأنـه يعـاني مغصـاً لايطـاق . ثم ارتفعت ذراعـاه القصـيرتـان جداً ، وانفتحت كفـان كبـيرتـان ، مكسـو ظاهـرهما بشعر اسود كثيف ، وامسك بكوعي غالب ـ بقبضتين قويتين ، واخذ يردد بصوته الصادح العميق :

ـ غاليب ! غاليب !

قال له غالب :

ـ اسمعك !

وهـو يجاهـد للتخلص من امسـاكته . ولكن الرجل شدد من قبضته على كوعي

غالب ، وألقى رأسه الى الوراء ، شاخصاً الى السقف ، وكأنه يفعل ذلك ليرى غالب الشعر الذي في داخل انفه . ثبت الوضع لحظات ـ ثم همس بصوت مشحون ، مختنق :

ـ شفت ، عيني ، شفت ؟

خطر لغالب انه رسول ليلى ، فقال :

ـ ليلى ؟

قال الرجل بصوت عميق ، مستنكر مشحون بالموسيقى :

ـ ياه ليلى ، ياه زفت !

واخذ يلهث ، ويهز كوعي غالب بانتظام ، وكأنه يحرّك مقبضي آلة ، تعطلت ، وقد ازداد ميلا الى الخلف .

قال غالب :

ـ ايه الموضوع ؟

ـ القصيده اخويا ، القصيده عيني !

حاول غالب ان يكون مرحاً . قال :

ـ قصيده جديدة ؟ رائع ، رائع جداً ! احب اسمعها في اقرب فرصة ؛ لكن مش دلوقتي . زي ماانت شايف . .

مشيراً برأسه ، في حركة دائرية ، احتوت الحجرة الواسعة ، والمحتفلين ، الجالسين منهم والراقصين ، والواقفين امام المائدة ، كما شملت النوافذ والحديقة ، والسلم الداخلي الذي يؤدي الى الطابق الاعلى ، والشاعر وليلى . . . وباختصار بغداد كلها بكل ماتحتويه ، وتخبئه . اضاف غالب :

ـ بس شيء رائع ، حقيقة .

ضيّق الشاعر منخرية ، فبدا انفه طويلاً جداً ، وحاداً ، وفمه الذي يكشف عن اسنانه البيضاء الكابية ، كان شكل مثلث ، قاعدته ، شفته السفلى . واخذ يتنفس بعمق .

«الى متى يستمر ذلك ؟ » . سأل غالب نفسه . ثم قال لمجرد ان يقول شيئاً :

ـ رائع ، حقيقة .

قال الشاعر وكأنه يستغيث :

ـ القصيدة ، اقول القصيده .

شعر غالب انه لن يستطيع التخلص منه بسهولة . حتى جسدياً اصبح ذلك يزداد صعوبة ، والآخر يمسك به بهاتين القبضتين الفولاذتين . بل ان غالب ، في واقع الامر ، كان يحاول طيلة الوقت ان يخلص كوعيه ولكن امساكة الشاعر ، كانت تزداد احكاماً ، في كل لحظة ، قال :

ـ انت تؤلمني .

ولكن الشاعر مضي يردد :

ـ القصيده ، القصيده . . !

قال غالب :

ـ اي قصيدة ؟ انت تعرف ان ذاكرتي . .

كان الشاعر مغمض العينين ، وازداد ميلاً الى الخلف حتى اصبح رأسه مدلى في الفراغ ، مما اضطر غالب ان ينحني قليلاً الى الامام . وقد اخذ يكز على اسنانه حتى اصبح صريرها مسموعاً ، يبعث القشعريرة في جسد غالب .

ثم قال الشاعر ، ووجهه يتقلص ويتشنج ، كأنه يبكي دون صوت :

ـ القصيده ، لخاطر الله ، القصيده !

« مامعنى هذه الاستغاثة ؟ » تساءل غالب ، وقال :

ـ مالها ؟

تكلم كثيراً ، ودون وضوح كافٍ : القصيدة ، الا تذكر ؟ قرأتها لك في مقهى البرلمان . ـ . واعجبت انت بها . . نسيت ؟ . . او شيء كهذا .

حاول غالب ان يتذكر . مقهى البرلمان ؟ تراءت له الدكك ، والزبائن ، وجه صاحب المقهى العجوز ، المحفور باخاديد سمراء صلبة ، ويظهر من مكتب يقع على يمين الداخل ، وقد اعتمر الرأس كوفية وعقالاً ، صواني الشاي ، يدور بها رجل عابس ، فوقها العديد من الاستكانات المليئة بالشاي ، عربدة المثقفين صباح يوم الجمعة ، واجهة المقهى الزجاجية ، المارة في الشارع ، نساء بعباءات . . . ولكن

القصيدة ؟ قصيدة هذا الشاعر ؟ قال غالب :

ـ القصيدة . . آه هه ، آه هه . . ممتازة !

قال الشاعر وهو يلهث :

ـ لقد نشروها .

وتساءل غالب : « اذن ، ماسبب هذا التجهم المأساوي ، والبكاء الصامت واللهاث !! »

قال :

ـ نشروها ؟ مبروك ، مبروك !

زعق الشاعر :

ـ ياه مبروك ! ياه زفت !

ـ ماذا حدث ؟

قال الشاعر ، وهو يؤرجح غالب :

ـ نشروها ، عيني ، نشروها ، وماحطوا اسمي عليها . قالوا لي . . .

وضحك بمرارة (فكّر غالب : الشاب فكه دون ريب . .) واضاف الشاعر :

ـ ماحطوا اسمي عليها . قالوا سقط اسمك سهواً في المطبعة . القواويد ! سقط سهواً في المطبعة .

هل جاء دور الغناء ؟

لقد اخذ الشاعر يرتّل بصوت حزين ، عميق ، صادح ، وكأنه يندب :

ـ سقط سهواً في المطبعة ، سقط سهواً في المطبعة . . .

اخذ غالب يحس بالدم محتبساً في كفيه . اية محاولة للافلات من هاتين القبضتين الفولاذتين اصبح لاجدوى منها .

ثم جاءت الكلمات ، وكأنها معدة ، كلمات تكشف حقيقة عايش وعانى الامها منذ قليل . وهكذا القى غالب خطبة قصيرة ، موجهه الى المحتفلين ، بقدر ماهي موجهه للشاعر ، الذي كان يصغي ، وقد ارتفع حاجباه ، وتجعد جبينه .

في البداية همس للشاعر :

ـ خف شويه ، خفف قبضتك .

لم يستجب الشاعر . فقال له :

ـ انك تؤلمني !

كان الشاعر يرفع حاجبيه ، ويقلّص جبينه فقط ؛ وقدر غالب ان عينيه مملؤتان بالدهشة تحت نظارته السوداء . ثم ضغط الكلام على غالب ، فقال بصوت مرتفع :

ـ هذا مايسمونه اختلاط القيم !

احس غالب بالصمت الـذي ساد ـ ام ان ذلـك مجرد خيـال ؟ ـ ولكن صوتـه مضى قوياً ، واثقاً :

ـ نسمّي هذا اختـلاط القيم ، حيث تفقـد الكلمات رنينهـا وروائحها ، حيث يتم تشذيبها وتعهيرها ، وتنعيمها ، وتأنيقها ، حتى تصبح كالصابون ، كالسمك في الماء ، تنزلق من يديك كلما حاولت احتواءها ، والامساك بها .

لم يكن ماسمعه تصفيق بالضبط ، ولكنه نوع من ضجة الاستحسان .

فمضى غالب :

ـ كلمات لذاتها !

وصمت . كأنه يود للمستمعين ان يستوعبوا ، على مهل ، معنى هذه العبارة الموجزة ، العميقة .

رغـم الـصمت ، لاحـظ ان الجميـع لاينظـرون اليـه ، بل بدوا منشغلين بالطعـام ، او الـرقص ، اومراقبـة الصـور على الجـدران . كان ذلـك اشبـه بحفلة صاخبة في فلم سينمائي ، دون صوت . وكأنه يرد على هذا التجاهل ، قال بصوت رنان :

ـ اسمع ياأخي الشاعر ! اكتب مقالاً طويلاً ، عريضاً ، دافع به عن اسمك ، عن حقـك ان يكـون لك اسم . ضع اسمـك في صلب المقال (بلهجة ساخرة) حتى لايسقط سهواً في المطبعة .

دوت ضحكة الشاعر .

وواصل غالب :

ـ قل : من حقي ان يكون لي اسم اعرف به . قل بقوة : بولد جميع الناس ، فيكـون لهم اسـماء ، ويصبـح هذا الاسم جزءاً من الهـويـة ، كالـوجـه ، والجلد ،

كالافكار الخاصة بنا ، والانوف والعيون والشعر والصوت . قل هذا باعلى صوت ، واوضحه . . .

سمع عبارة : « منهو هذا القندره ؟ »

علا صوت غالب ، ليسكت المتكلم ، او ربما ليعلن تحديه له ، وقال :

ـ باعلى صوت ، واوضحه . . . !

وانهى خطبته فجأة . انفلت من قبضتي الشاعر واندفع بهوج نحو الباب . فقد رأى ليلى جالسة في الحديقة ، على مرجيحة تهتز ببطء . والضوء يسقط عليها ، من فوقها ، ومن خلفها ، راسماً حولها اطاراً مشعاً . اومأت اليه . كانت طيلة الوقت تومىء اليه . ولكنه اعتقد انها فتاة اخرى ، تومىء الى آخر او آخرين . وعندما ادارت وجهها الى اليسار ، فاضاء النور القادم من الخلف وجهها ، تعرف عليها . وصل الباب المؤدي الى الحديقة . كان الزحام امامه كثيفاً . وارتفعت الاصوات :

ـ وين رايح ؟ من وقت . نوصلك بالسيارة .

ـ القيت خوش خطبة .

ـ خطبة رائعة ، وداعتك .

خاطبه رجل كبير الوجه ، هائج الشعر ، بصوت مبحوح :

ـ رائعة الخطبة ، بس خطية ، الشاعر الفقير وقع على الأرض وقال :

ـ حرامات .

نظر غالب خلفه . كان الشاعر فعلاً ملقى على الارض . قال :

ـ حرامات !

قال الرجل النحيل ، القصير ، ذو الانف المقوس ، ان هنالك امراً مهماً يريد ان يكلمه فيه .

قال غالب :

ـ ياجماعة ، انا مش عايز اروح ، عايز اشم هوا في الحديقة .

تعالت الاصوات :

ـ ياه هوا ! حربره ! هنا تبريد عيني .

وقال القصير انك هنا تجد من يحدثونك وتحدثهم . تعالى الآن ، حالاً لنناقش خطبتك . . .

قال غالب بعصبية . محاولاً ان يقلد اللهجة العراقية :

ـ هنـا تبريـد ، هنـا تبريد ! اريد هواء نقي ، هواء خال من دخان السجاير . ورائحة ـالاجساد . ماقلت اني اريد هواء مبرد . مفهوم ؟

قهقه الرجل ذو الانف المقوس وقال :

ـ رائحة الاجساد ! الحق واياك .

ومضى يقهقه . وغالب يشق طريقه ببطء . أخذ الناس يبتعدون عنه ، وفجأة رأى تلك المـرأة التي تلبس نظـارة طبيـة تقف امـامـه ، وكلهـا ابتسـامات ورقة ، وقد تحولت الى قطعـة من الاغـواء . همست بصوت مبحوح ، مليء بالاثارة ، وهي تغمز بعينها وتبتسم :

ـ زررت بنطلونك ؟

وضع غالب يده على كتفها ، فاحس به ناعماً ، صلباً ، نابضاً . اصبح طلق اللسان بشكل مذهل :

ـ بامكانك ان تتأكدي من ذلك بنفسك .

واخذ يداعب كتفها .

همست :

ـ مو هنا !

همس غالب ، وهـو يقـترب بوجهـه منهـا ، وهو يقاوم وضع شفتها السفلى ، الدسمة بين شفتيه :

ـ فين ، اذن ؟

ضحكت وقالت :

ـ غالب السريع .

قال :

ـ خير البر عاجله .

ـ شلون يعني ؟ واحنا واقفين ؟

قال :

ـ على الواقف .

قالت وجسدها يرتج بالضحك :

ـ تعلمت خفة الدم من المصريين .

قال لها بحدة :

ـ ومن قال لك ان المصريين دمهم خفيف ؟

ـ في السينما دمهم خفيف .

ثم حدث شيء يصعب فهمه . اصبح وجهها جاداً ، وبحركة بارعة تخلصت من يده التي يضعها على كتفها وقالت :

ـ تعالى نقعد وايا اصدقائنا .

قال لها :

ـ انت صديقتي الوحيدة هنا

قالت بضيق :

ـ صدقه لله !

ـ مش فاهم .

قالت بضيق ، مقلدة طريقته في الكلام :

ـ صديقتي الوحيدة ! شلون مخبل !

ثم احتدت عيناها ، واشارت بسبابتها الى الداخل :

ـ ارجع مكانك :

ـ أيه ؟

قالت !

ـ ارجع مكانك :

قال :

ـ مخبلة . الحر سببه التجارب الذرية الامريكية . ماسمعت ان هناك اتفاقية تمنع اجراء التجارب الذرية فوق الارض ؟

ضحكت وامسكت يده . ولكنه انفلت منها الى الخارج .

سار فوق ممر مبلط يمتد لصق جدران البيت الخارجية ، ثم هبط منه الى الحديقة .

ـ ٧ ـ

كانت الفتاة تجلس على مرجيحة منصوبة بين عامودين حديديين . المرجيحة عريضة ، تتسع لشخصين على الاقل . فرشت قاعدتها بحشايا اسفنجية شدت الى القاعدة بسيور من قماش . مسند المرجيحة مغطى بفرشة ، ممسوكة بعراو موضوعة

داخـل عامـود افقي ، يصـل بين قمتي العـامودين . والفتاة جالسة تضع وجهها بين كفيهـا ، وقـد استقـر كوعـاهـا على فخذيها ، وراحت تحرك المرجيحة جيئة وذهاباً ، بايقـاع بطيء . خصـلات من شعـرهـا تتهـدل على وجههـا . وبـدت بعيـدة ، مستغرقة في هم ما ، وحزينة كأنها تعيش فاجعة .

وقف غالب امامها حائراً ، في انتظار ان تنتبه الى وجوده . ولكنها استمرت في شرودهـا . اصغى الى اصوات الحفاة . لم يكن هنالك صوت على الاطلاق . تولاه احسـاس انـه هو وليلى وحيـدين ، في غابة بعيدة عن البشر والناس . والضوء ؟ كان خافتاً ، وكأنها قرب بيت مهجور ، مضاء بشمعة ، تشعلها اشباح سكان غابرين . « الهـذا ابعـدوني عن الحـديقـة ؟ » وكـان تسـاؤ له ـ احتجاجه ينصرف الى ابعد من المحتفلين ، ليصـل الى تلك الـروح العملية ، التي تنخز في لباب المدينة كالسوس ، وتبعدها عن الشعر والغابة ، ولقاء عاشقين تحت ضـوء القمر .

وامتلأ قلبه بالشعر . شعر بغداد ، سحر بغداد الذي استمر يفيض في قلبه منذ زمن بعيد .

همس :

ـ اميرتي .

لم ترد .

همس :

ـ ليلى !

لم ترفـع رأسهـا . قدّر انهـا لم تسمعه اصلاً . قال لنفسه ، ان هذا الشرود الطويل ، والحـزن الـذي صمـد للزمـان ، بهما نستعيـد تلك العـراقة التي اخذت تزول . انهما تعـويضـه وعـزاؤ ه عن تلك الحـركة الخرقاء ، التي تجتاح شوارع المدينة . اقترب منها حتى كاد يلامسها ، لتشعر بوجوده ، وناداها .

ـ ليلى .

هل قالت شيئاً ؟ ام كان ذلك انسياب حيوان مجهول عبر الاشجار والعشب .

كرر النداء :

ـ ليلى !

كانت صرخة مخنوقة .

قالت بهمس ومن غير ان تنظر اليه :

- استريح .

اي حزن بغلّف تلك الهمـة . لقـد قالت كلمتهـا وتنهـدت بعمق . فصـرت المـرجيحـة . ونظـرت اليـه . وكأنها توصلت في تفكيرها الى نقطة اجملت فيها المسألة التي تشغلهـا ، وابعـدتهـا عن مجال تفكـيرهـا ، ثم اعلنت احتجاجها على الموضوع بكليته ، بتلك التنهيدة .

قبل ان يجلس فكّر : هل يجلس ملتصقاً بها ، مثلما كانا في الداخل ؟ بدا ذلك خارج سيـاق المـوقف ، لاينسجم مع الغابة والشعر ، ولقاء عاشقين في ضوء القمر ، ولامع اللحظة . وأكد له احساسه ان ذلك لايصح . الالتصاق في الداخل كان وليد الضرورة - عندما يستعيده في سياق ليلى الصامتة ، والحديقة السمراء ، والاصوات الغامضة التي توشوش بين العشب والشجر ، فان التصاق ليلى به يصبح وليد ضرورة فرضت نفسها عليهما . اين كان بامكانها ان تجلس ، وتتمكن ، في الوقت ذاته ، من ان تسمع إجابة على اسئلتها الهامة للغاية ؟

جلس بجوارها ، ومد ذراعه فوق الجزء الاعلى من المرجيحة ، فوق حشية المسند . كان ذلك ايضاً بفعل الضرورة . وكان يعلم ، وان لم يقل هذا لنفسه بصراحة ، انها حين تتعب من هذا الانحناء ، وتريح ظهرها على المسند ، فسوف تكون ذراعه محيطة بكتفيهـا ، وقـد يستقـر رأسها على صدره ، فيلمس شعرها بشفتيه وكأن ذلك لا مفر منه . كان ذلك طبيعياً انه اشبه بالتصاق اناس في باص مزدحم ، لم يتعارفوا من قبل وقد لايرون بعضهم مرة اخرى .

كانت الاضواء قد اختفت من الحديقة . لايدري متى وكيف . الشجر الذي يحيطهـما من كل جانب اسـود ، متـماسـك ، يحدده من الخـارج ضوء كضوء الفجر .

والصمت ثقيل ، صاف . ليس ذلك الصمت الذي يجعلك تشعر ان الاشياء حولك تكتم انفـاسهـا ، تتأهب لحركـة ، بقفـزة هائلة ، اولانفجـار مدوٍ ، بل كان صمتـاً اسـترخت فيـه الاشيـاء وبـدأ يستـولي عليهـا خدر النـوم ، وكأن الكـائنات الحية قد اخلدت الى نعاس لذيذ حالم .

والفتاة صامته .

يعلن غالب عن وجوده بسعلة ، أو تنهيدة ، فلاتجيب . يمتص السكون ذلك الصوت ، الذي عكّره للحظة . وكأن ليلى بصمتها تعلن انه اقتحم وحدتها ، عزلة

اختارتها ، لتنهي فيها عملاً بالغ السرية والاهمية . وفاضت شحنات من صمتها على العالم ، فدب فيه توتر ، بث الرعدة في قلب غالب ، الذي اصبح متأهباً لوقوع الكارثة .

كان ضعيفاً وخائفاً . ثم تذكر .

حين رآها عبر النافذة ، كانت هي التي تومي، اليه بالحاح ، تدعوه ان يجي، باسرع مايستطيع ، وكأنها تقول له : مالحركتك بطيئة هكذا ؟ مالك تراني وكأنك لاتراني ؟ هل اغوتك أخرى وابعدتك عني ؟ احس انها قالت ذلك بايماءاتها العصبية ، الملهوفة ، وهو ينظر اليها ظاناً انها فتاة أخرى ، تومي، لانسان آخر . اراحه ذلك . وقرر ان يعتبر صمتها نوعاً من الالفة الحميمة ، وزوال الكلفة بين حبيبين ، تجاوزا كل المواضعات . خاصة انه يعلم - وإن كان عاجزاً عن التذكر - انهما صديقان منذ زمن بعيد جداً ، وان علاقة قديمة جداً تربط بينهما . سوف يتذكر ذلك في يوم ما . عنهاشعر بالراحة ، وانسحب التوتر من قلب الاشياء .

لمس كتفها لمسة خفيفة فشهقت وازداد انحناؤ ها . ابعد يده وسكن . وظلا ، هكذا صامتين ، أليفين ، وكأنهما كيان واحد ، انقسم ظاهريا إلى أثنين وحين استدارت تكلم ، حاول ان يجعل صوته عادياً . قال :

- ليلى .

احس بها وقد تنبهت واخذت تصغي اليه . ارتجاجة المرجيحة ، غير الملحوظة انبأته بذلك . رأى ان عليه ان يواصل الحديث .

قال بصوت حاول ان يجعله طبيعياً :

- ايه اخبار سهام ؟

من الواضح انها فوجئت بشدة . فقد ارتجت المرجيحة بقوة ثم اخذت تتأرجح جيئة وذهاباً . استمر ذلك بعض الوقت .

« ماذا حدث لها ؟ » قال لنفسه .

استدارت حتى صارت في مواجهته . عيناها تبرقان في العتمة . أهي منهشة وحسب ، ام غاضبة . لايدري . قالت :

- قول تاني !

بعثت عبارتها الخوف في نفسه . فقد قالتها بتلك الطريقة التي توحي ، انه عند تكرار العبارة سوف تقوم بعمل عنيف . تغلب على خوفه ، واستجاب للتحدي :

ـ بسألك ، ايه اخبار سهام ؟

في صوته رعشة جعلته يغضب .

قالت :

ـ سهام ؟ قلت سهام ؟

قال بغضب :

ـ ايه الغريب في دا ؟ سالتك . . .

قاطعته بحدة :

ـ لكن ، انا سهام !

في تلك اللحظة انفتح الباب ، ومعه اندفعت موجات من الضوء القوي ، وصخب الاحاديث ، والموسيقى . ثم انطلق النداء :

عباس ، ياعباس !

ثم اغلق الباب مرة اخرى . احتجب الضوء والصوت ، ولكنهما استمرا يجوبان الحديقة ، حاملين ملامحهما النهارية ـ ملامح الشوارع المزدحمة ، والزحام والشجار ، ومؤامرات صغار الموظفين ، وتمتمات سوء الطوية ـ . كادت الحديقة ، وقد تشبعت بالضوء والصوت وروائح الطعام ، ان تصبح مجرد حديقة منزلية صغيرة .

ـ قلتي ايه ؟

سهام .

كان صوتها غائباً ، وكأنها تحدث نفسها .

وصمتا .

بحثت عن يده وامسكتها ، ولكنه ابعد يده ، فتنهدت ، واتكأت بظهرها على مسند المرجيحة . كانت ذراعه هناك ، ولكنه لم يحاول ابعادها . واستمر الصمت

ثم اخذ غالب يحدث نفسه ، بصوت هامس ، اشبه باهمهمة : « ما كان علي ان اجيء الى هذه الحفلة » لم يكن يعني ذلك بالضبط . بل كان يلوم ليلى .

قالت ليلى هامسة :

ـ اعرف .

قالتها بحزن واستسلام .

فاجأه ذلك واغضبه . قال :

ـ قلتي ايه ؟

قالت :

ـ جيت الى حفلة مادعاك احد لها .

وتنهدت .

دعاه اليها ؟ هنالك شخص ما ـ مااسمه ؟ـ التقى به ، سارا دون ان يحدث احد منهما الآخر ، ثم دخلا هذا المكان . لا . لم تحدث الامور على هذا النحو . كان يجلس في المقهى . وكان يعلم ان هنالك حفلة ما ، وانه مدعو اليها . بل كان يعلم ان ليلى ، هي التي اصرت على دعوته . من قال له ذلك ، ومتى ؟ واي مقهى كان ذلك ؟ ومن هي ليلى بالضبط ؟

ـ ماكان لازم آجي .

قالت :

ـ صحيح .

قال ، وقد تصارعت اللهجات في فمه ، فتكلم بالعربية الفصحى ، وهو يتأتىء :

ـ ولكن كيف اتيت ؟

قالت :

ـ ليلى هيه السبب .

ـ ليلى ؟ هل نعود لذلك مرة ثانية !

لم ترد . ضغطت بظهرها على ذراعه . واخذت تنظر الى النجوم . سألها في نفس الوقت الذي طرأت له الفكرة :

ـ انتي اللي عملتي الحفلة .

واخذت الامور تتخذ شكلاً ما ، يكاد يكون مفهوماً ، في ذهنه . قالت بشكوى :

ـ ماكنت تعرف ؟ ياربي !

في صوتها بكاء ؟

سألها :

ـ ايه مناسبة الحفلة دي ، ولين ؟

قالت مندهشة ، مستنكرة :

ـ ياالله . حتى دا ماكنتش تعرفه !

ـ كنت عارف .

نظرت اليه متسائلة ، فقال :

ـ ماكنتش لازم آجي .

وواصل :

ـ وبعرف اشياء كثيرة . . كل شيء .

ولكن ماالـذي يعـرفـه ؟ اتكـون قد اقـامت هذه الحفلة على شرفه ، بمناسبة مجيئـه من مصـر ؟ ولكن كيف وهي تقـول انـه ليس مدعـواً ، وان مجيئـه كان غلطـة كبيرة . ثم تذكر . قال :

ـ وسهام ؟ حقيقة اسمك سهام ؟

قالت :

ـ بتشك في كلامي ؟

كان واضحـا من صوتهـا ، من الطـريقة التي تكلمت بها ، انها تكذب ، وانها تريده ان يعرف ذلك .

قال :

ـ انا متأكد انك ليلى .

وسمع ضحكتها المكتومة . وناداها :

ـ ليلى .

لم ترد . كان جسـدهـا ينبض بجواره ، يلمس جسده لمسات رقيقة ، ناعمة ، فاخـذ ينتشي . قدّر ان محاولتهـا الفـاشلة في الامتنـاع عن الضحـك ، وتحـوّل ذلـك الضحك الى اهتزاز داخلي ، هو الذي يمنعها من الكلام . قال بتأكيد :

ـ ليلى !

همست :

ـ اسمعك .

كانت قهقهـات عاليـة جداً تأتي من الـداخـل . امسكت يده ، وضغطت عليهـا . احس بها لدنـه ، مرنـه ، غضـروفية بلا عظام ، كحيوان حي . رفعها الى شفتيـه وقبـل باطنهـا ، اكثـر من مرة ، ثم ابقـاها على فمه . شهقت ، وارتعشت .

تساءل : « هل فعلت ذلك احتجاجاً واستنكاراً ؛ ام تعبيراً عن متعة دهمتها ؟ »

قالت ببطء :

ـ ولكن ، ايه اهمية الاسم ؟

قال غالب :

ـ الاسم هو كل شيء .

ولكن العبارة « ماهي اهمية الاسم ؟ » رسخت في قلبه ، واخذت تتوالد .

ـ ٨ ـ

عندما قال :

ـ ليلى !

ضاغطاً على حروف الاسم ، وكأنه يدعوها لأن تكون ليلى ، حتى وإن كانت سهام ، قالت ببطء :

ـ ولكن ماهمية الاسم ؟

اية فجيعة تكمن وراء ذلك الصوت !

كان الصوت رقيقاً ، حزيناً ، مفعماً بالبكاء . كان نوعاً من البكاء الداخلي . الرقة والحنان ، اللذان ينبعثان منه ، قادمان من الماضي البعيد . يعيد ان الى الحياة تنويمة الطفل ، ايقاع البكائيات ، صوت الحادي يتخلل ليل القرية من مسافر يعبر اطرافها ؛ حاد وحيد ، خائف ، وسط ظلمة ثقيلة ، مشحونة بالرعب . . وابتسامة ملتبسة لامرأة في كهف معزول ، تصيب الصبي بالدوار . وتوالت الصور الثابتة ، كأنها صور فوتوغرافية ، ماتكاد تبدو ، حتى تثير معها انفعالات قديمة ، منسية : جبال الاردن الشرقية ، الغور ، البحر الميت ونهر الاردن ؛ الحصادون ولاقطات السنابل ، وترفع اللاقطة وجهها ـ العين الصارمة ، المحدقة ، البذئية الايماء لفتاة شبقة ، لام عين بيضاء .

ودخل في غيبوبة الالوان الكامدة ، الالوان الصارخة ـ الشمس والسماء ، والزهور ، والماء ، والغروب ـ والمشاهد الثابتة تتمخض عن انفعالاتها وهي ساكنة ، والعطور القديمة . . . روائحها تعيد انتاج الصور . وصوت ليلى ـ هل كانت تتكلم حقاً ؟ ـ يأتيه دامغاً ، شاكياً ، ضارعاً ، حنوناً (ربما كان يقول : وماهمية ان يكون

للانسان اسم وهوية ، ايها البورجوازي الصغير ! هل نسيت متطلبات الحياة الاولية ، ان تجد ماتأكله ، ان تستمتع بضوء الشمس ، ونسيم الليل ، وبفراش يؤويك !) ويقول الصوت صامتاً ، باكياً ، حزيناً حتى الموت :

تذكر ـ ياجنيني ـ عذوبة اماسي الصيف ، ليالي الشتاء والقهوة المرة ، والشاي . . . تذكر مذاق الحلوى ـ عندما كان لها مذاق يشسيع في فمك ، وانفك ، واذنيك ، يفتح مسارب صدرك ـ والحكايات المخيفة ، يقودك رعبها للنوم مخدراً ، خائفاً من الهمسة ، وتملأ احلامك بموجودات صماء ، تتحرك في قلبها حياة غامضة ، فتتشكل ، وتحاصرك ، واذا بها تلك الغولة التي تستعد لالتهامك . فتخبيء رأسك في نحري ، وتذوب بين نهديّ . . . هل نسيت ذلك كله ، حتى تلغيه وتدمره من أجل هوية واسم ! ماذا استفدت من عالم الكبار برتابته ، ومنطقيته ، وشعاراته ، ونظرياته . . . !

ويمضي الصوت محّملاً باللوعة والشكوى : الايكفي ماسببته لي من عذاب !

ويصبح للصوت لون ، وملمس ، ورائحة . لون ضباب وردي ، كثيف ، رجراج ؛ ضباب له ملمس جسد الطفل الطري ، المبلول ، ولباب الفاكهة الناضجة ، ورائحة الارض المعشبة ، وليل اريحا في الصيف ، قارورة عطر الليمون . . . وهو في داخله جنين ، يعوم في ذلك الرحم . .

ورأى غالب نفسه يحتج ، او يحاول ان يحتج ـ ربما على هذه الغيبوبة ، التي استكن اليها ، ويسعى جاهداً لانتزاع نفسه منها ، ولكنها ، في الوقت ذاته ، مشتهاة ، ذات اغواء ، يخوض دون مجهود على الاطلاق عبر ضبابها الوردي ، الرطب الملمس ، اللدن كالملبن ، الممتع كحليب الام ـ . واعلن ، ربما دون صوت ، ولكنه مسموع تماماً ، ومفهوم ، ان علينا ان نخرج من هذا الحذر ، الذي له طعم الحلوى القديم ، من هذه السوائل الراكدة التي نعوم فيها ، الى حيث يكون لنا اسم ، اسم واحد ، نعرف به ؛ فاكثر من اسم يساوي لااسم . ولكن احتجاجه كان واهناً ، جاء لمجرد اثبات موقف .

ثم انحبس الصوت في داخله ، وتلاشى . لم افعل شيئاً في حياتي سوى تسجيل مواقف . ولكنه يسمع الصوت ، صوته هو ، آتياً من خارجه . فوجيء بغرابته ، وعذوبته . كان الاستماع اليه مريحاً جداً . والصوت يعلن عن حب الى

الابد ، عن لقاء تم بعد فراق طويل ، سخيف ، لامعنى له ، عن حياة لامعنى لها دون ليلى ، اوسهام ، اواي اسم آخر . . المهم انها بقربه ، وانها هي ، لاامرأة اخرى . وعاينهما ، غالب وليلى ، يتماسان ؛ غالب مسترخ تماماً ، مغمض العينين ، وليلى تميل عليه ، تقبله على وجهه قبلات سريعة ، متلاحقة ؛ ووجهه كبير جداً ، ساكن جداً ، كأنه رأس تمثال ، اورأس دمية هائلة الحجم ، مصنوعة من المطاط المقوّى .

ثم ذاب غالب المراقب ، واندمج في غالب الساكن المستسلم ؛ وغاص في نشوة مطلقة . كانت ليلى تعانقه ، وهي تئن ، وتدعوه أن يلتهمها ، ويمزقها ، ولايبتعد عنها ابداً . يحس بملمس جسدها العاري ـ متى خلعت ملابسها ؟ ـ على جسده . وهو ، ايضاً ، لايدري متى وكيف قد تخلص من ملابسه .

لم يكن ، لما يدور بينهما ، علاقة بالجنس . بل ان تفاهماً عميقاً قد نشأ ، وادرك كل منهما بعمق المأساة ـ المأزق اللذين يعيشهما الآخر ، فتجاوز الاثنان الشكليات ، واخذا يبحثان عن وسيلة مناسبة وكفوءة للتعبير عن التعاطف والتطامن . وها هما قد توصلا اليها . كان ذلك اشبه بتهوين المصيبة عن اخ ، تحتضنه اخته ، تضع رأسه على صدرها ، وتواسيه .

احس غالب ان ليلى ـ اسمها حقاً وصدقاً ـ قد عزمت امرها ، وقررت ان تقول كلمتها بصراحة وشجاعة . لقد تفادت ، في البداية ، الاعلان الصريح ، مراعاة لظروف اكثر اهمية . خبرتها الناضجة بالحياة جعلتها تكتم حقيقة مشاعرها . ولكنها الآن ، في لحظة صفاء ومودة ، قررت ان تكشف تضامنها ، دون خشية . فمن خلال ذلك العناق ، والعري ، والاندفاع الجسدي ، وبذلك الجسد الافعواني ، المرن ، المجدول بصلابة اسفنجية ، عبرت عن رفضها ان تعيش حياتها دون اسم او هوية ، عن محاولة ابعادها عنه عبر تحويلها الى سهام . . . عبرت عن تعاطفها مع بطولة لاجدوى منها ، سوى اثبات موقف ، عن حزنها على ذلك الشاعر الذي سقط اسمه سهواً في المطبعة ، والذي سقط على الارض ، ولم يحاول احد من المحتفلين ان يمسك بيده ، وينهضه .

كان ذلك العناق اشبه بالشكوى ، بحوار لغته جسداهما ، يشرحان فيه عبء ذلك الخلط ، المدبر بتصميم شرير ، وقد وجدا نفسيهما في شباكه الكابوسية ، المعقدة ؛ والذي سوف ينتصر عليهما في نهاية الامر ، مهما احتجا ، وقاوما . لهذا رسما

بجسديهما حس الفراق المقبل ، حس وداع محتوم ، لاحيلة لهما فيه .

●●●

ولكن الامور اخذت مجرى آخر .

قال لها :

ـ ولكن . . .

كان يريد ان يقول : « فلنبحث عن مكان آخر ، اكثر اماناً » . الا انها اسكتته بقبلة ، احتوت فيها شفته السفلى بين شفتيها . حاول ان يواصل حديثه ، لكنه اكتشف ان ذلك مستحيلاً دون شفته السفلى . خرجت من فمه همهمة ؛ صوتاً دون كلام .

اسلم نفسه لها . وبجسدها المحكوم بارادة قوية ، متمكنة ؛ وكأنه انتصر على قوانين الجاذبية الارضية ، رآها تجلس على فخذيه ، وقد لفت ساقيها خلف ظهره ، تمكنت منه ، واخذ جسدها يعلو ويهبط بايقاع خاص . بدأ بطيئاً ، واخذ يتسارع بالتدريج .

وكأن غالب كان ينتظر عودتها ، فالتقى بفمها ، مستثاراً برغبة جامحة ، واندمج في تلك المتعة . انـدمج في الموقف ، لامع الفتاة . وسمح لنفسه ان يفكر ، في لمحة خاطفة ، ان اللقاء الجسدي لايوحد بين اثنين ، ولكنه يفصلهما ، اذ يصبح كل منهما باحثاً ومستجيباً لمتعته الخاصة يرى في الآخر مجرد وسيلة ، يكيّفها ، ويتكيّف معها .

قال لنفسه : « فلنسجل اكتشافاً جديداً » وانغمر في تلك المتعة ، يلتهم الفم المهمهم ، المستغيث ، يلاءم جسده مع جسدها ، مشاركاً اياها الايقاع المتسارع ، باحثاً عن انسب الوسائل لجعل ذلك الالتحام الجسدي كاملاً .

وكتأكيد لفوزه ، همهم :

ـ ليلى ، انت ليلى ، ليلى . . !

يبدو انها قالت ان ذلك هو اسمها بالفعل ، أو شيئاً كهذا ، ولكن كيف يكون بامكان الانسان ان يتأكد من شيء ، وهو في مثل هذه الحالة !

ثم توحّد التوتر ، والحنان ، والالفة المتجاوزة للمواصفات الاجتماعية ، والذكريات القديمة . . توحّدت ، وذابت في متعة خالصة استغرق فيها غالب حتى

فقدان االهوية والاسم . اصبح - غالب - شبقاً بدائياً ، خارج التاريخ . واخذ الثقل المأساوي ، الذي ابهظه ، خلال لقائه مع ليلى ، وفي الحفلة يتلاشى ، وشعر ان تلك المنح الجسدية ، التي تجاوزت كل الحدود المرسومة ، قد حوّلت المأساة / الهزيمة الى انتصار ساحق ، رد اليه اعتباره . ولتثبيت ذلك النصر ، وفي مواجهة الحفل الصاخب ، اخذ يردد :

- ليلى ، ليلى ، ليلى ، . . . !

فترد بمواء مبحوح ، متألم .

ثم رآهم هناك . كانوا يقفون خلف الشباك ، متجاورين ، ينظرون اليهما . بدوا ، خلف حاجز الشباك كثلاث نسخ من تمثال نصفي ، وضعت متجاورة ، تحت ضوء خفيف ، غير مباشر . كانوا يرتدون بذلات سهرة متشابهة . الجاكتة ذات صف واحد من الازرار ، وفتحة واسعة ، تنتهي الى قرب الصرة ، ضيقة عند الخصر ، والردفين . من مثلث الفتحة يظهر القميص الابيض ، بياقة كبيرة ، منشّأة ، واربطة عنق سوداء تشبه الفراشات ، كانوا متشابهين ، كأنهم توائم : قصاراً عراض الاكتاف ذوي كروش بارزة ، ورؤوساً ضخمة دب فيها الصلع ، واستقرت بين الكتفين دون رقبة ، وعيوناً براقة .

كان غالب يطالعهم ، محاولاً تمييزهم عن بعضهم ، وقد اخذ يستجيب لايقاع ليلى ، دون حماس .

- ليلى ، انظري !

استمرت ليلى صاعدة هابطة ، وكأنه لم يقل شيئاً . علا صوته قليلاً ، وهو يمسك كتفيها :

- ليلى ، ليلى ، انهم يراقبوننا .

التفتت ليلى خلفها ، دون ان تتوقف ، ثم اليه مبتسمة بعينين مشعتين حاول ان يقول لها ، انه ، منذ البداية ، اقترح عليها ان يذهبا الى مكان آخر ، ولكنها اخذت تضحك ، وتتكلم بعصبية ، كأنها فتاة مراهقة ، تحاول ان تستثير ضحكه ومرحه . كانت تقول شيئاً كهذا ، وهي تكركر بالضحك :

- ماذابك هذه الليلة . . ! مش زي عوايدك . . ! هل تريد ان تقلبها نكداً ؟ هذا زوجي ، فماذا يزعجك ؟

قال ، دون ان يقصد المزاح :

ـ الثلاثة ؟

فكركرت بالضحك .

قال احد الرجال ، وكأنه يواصل حديثاً :

ـ تعدد الازواج .

ثم حدث حوار مبهم بينهم ، باصوات حلقية ، خشنة ، وسمع احدهم يقول بوضوح :

ـ فردريك انجلز ، في اصل الملكية والعائلة .

كان يعلم انهم يراقبونهما ، وان استغراقهم في الحديث واضفاء طابع جدي ، مبالغ فيه ، عليه ، هو مجرد تظاهر . حتى تلك العبارات ، التي كانوا ينطقونها بصوت واضح ، مرتفع ، ادرك ان الهدف من ورائها هو اقناعه بانهم مشغولون عنه تماماً . (عبارات من نوع : المسألة أكثر تعقيداً مما تبدو في الظاهر)

ـ ان ذلك لن ينتهي الا بالهزيمة السياسية والعسكرية الكاملة. التاريخ لا يعرف الرحمة .

ـ الظرف الموضوعي اقوى من كل التنظيرات .

أو عبارات اكثر تعقيداً :

ـ ان العودة الى الاصول الديناميكية . . الخ

لم يخف على غالب ، ان كل عبارة ، كانت مبطنة برسالة تحمل انذاراً ، وتهديداً خفيين . وقدّر غالب ـ ان شيئاً ما ، يمنعهم من تنفيذ انذارهم . ولكن ماهو ؟

يبدو ان ليلى فهمت الامور على نحو مغاير تماماً . انخدعت بالمظاهر واقتنعت ان الثلاثة منشغلون عنهما باحاديث جدية وهامة جداً . هذا هو الواقع ، قال غالب لنفسه . والا ، فما معنى استمرارها ، وربما بشكل اكثر اندفاعاً ، في ذلك العناق والتعري ـ تعريهما معاً ـ كانت تجذب ماتبقى عليه من ملابس ، فتنزعها بسهولة ، وتقذف بها بعيداً وهي تصيح بحماس .

اخذت لامبالاة ليلى تتسرب اليه . فقد ادرك انه وقع في المصيدة ، ولاجدوى من تعذيب الذات . بل شعر برغبة في الدعابة والعربدة تستولي عليه . اراد ان يقول ، ان الثلاثة ، في وقفتهم تلك يشبهون خدم المطاعم الرخيصة في مصر ، بكروشهم ، وملابسهم الضيقة التي لم يعد يلبسها احد ، واختناقهم في داخلها ـ

كيف يستطيعون التنفس بحق الله ! وتظاهرهم بالوقار . واراد ان يقول انهم حين يصمتون ، يخيل اليه انهم سوف ينطلقون فجأة منشدين :

بلادي ، بلادي ، بلادي

لك حبي وفؤادي

ولكن متى ، وكيف له أن يقول كلاماً كثيراً كهذا ، وفمه منشغل بالتقبيل ، وهي ، على ماهي عليه ، من اندفاع اهوج ! بل انها كانت تفعل ذلك بنوع من المرح الصاخب ، الغريب .

- ٩ -

غادر الحفلة معظم الحاضرين . كان الواحد منهم يعلن ان الوقت قد اصبح متأخراً ، وان عليه ان يستيقظ مبكراً ، ويتجه الى ليلى ، يشكرها على دعوتها ، ثم يصافحها وينصرف ، كانت ليلى ، تتلقى الشكر والمصافحة بوقار ، ونظرة غائبة ، ثم تشيع المدعو حتى الباب . كانت مرهقة ، فاصبحت تقاطيع وجهها اكثر حساسية ورقة . ولم تحاول ان تستبقي احد ، بل تودع الجميع بآلية الاجهاد .

قال ذو الانف المقوس ، بصوت مرتفع ، انه لولا خوفه من زوجته لما انصرف حتى طلوع الشمس . ولأنه اعتبر ماقاله نكتة اخذ يقهقه . سبقته ليلى الى الباب ، وكأنها تستعجله في المغادرة . ودعته بمصافحة سريعة ، ثم عادت الى مكانها ، وهي تتنهد بعمق . وخلال ذلك كان على وجهها تلك الابتسامة المؤدبة - ابتسامة من يتظاهر بالاصغاء ، بينما ذهنه مشغول بامور اخرى . تنهيدتها ، وتمرير كفها على جبينها تنتميان الى تلك الامور السرية ، التي تعانيها وتتأمل فيها .

وغالب يرقب وجهها الذي اصبح حساساً ورقيقاً ، وقد امتلأ قلبه بالعشق .

لم يبق الا بعض النساء وغالب . بدت الحجرة - أوعلى الاصح الحجرتان - واسعة ، تعمها الفوضى ، تطالب الناس ان يغادروها . المرأة التي تحدثت عن التجارب الذرية الامريكية كانت هنالك . وقد خلعت نظارتها ، وبدت ملكة اغراء حقيقية . من الواضح انها لم تكن بحاجة للنظارة . الاغلب انها كانت قناعاً تلبسه لتلعب دور المرأة المثقفة . كانت تجلس بجوار ليلى ، فبدت ليلى نحيلة وغلامية بجوارها . كانت تتودد الى ليلى ، تضمها اليها ، وتقبلها على خدها . ثم قالت :

ـ تعبت الليلة ياحبيبتي .

وضعت ليلى رأسها على كتف المرأة ، واخذت تفرك خدها عليه ببطء ونعومة . قالت :

ـ اني سعيدة .

قالت المرأة وهي تقبل شعر ليلى :

ـ فلتكوني هكذا دائما .

ابعدت المرأة رأس ليلى برفق ، وقبلتها على خدها قبلة لها صوت تمهيداً لنهوضها . وعندما انتصبت واقفة ، قفز نهداها ، وارتفعا . سارت الى المائدة ، واخذت تجمع من فوقها الاطباق المتسخة . كوّمت عدداً كبيراً ، ثم حملت ماجمعته ، واتجهت الى المطبخ . مشت بثقة من لايخاف ان يسقط هذا العدد الكبير من الاطباق من بين يديه ، نادتها ليلى :

ـ لاتتعبي نفسك ياحبيبتي ، خلّي كل شيء في مكانه .

رغم ان كلماتها كانت تحمل دلالة الامر ، الاان صوتها كان اشبه بالانين . توقفت المرأة في منتصف طريقها ، وهي تبعد الاطباق ، عن صدرها ، وعلى وجهها تعبير تساؤل . لم يفت غالب ان يلاحظ ان المرأة ، في وقفتها ، وابراز صدرها ـ بدعوى الاحتفاظ بالتوازن وبالانفراج الخفيف لفمها ، كانت تشحن ـ متعمدة ـ الجو المحيط بها بمجال من الاغراء المهلك . كانت توجه اشعاعها القاتل الى غالب . قالت :

ـ ماكو تعب ،عيني .

قالت ليلى :

ـ ماكو داعي عيني تتعبي نفسك . باكر تيجي الخدامة .

قالت المرأة انها ستضع الطعام في الثلاجة حتى لايفسد والاطباق المتسخة في الحوض . فد دقيقة ، عيني . والقت الى غالب نظرة سوداء ، مشعة ، ضاحكة ـ ساخرة ؟ ـ وابتسمت . . ثم استدارت بحسم ، وسارت شامخة ، بخطو رشيق ، نحو المطبخ .

مع غياب المرأة في المطبخ استعادت ليلى حضورها . نمت انوثتها في لحظة خاطفة ، واكتملت . واستثيرت لوعة العشق في قلب غالب كأن تياراً كهربائياً مسّه .

في وجه ليلى ذلك الارهاق الجميل ، الذي يكسب صاحبته حساسية ورقة ، ويجعل البشرة شفافة ، سمراء ، ملتهبة ، وكأن صاحبتها مراهقة عصبية ، تكثر من دعك انفهاوعينيها . اصبحت عيناها ناعمتين ومشبعتين بضوء ساكن ، اليف .

اكتشف غالب انه هوولیلی وحدهما . وقبل ان يتكلم ، التفتت اليه ، وهي تتثاءب ، وقالت :

ـ اتونست ؟

ـ نعم ؟

تثاءبت مرة اخرى ، وغطت فمها بيدها . عندما انتهت من تثاؤبها دعكت انفها وفمها ، وقالت باللغة العربية الفصحى :

ـ ارجو ان تكون استمتعت هذه الليلة !

لم يكن غالب من ذلك النوع ، الذي يفهم الاسئلة البسيطة على وجهها . فنظر في عيني ليلى وقال :

ـ في الحديقة ؟

ـ حديقة ؟ ياه حديقة ؟

وهو مايزال ينظر في عينيها ، اقترب منها وهمس :

ـ تريديني اظل الليلة هنا ؟

ـ حدقت فيه بدهشة واستنكار ،وقالت :

ـ تظل هنا ؟

ـ ايه .

ـ تخبلت ؟

همس لها :

ـ مااظن نسيت .

قالت بصوت غاضب :

ـ نسيت شنهو ؟

ـ الحديقة ، والرجاجيل الثلاثة . .

قالت بضيق :

ـ ياه حديقة ، وياه رجاجيل ثلاثة ؟

قال غالب :

ـ أنا وأنت .

ـ اشبينا ، أنا وأنت ؟

فكّر غالب : الهذا الحد ، وبهذه السرعة فقدت ذاكرتها ؟ لقد حدث ذلك منذ اقل من ساعة . ام ان ذلك حدث منذ زمن بعيد ، وقد اختلطت الامور عليه .

ثم تذكّر :

ـ لما كان اسمك سهام .

قالت وكأنها تحدث نفسها :

ـ شلون مخبل هذا .

ـ نسيت ؟

نادت باعلى صوتها :

ـ سهام ، عيني ، سهام !

اطلت المرأة ، مادة رأسها من باب المطبخ ، وقالت بهدوء :

ـ بلى ؟

قالت ليلى :

ـ هذه سهام .

وهي تشير بسبابتها نحوها . اخذت سهام تضحك ، وهي تخرج من باب المطبخ ، ولكنها لاتقترب كثيراً . قالت :

ـ قال لك انت سهام ؟

ردت ليلى :

ـ انت عارفة ؟

واضافت سهام وهي لاتتوقف عن الضحك :

ـ وعن الحديقة ؟

قالت ليلى :

ـ بلى .

وهي تزداد اندهاشاً . وسهام مغرقة في الضحك ، وتسأل :

ـ وعن الرجاجيل الثلاثة ؟

ـ بلى .

ثم قالت متوجهة الى سهام :

ـ شنهو حكايته ؟

قال سهام :

ـ إجا يمي ، وانا قاعدة بالحديقة .

وعادت الى المطبخ ، دون ان يتوقف ضحكها .

نهض غالب . تردد قليلاً ، ثم دخل المطبخ . كانت سهام تجلس امام الثلاجة المفتوحة ، تحاول ان تجد مكاناً لصواني الطعام التي حملتها وسط زحمة الاطباق ، والعلب البلاستيكية ، والقدور الصغيرة . وقف خلفها . الفستان انزلق عن ركبتها ، فبدا فخذاها مكتنزين ، بسبب جلوسها . كان لهما لون العاج . طالع العنق ، والنحر ، ومنبت النهدين ، والشق الفاصل بينهما . قال :

ـ فين القهوة ياهانم ؟

قالت بلهجة مصرية ، متقنة :

ـ خضتني ياشيخ .

والتفتت اليه وهي تبتسم .

قال :

ـ مش باين عليك .

ـ مش باين ايه ؟

ـ انك مخضوضة .

ادارت الجزء الاعلى من جسدها نحوه ، بعد أن وضعت الطبق الذي بين يديها على الارض ، وقالت :

ـ حايبان ازاي ؟

قال :

ـ كده .

وامسك بكتفيها واخذ يداعبهما ، ثم انسابت يداه الى نحرها ، الى منبت الثديين ، ثم امسك بكل منهما ، مالئاً كفه به ، واخذ يعصرهما وخلال ذلك ، يقبل شعرها ، وجبينها ، ووجنتيها ، وعينيها ، وهو يردد :

ـ كده ، كده ، كده . . !

قالت :

ـ خلصت ؟

في الصـوت حيـاد بارد ، نافـذ كحد السكين . توقف ، واخذ العرق البارد ينز تحت ثيابه . وهي ساكنة . ابعد يديه عنها . وظل واقفاً ، عاجزاً عن الحسم .

سمعها تقول :

ـ مش حانخلص في ليلتنا .

همس لها :

ـ انا خارج من هنا ، ويمكن من المدينة كلها .

قالت :

ـ خيراً تفعل .

قال غالب بانفعال :

ـ ويمكن انتحر .

قالت :

ـ ماافتنش .

ـ حاتشوفي .

ـ حانشوف .

خرج . لم تنظر اليه ليلى . ولم يجد الجرأة على توديعها . سار نحو الباب سمع سهام تقول من خلفه :

ـ باوعي ، شلون يمشي من غير مايودعك !

سمع ليلى تقول :

ـ فات وقت تعليمه الذوق .

لم يلتفت خلفه .

خرج من الباب بشعور الهارب . اختلطت الامور في ذهنه ، حين خرج . قال لنفسه : « يجب ان اعود لآخذ معطفي . » ثم تذكّر انه الحر . اجتاز الممر المؤدي الى البـوابـة الخـارجية . توقف . « نسيت شيئاً ما ، ماهو ؟ يالهذه الذاكرة التعسة ! » . كانت الحـديقـة على يمينـه . نسي شيئـاً له علاقـة بالحـديقة . تفحصها ، ثم رأى المرجيحة هناك .

هاهي المـرجيحـة . هنـا كان معهـا ـ ليلى ام سهـام ؟ ـ . حطر له ان يعود ، ويأخذ ليلى من يدها ، ويقول لها : « هاهي المرجيحة ! فكيف تنكرين ماحدث ؟ » ولكن الامور مشوشة بما فيه الكفاية.سار وخرج من البوابة .

بعض المحتفلين يقفـون في مجمـوعات صغيرة ، يتحدثون . الاشجار جعلت الاضاءة ضعيفة في الشارع . يتأمل الوجوه . كانت غريبة جداً ، لايذكر انه رآها من قبـل . مر امـام كل مجمـوعـة ببـطء ، لعـل احـداً يتعـرف عليـه ، ويوصله الى بيته بسيارته . لم يلتفت اليه احد ، اوينتبه لوجوده . توقف بالقرب من مجموعة مكّونة من رجلين وامـرأة . كانـوا يتحـدثـون باصوات عالية . لم يفهم شيئاً من الذي يقولونه . حاول ان يسألهم عن الطـريق الى الشـارع العام . ولكن صوته كان محتسباً . التفت اليه احد الرجلين ، تفحصه ، وقال :

ـ عباس ؟

قال الآخر :

ـ ايه ، هذا عباس .

قالت المرأة :

ـ عبوسي ، عيني ، اشبيك ماترد ؟

حاول غالب ان يتكلم ولكن الاصوات الحت عليه :

ـ خوي عباس ، احكي لخاطر الله .

ـ دي قول !

ـ احكي !

ـ هذا مو عباس ؟

ـ هذا عباس . احكي .

قالت المرأة :

ـ انت مو عباس ؟

قال غالب :

ـ لا .

فادارو وجوههم ، وواصلوا حديثهم

الوجه الثالث
زحف الغابة

- ١ -

الساعة بلغت السادسة عصراً . الجو شديد الحرارة في الخارج ، والمبرّدة تهدر في حجرة المكتب ، كنت اجلس الى مكتبي ، اقرأ الفقرة الاخيرة من الرواية التي كنت اكتبها . اقرأ ، واشرد قليلاً ، محاولاً استعادة الجو النفسي الذي كتبت فيه الجزء الاخير ، ليلة امس . يتم ذلك من خلال استعادة صور الشخصيات والاماكن ، والتشبث بها ، الى ان تنبعث الاحاسيس التي ترافقها .

ذلك يحتاج الى بعض الوقت . الكلمات الاولى تمتنع . . ليس هذا بالضبط كلمات وصور كثيرة ومتنوعة تطرأ ؛ تقترح نفسها كبداية ؛ ولكنني اعلم انها ليست المطلوبة . انها الطبول التي تعلن عن الموكب القادم .

اخذت اتوتر كان ذلك اشبه بمن يبحث عن مخرج من مأزق خانق كان الحل السعيد ان اعد لنفسي فنجاناً من القهوة . وانا اعلم ، انني في لحظة ما ، قد تكون وانا اغسل بكرج القهوة ؛ او وانا اضع فيه كمية الماء المطلوبة ، او خلال اشعال الموقد . . . ستأتي الجملة التي سابدأ بها .

لمجرد ان أزحت الكرسي للخلف ، استعداداً للنهوض ، انبثقت الجملة ، مكتملة . اعدت الكرسي الى مكانه وكتبت الجملة . فعلت ذلك بسرعة خوفاً ان تهرب مني ، او أن يجعلها التأمل فيها غير مناسبة .

كانت الجملة مخيبة للامل . لم تكن بداية جديدة ، بل نهاية للفقرة السابقة ، التي انتهيت منها مساء الامس . المهم انني استعدت جو الرواية . لكن مازال امامي عذاب البدء الحقيقي .

سقط شيء ثقيل فوق سطح حجرة المكتب . ذلك ايوب في الطابق الاعلى ،

يمارس قفزاته العنيفة ، المبتكرة . اعلم انه بعد ان ينتهي من رياضته الشاقة ، ويغطي العرق جسده ، سوف يجتاز الحجرة والممر ، راكضاً كالحصان ليستحم . « هل هذا هو الوقت المناسب يا ايوب ! » اقول لنفسي . . وانا اعرف ان كل الاوقات مناسبة لقفزات ايوب وعدوه .

في تلك اللحظة ، التي صرفني فيها ايوب عن جو الرواية ، وملأني بتأمل ذلك الهوس الذي يسيطر عليه ، جاءت البداية . اخذت اكتب بحماس . ونسيت ايوب والقهوة .

الكتابة بحماس لاتعني الكتابة السريعة ، بل الاستغراق في جو متخّيل ، استغراقاً ملهوفاً . اختيار الكلمات يشبه المشي على ارض زلقة : مجازفة ان تختار ، ومجازفة الا تختار . وعندما تحزم أمرك ، تشعر على الفور انك ارتكبت فضيحة ، مكشوفة لجميع الناس ، عداك انت الذي ارتكبتها .

كنت قد كتبت اكثر من المعتاد ـ اعني اكثر من الحصة اليومية التي قررتها لنفسي ـ عندما سمعت صرخة ايوب المكررة تنطلق باللغة الانجليزية : « مدينة بلا فرج ، مدينة بلا نساء ! » ثم اخذ يعدو .

يبدو ان جميع انواع الرياضة البدنية العنيفة ، التي يمارسها ايوب ، لاتفعل شيئاً سوى ان تزيد هوسه الجنسي . عندما خطرت لي هذه الفكرة ناديت ايوب . توقف عن العدو ، فتحت باب الحجرة فرأيته يميل بجذعه فوق حاجز السلم الداخلي ، الذي يصل بين الطابقين . قال :

ـ نعم ياخوي ؟

. قلت :

ـ ايش رأيك نعمل جوله ؟

ـ متل مابدك . هلق ؟

ـ ايه هلق .

قال : بعد خمس دقائق . تعني بالنسبة لايوب خمس دقائق بالضبط . ارتديت ملابس بسرعة وخرجت من باب المطبخ . كان ايوب يجلس خلف مقود سيارته الفولفو ، ومحركها يهدر . فتحت البوابة الخارجية . انسابت منها السيارة خارجة ببطء ، ثم توقفت . اعدت اغلاق البوابة ، وجلست بجوار ايوب . قال :

ـ نروح طريق شهريار ؟

وعيناه على الطريق . كنت اريد امتداداً في المكان اوسع وتنويعاً اكثر ؛ فقلت :

ـ الراشدية

تخطت السيارة الطريق الوعر الفاصل بين شارعنا وشارع بلال الحبشي . اسرعت السيارة فطلبت من ايوب ان يتمهل . على يميننا ، في شارع بلال الحبشي ، بستان واسع وكثيف الاشجار ، تحيط به اشجار عملاقة كسور . ومنه كان يفوح عطر القداح ثقيلاً ، مسكراً . في السابق كنت اعتقد انها رائحة الياسمين الى ان تبينت انها عطر زهور اشجار البرتقال . خطر لي ان احكي ذلك لايوب اوقفني رد فعله المتخيّل ، فاخذت احكيه في سري لفتاة وهمية .

على يسارنا وراء البيوت ، الواقعة في شارعنا ، غابة نخيل ، تتناثر بين جذوعها اشجار اللارنج والليمون . بين آن وآخر يلتقط ضوء السيارة شبح امرأة ، ملفوفة بعباءتها السوداء تسير برفقة رجل ؛ رأيت فتيات يهبطن من سيارة اجرة توقفت امام احد البيوت برقت سيقانهن وهن يغادرن السيارة . رجال شرطة يجلسون داخل سيارة مظلمة : تماثيل سوداء ، مصمتة .

حاولت كسر الصمت . قلت :

ـ ايش فيه اخبار ؟

رد وقد فوجىء :

ـ اخبار شو ؟

ـ البلد .

ـ لبنان ؟

قلت : ايه . فقال باسلوب من ينهي حديثاً : « منيحة » ، وصمتنا .

ساحة الطبقجلي . مطعم الكباب يشع باضواء النيون . على الرصيف ، امام المطعم ، اصطفت موائد رخامية ، وفوقها اطباق اللحوم المشوية والرشاد والسلطة . احسست بشهية للطعام . يلي المطعم مقهى . في داخله وفي الخارج اصطفت دكك خشبية كثيرة . التقطت عيناي رجال الشرطة ، جالسين على الدكك الخشبية ، يشربون الشاي من استكانات صغيرة ويدخنون كانوا صامتين .

دارت بنا السيارة وسط شوارع مظلمة خالية حتى وصلنا الشارع الذي يمتد بجوار النهر . كان دجلة يبدو للحظات قصيرة ، بين البيوت الفخمة ، المقامة على

ضفته . كان كنهر تشاهده في السينما ، ينبىء بوجوده دون ان يكون له حضور ـ شأن انهار المدن . قلت :

ـ في اميركا ، يسمحوا بالبناء على النهر مباشرة ؟

كنت اعرف ماسوف يجيب به ايوب ، واعرف ان غيظه من هذه المدينة هو الذي سوف يوحي باجابته . قال : في اميركا ، النهر ملكية عامة ، لااحد يستطيع الاعتداء عليها ، وكل من يحاول الخ . . . .

اخذت البيوت المطلة على النهر تتقزم وتتباعد ، وبدا النهر اسود لامعاً ، بلا امواج ، كأنه شارع اسفلتي في صهد الظهيرة . من بعيد رأيت ضوءاً ، ودخاناً ، تخيلت الشواء فاخذت اشم رائحته ، واحسست بالجوع فجأة بحدة . اقترحت على ايوب ان نأكل ، فنظر الى الساعة المثبتة على يمين المقود ، وقال : « مافيه مانع » ، واوقف السيارة امام باب المطعم .

المطعم دكان مربع من الاسمنت الخالص . له شباك عريض يطل على النهر مباشرة . تضيئه انابيب نيون ، وليس فيه سوى ثلاجة كبيرة ، وموقد للشواء ، تظل جمراته مشتعلة بواسطة تيار هواء قادم من مروحة تشرف على الموقد . هنالك موقد غاز فوقه اباريق شاي وحوله عشرات الاستكانات .

الرجل الذي استقبلنا كان ذا لحية نامية ، لم يحلقها منذ اسبوع على الاقل . تبدو فيها بقع من الشعر الابيض الخالص وسط كثافة الشعر الاسود . كان يرتدي ثوبا ، تتخلله خطوط طولية عريضة زرقاء وبيضاء ؛ وله ذلك الانف العراقي الكبير الذي يهبط جانباه الى اسفل ، وفم تنساب شفته على شكل زاوية ، تقيم من شفته السفلى شبه مثلث ؛ وله ذقن كبيرة ، قوية . ومع حاجبيه الكثيفين ، المتباعدين يبدو الوجه كقناع . كان على يديه آثار دماء . فتح لنا غطاء الثلاجة ، كاشفاً امامنا عشرات من اشياش اللحم والكبدة ، والكلاوي والكباب ، مصفوفة على اعمدة افقية رفيعة ، داخل الثلاجة . اوصينا على اربعة اشياش من كل نوع ، وعلى طماطم وبصل .

قادنا الجرسون عبر جسر حجري ضيق ، الى ارض منبسطة محاطة بالأشجار ومحاذية للنهر ، وقد اضيئت اضاءة خفيفة ، من المفترض ان تكون حالمة . جلسنا الى احدى الموائد الرخامية ، ننتظر الطعام .

كانت الحكاية تلح علي ، فحكيتها : رغم معرفتي بان ايوب لن يستطيع

اكتشاف المضحك فيها .

قلت له انني كنت اركب الباص هذا الصباح ، فقاطعني قائلاً : « ولماذا تركب الباص ؟ استيقظ مبكراً وانا اوصلك بالسيارة » شكرته وقلت له ان هذا ليس موضوعنا الآن . ثم واصلت : كنت اركب الباص ، وكان يجلس على الكراسي التي امامي عدد من الفلاحين .

قال ايوب :

ـ وكيف عرفت انهم فلاحين ؟

ـ من ملابسهم وكلامهم .

ـ في اميركا . . .

قلت : اعلم انك لاتستطيع ان تميز الفلاح عن غيره في اميركا من ملابسه . اصمت الآن حتى انتهي . كان الفلاحون يجلسون على الكراسي التي امامي ويتحدثون بصوت مرتفع . كان موضوع حديثهم اشاعة تقول ان الحكومة قررت ان تمنح كل راعي غنم قرضاً طويل الاجل ، ودون فوائد قدره عشرة آلاف دينار ، وسيارة مرسيدس كهدية . واخذ الفلاحون يبدون دهشتهم ويتساءلون عن السبب الذي جعل للفلاحين كل هذا الشأن قال احد الفلاحين ان هذه اكاذيب تعودت الحكومات على ترديدها . تتذكروا ايام عبد الكريم قاسم ؟ قلقد قالوا ان كريم سوف يزوّج كل فلاح معلمة مدرسة . انتظرنا المعلمات فلم يحدث شيء . اكاذيب الحكومات نعرفها .

كان ايوب يصغي عابساً . عندما انتهيت سألني من يكون عبد الكريم قاسم . قلت له انه كان رئيس جمهورية وقد قاد انقلاب ٥٨ . اقترب ايوب برأسه وسألني هامساً :

ـ كان مجنون ؟

ـ ليش بتسأل ؟

قال بنفاذ صبر :

ـ ليش بسأل ؟ كم عدد المعلمات وكم عدد الفلاحين ؟ وينه حالياً ؟

قلت له انه مات ، وقد اسفت حقاً لأنني رويت له الحكاية . وضع الرجل الطعام امامنا . اضاف الى السلطة خساً ، وطبقاً من الرشاد . أكلت بشهية . كان اللحم طريا والخضار طازجة . بعد العشاء شربنا الشاي في استكانات ذات حواف

مذهبة ، ومحاطة بدوائر حمراء في منتصفها . كان الشاي رائعاً فطلبت المزيد .

بعد العشاء واصلنا المسيرة نحو الراشدية . اخذت مصابيح الشوارع تتباعد ، وكانت الظلمة كثيفة بين الاغصان . اضاء ايوب المصابيح العالية ، فكشفت لنا الاشجار الكثيفة على يميننا ، والنهر على يسارنا .

قلت فجأة :

- اوقف ، ياأخي !

خفف ايوب السرعة ، وسألني :

- وشوفيه ؟

- مش شايف ؟ الارانب !

عشرات الارانب كانت تجتاز الطريق امامنا . قال ايوب انها فئران ، واسرع بالسيارة وهو يضحك . سمعت هسيسها وقضقضة عظامها وهي تسحق . استمر ايوب في الضحك ، وقال :

- وشو حكايتك ؟ امبارح القطط على طريق شهريار ، واليوم الفيران . قلت له ، وانا احاول السيطرة على اعصابي ، انني ظننتها ارانب . قال ان ملايين من هذه الفئران الكبيرة الحجم تسرح وتمرح في هذه المناطق . رأيت سرباً آخر امامنا . اسرع ايوب نحوه وهو يضحك ، وقال :

- خدوا يااولاد الكلب !

وداس السرب .

تللك النشوة التي كان يسحق بها الفئران اثارت اعصابي الى ابعد حد . كانت محمّلة ببذاءة لاتحاول اخفاء نفسها . بدا لي وكأن ايوب يقول لي : انني تحت هذا المظهر الوديع أخفي روح مجرم وفاجر . في تلك النشوة كانت عربدة جنسية وقحة تتجلى طلبت منه ان نعود . سألني عن السبب ، فقلت انني اشعر بتعب مفاجيء انحرف يميناً ، ودار بالسيارة في اتجاه طريق العود وواصل حديثه : « يجب ان تسيطر على اعصابك . البارحة فقدت اعصابك بسبب القطط . وفي البيت تصاب بالكآبة بسبب الابراص والآن الفئران . »

قلت له أنه على حق ، رغبة في اسكاته ، ولكنه لم يتوقف : « يحدث هذا مع انك مغرم بأكل اللحم . اللحم ، الذي اكلته منذ قليل ، الاتعتقد انه كان حياً

مثل هذه الحيوانات ؟ ثم تغضب عند ماتدوس السيارة على فأر . »

طلبت منه ان يتوقف . ثم هبطت من السيارة واخذت اتقيأ . تقيأت كل مافي معدتي . اختفى الدوار الذي الّم بي . عدت الى مقعدي في السيارة . كان ايوب صامتاً . ادركت انه خائف . حين اقتربنا من البيت قال :

ـ اروح اجيب لك دوا ؟

كان في صوته رعشة . قلت :

ـ انا احسن .

اضاءت السيارة البيت ، ودخلت من الباب الخارجي ببطء ، حتى استقرت في الفسحة التي امام باب المطبخ . انطفأت مصابيح السيارة فهجمت علينا وحشة الحديقة .

منذ ان استأجرنا هذا البيت لم يقم احد بالعناية بالحديقة . نمت اشجارها وتوحشت حتى احاطت بالبيت كله وسدت منافذه . وعندما اعود الى البيت ليلاً ، فحتى اقطع المسافة الفاصلة بين البوابة الخارجية وباب البيت ، اصارع الاغصان وابعدها عن طريقي لاتمكن من المرور . افتح باب البيت ، فتتبعني الاغصان واوراق الشجر الى الداخل . ادفعها الى الخارج واغلق الباب بصعوبة . وحين افتح نوافذ حجرة النوم تعيش معي اصوات الحديقة ، حتى في احلامي . زواحف وحشرات وطيور كثيرة تحدث اصواتاً مميزة ، وهي تمرق عبر الاعشاب الجافة اوتسقط من خلال الاشجار الكثيفة الى العشب ـ بعضها سريع ، ينطلق فجأة ، محدثاً صوتاً اشبه بسقوط جسم ثقيل ، ثم يتوقف . اصوات اخرى تشبه انيناً يستمر طويلاً ، وهنالك الصرخات ـ تحتار أهي لطائر ام لانسان ـ تبدأ وتنتهي مخلّفة احساساً مضنياً بالفجيعة في احلامي تبدو الحديقة مزدحمة بالبشر الذين يتهامسون باشياء مبهمة تتصل بي ، ولكنني لاأعرفها .

قال ايوب :

ـ اوعى الشجر .

وسار امامي ، يحطم الاغصان التي تعترضنا .

عندما دخلنا البيت تناول ايوب المكنسة واخذ يكنس الابراص التي قتلها قبل خروجنا . توقف ليلاحظ ان ذيل احد الابراص مازال يتحرك رغم انه انفصل عن جسده منذ فترة طويلة . كان دائماً يبدي دهشته حين يرى الذيل المنفصل عن الجسد

يقفز ويرتعش .

امسكت بحذاء قديم واخذت اقتل الابراص المتسللة من الشقوق الموجودة في دورة المياه ، ومن تحت السجاجيد المكدسة تحت السلم الداخلي ، التي نفرشها شتاء ، ونخزنها تحت السلم صيفاً بعض هذه الابراص ينمو ليصبح طوله اكثر من عشرين سنتيمتراً . كان ايوب قد انتهى من الكنس ورفع الي وجهه . كان مغطى بالعرق . وكما هو دائماً في مثل هذه الاحوال كان عدوانياً ومرحاً . سأل عن الحصيلة ، فقلت :

ـ قتلت خمسة . منها سحلية وحيوان غريب آخر .

قال :

ـ باقي ثلاثة . لازم نوصلهم اليوم لعشرين .

كنا قد اتفقنا على قتل ثلاثة عشر برصاً في اليوم ، على الاقل . ايوب هو الذي اقترح الرقم . واذا زدنا على ذلك فخير وبركة .

عندما قتلنا البرص رقم عشرين كانت ملابسنا قد ابتلت بالعرق ، فخلعنا واستحممنا ، ثم جلسنا نشرب الشاي الخفيف جداً الذي اعدّه ايوب . بالنسبة لي ، يكون التفكير في تناول الطعام ، بعد هذه المجزرة مستحيلاً . اكتفي بالشاي ، ثم القهوة السادة التي شرب عدداً كبيراً من فناجينها ثم آكل شيئاً في الساعة الرابعة بعد منتصف الليل ، قبل ان انام .

اخذنا نشرب الشاي في صمت . كان ايوب يبدو منشغلاً بموضوع ما . نظر الى وابتسم ثم قال :

ـ انت بتحب القطط كثير .

اخذت اشرح له : القطط حيوانات جميلة واليفة الى حد يجعلها انسانية تقريباً . هل رأيت عينيها ؟ فيها جدية مضحكة كعيون الاطفال . اخذت اشعر فجأة بعشق للقطط ، فاضفت : تصور احساسك عندما تقفز القطة الى مكتبك ، وانت منهمك في القراءة او الكتابة . انها تداعب كتفك او ذراعك فتشعر برعشة متعة وحنان لامثيل لهما . ثم وانت نائم . عندما تتسلل القطة وتنام بجوارك ، او قرب قدميك وعندما تغضب القطة او تشاكس ، الاتشعر بالحنان يملأ قلبك ، فتود ان تضحك وتبكي في الوقت ذاته . لامثيل لجمالها الا جمال الاطفال فما الذي يجعل السكارى ، بحق الله ، وهم ينطلقون بسياراتهم بسرعة جنونية ، ينحرفون بها فجأة ، مخاطرين

بحـاتهم لمجـرد ان يصـدموا قطة عابرة ويسحقون جسدها سحقاً ؟ أي تكوين نفسي يجعلهم يفعلون ذلك لوان ذلك حدث مرة واحدة ، لما اكترثت كثيراً . ولكننا ، كلما اتجهنا الى طريق شهريار نرى العشرات منها مسحوقة ، دامية .

قال ايوب بعناد :

ـ جسمها مليان براغيت . وسخه .

قلت بحدة :

ـ هذا غير صحيح . القط حيوان نظيف بقدر مايستطيع . . .

وتوقفت عن الكلام . لاحظت ان ايوب ينظر بصرامة الى باب الحجرة وقد اتخذ فمه شكل انه لم يعد يصغي . لما صمتّ استقام جذعه وقال : صديقك عبد الحليم . . .

اذهلني فعلاً . قلت :

ـ عبد الحليم ؟ مين عبد الحليم ؟

ـ ياأخي هدا ، شو اسمه ؟ اللي بدو يجوز الفلاحين معلمات .

ـ عبد الكريم قاسم . ماله ؟

ـ عبد الكريم عبد الحليم مش مهم . المنطقي انه بدال مايجوز الفلاحين معلمات يعلمهم اساليب الزراعة الحديثة .

ومضى يشرح الفارق بين العقل العلمي والعقل المتخلف . عبد الحليم ، لم يفكر حتى باجراء احصاء ليرى ان كان عدد المعلمات مساوياً لعدد الفلاحين . ثم كان عليه ان يدرس توزيع القوى العاملة . القرية تحتاج مثلاً ، لخمسين فلاحاً والى معلمة واحدة ، فماذا يصنع بالتسعة واربعين معلمة المتبقيات ؟

قلت له ان هنالك بعض الاعمال الكتابية التي لابد لي من انجازها الليلة نهض ، وقال :

ـ فكّر في الموضوع .

وانصرف .

ـ ٢ ـ

قلت لنفسي : فلأستمر في الكتابة . كأنما اردت ان ابرر لنفسي التخلص من ايوب . اخذت اتمشى في الحجرة ، استعداداً للبدء . الكتابة حالة ، لخلقها ، لابد

من الحالات السابقة . لابد لي من طرد ايوب من داخلي ؛ اعني تصوره وهو يحاول النوم فيستعصي عليه ، وصرفي اياه من حجرتي دون شفقة . وهي ايضا حالة الصياد المتقزز الى ابعد حد من صيده ـ سحالي وابراص احس بدبقها تحت جلدي . وهي ايضا الرغبة في التواصل الحميم مع اصدقاء يفهمونك وتفهمهم ، ، اصدقاء لا وجود لهم الآن . . . وتتحول هذه الرغبة الى احلام يقظة تجعل الكتابة مستحيلة

اواصل المشي ، متخلصاً باحلام يقظة من شعوري بالاشمئزاز من جسدي . وتنمو حالة الكتابة فتجعل احلام اليقظة تبدو مضحكة . احاول الاعتذار عن هذه الاحلام فأجعلها امكانيات للكتابة ، فتتشيأ وتبتعد عني ببطء . يصبح المشي ، ومجازر الفئران والابراص ، واحلام اليقظة مملة ومرهقة جسدياً وتأتي الكتابة كاقتحام مشروع لحالة من الركود . انها تلبس رداء الواجب . اجلس للكتابة ومازال امامي عقبتان : الاولى ، الكتابة بمنطق حلم اليقظة ، والثانية ان يصبح مشروع الكتابة كله حلم يقظة ، فأرى الرواية التي اكتبها قد حازت اعجاباً عاماً . عندما اتخطى هاتين العقبتين تكتمل حالة الكتابة اخذت اكتب . كتبت ساعتين او اكثر . ثم شعرت بالكلمات تموت بين يدي ، والحدث يراوح مكانه . كلمات تتولد دون ان يحدث شيء . تصورت ضجر القاريء وهو يطالع هذه السطور ، وانتقلت عدوى الضجر الي . فانهض واتمشى ، منتظراً ان يعيد المكان والليل والاصوات الكتابة الي .

كنت اصف مشهد رعب في الرواية التي اكتبها . ولكن لحظة الرعب افلتت مني وانا احاول الآن استعادتها . وشيئاً فشيئاً اخذت تلك اللحظة تتسرب الي عبر السكون الشامل العميق ، وعبر الاصوات التي تنشأ في قلبه وكأنها انفجارات مفاجئة . . . عبر الحديقة باصواتها المخشخشة ، المنذرة ، وصوت باب سيارة يغلق ، واصوات الحرس في الشوارع المحيطة بالبيت وهم يتراكضون ويتنادون بصرخات مبهمة ، كنت اتصورها اوامر موجهة الي با طفاء الضوء . اتجهت الى المكتب ، ثم توقفت . توقفت لحظة الكتابة معلّقة في الهواء ، مؤجلة : كان ايوب يعدو في الطابق الاعلى . نظرت الى ساعتي . كانت تشير الى الثانية بعد منتصف الليل .

ترددت قليلاً . ثم فتحت الباب المؤدي الى الداخل ، ووقفت عند اسفل السلم ، وناديت : يا ايوب ! ، اشتعل ضوء السلم . رأيت ايوب وهو يهبط بضعة

درجات ثم يمد رأسه من فوق حاجز السلم . جذعه العاري يلمع بالعرق . وهو يمد رأسه خطر لي انه يصغي اليه بانفه ، لأن انفه وحده هو الذي كان يحمل تعبير التساؤل . قال :

ـ نعم ياخوي ؟

قلت :

ـ مش عارف تنام ؟

ـ مش قادر .

قلت :

ـ ليش ماتمارس العادة السرية ؟

اخذت عيناه ترمشان دون ان يقول شيئاً . قلت :

ـ اعتقد انها رايحة تريح اعصابك شوية . جرّبها .

قال بصوت شاك ، نحيل لم يكن صوته الطبيعي :

ـ قريت انها مضرة للمعدة والعيون .

ـ كلام فارغ . اعملها مرة واحدة في اليوم ، وبعدين امسك لك كتاب واقرأ فيه لحتى تنام .

قال ان القراءة تجعله عصبياً ، فقلت له ان عليه ان يجرب العادة السرية ، اذن ، فقال : « طيب » واخذ يصعد السلم . وشعرت وانا ادخل حجرة المكتب انني حكيم جداً ، فلقد قدمت خدمة غير تقليدية لانسان محتاج اليها .

كان ايوب يحتل الطبق الأعلى في البيت . وهو قد عاش بعض الوقت في امريكا ، وهنالك تخصص في التربية الرياضية . وفي بغداد اصبح مدرساً في معهد التربية الرياضية . تعرفت عليه بعد وصوله الى بغداد بفترة قصيرة . وكان الانطباع الذي خلفه لدي هو انه من النمط الشائع الذي تفرزه الجامعات الامريكية . اعني الانماط اللامعة من خريجي هذه الجامعات الذين يتمتعون بشعبية بين الطلبة ، ويتسمون بالثقة بالذات ، والتواضع المحسوب ، ويوحون لك بالرجولة والتماسك . وهم ، عادة ، ينجحون في لجان الصفوف ، ويتم انتخابهم كاكثر الطلبة شعبية ، اوجاذبية . ولكنك اذا تعرفت عليهم عن قرب ، فسوف تكتشف انك لاتستطيع التواصل معهم بعمق ، واذا جالستهم طويلاً فسوف يدركك الملل ، ويتكشف امامك خواءهم . غير انك ستندهش للمديح الذي يكال لهم ؛ ومن قدرتهم على

اقامة علاقة مع اية فتاة ، حتى الذكية ، التي تتمتع بثقافة جيدة وحس مرهف .

وعندماسكنّا سوياً كان ايوب في البدية يمتاز بروح عملية وتوافق اذهلاني . تصورت انه الانسان المثالي الذي استطيع ان اسكن معه . ولكن لمعانه انطفأ بسرعة ، واخذ يبرهن عن عجز حتى في ابسط الامور . واصبح النوم يستعصي عليه ، فيحاول استجلابه بأشق انواع التمارين الرياضية ولكن جسده القوي كان يستوعب مشاق الرياضة ، ويزداد توتره ، ويمتنع عليه النوم .

في البداية قال لي ان الفتاة العراقية ليست جميلة . كان يزعجه فيها طول الجذع وقصر الساقين . لقد تعود الفتيات الامريكيات ، ذوات السيقان الطويلة والاجساد النحيلة . كان يقسم لو ان الفتيات العراقيات بها في ذلك اجملهن ، قدمن انفسهن له ، ورجونه ان يضاجعهن لما تنازل حتى بلمسهن . ثم اخذ رأيه يتغير بالتدريج . قال ، ان جسد الفتاة العراقية رياضي بطبيعته . ولمااستفسرته عمايعنيه بذلك ، قال ان لها جسداً صلباً ، متماسك العضلات ثم اخذ يكتشف جمال العيون والشفاه . ولم يمض وقت طويل حتى اصبحت المرأة العراقية اجمل واشهى نساء العالم . ثم تحولت المرأة الى هوس عنده . والغريب انه لم يلجأ الى اية وسيلة اصطناعية للتخفيف من ازمته . كان يرفض ان يشرب الخمر او اللجوء للمومسات اوحتى العادة السرية ، الى ان اقتنع مؤخراً بضرورة ممارستها

-٣-

أي توارد لعين جعلني استعيد تلك الليلة المليئة بالعجائب ، بسجن الترحيلات في قسم الخليفة ؟

كانت الساعة تشير الى الرابعة بعد منتصف الليل ، وانا مازلت اكتب استولى علي ذلك النوع من القلق الذي يرافق كسر المحرمات . وضعت الدفتر الذي اكتب فيه ، في درج المكتب ، ودخلت حجرة النوم وتمددت على السرير . الاحساس بأنني تأخرت عن موعد نومي جعلني ألغي تلك العادة الليلة ، وهي ان اقرأ قبل النوم حتى اتخلص من حالة الكتابة ، ومايرافقها من توتر ، رغم علمي ان النوم دون هذه العادة الليلية لن يأتي بسهولة .

استرخيت بشكل ارادي لاستجلاب النوم ، فألحّ علي أيوب . اكتشفت انني منذ ساعتين وانا احتفظ بصورته على النحو التالي : اراه جالسا في الحمام ، فوق البيديه ، وجهه عابس وجاد جداً ، في حين تنطلق يده في ممارسة العادة السرية . لاأرى ، في خيالي ، صورته ابداً وهو ينتهي من تلك العملية .

لم تبد لي تلك الصورة كشيء مضحك بل كبذاءة مأساوية . كان ذلك اشبه بتحويل طفلة ثرثارة ، ضاحكة الى مومس لاينتهي حزنها ابداً ، او باغتصاب طفل مازال يتعلم المشي ، والقائه دامياً حوّل الرعب وجهه الى قناع . بحق الله ، هل هذا هو الوقت المناسب لهذه الميلودراما ؟ ولكن مابال ايوب قد سكن هذا السكون المريب ! وددت لو اسمع حركته فوقي ، اواسمع حتى صرخاته الجنونية : « مدينة بلا فرج » . ولكن لاشيء سوى هذا الصمت . (لماذا لم يخطر ببالي انه نائم ؟ ولكن ايوب لاينام ساعتين متصلتين دون ان يمارس قفزاته .)

في الظلام ، نظرت الى الساعة . عقاربها الفسفورية تشير الى الرابعة وعشر دقائق . بعد قليل سوف يطلع الفجر وعم الكون ذلك الضوء البلّوري الطازج وقد استهلكت طاقتي . علي ان ألغي ايوب من ذهني ، واتخلص من هذه الميلودراما . نجحت . وكان معنى ذلك الاستغراق في حالة من الخدر ، تتراوح بين النوم واليقظة . سوف يستمر ذلك وقتاً طويلاً ، بسبب حالة الكتابة ، التي لم اتخلص منها ، وذلك العدد الكبير من فناجين القهوة السادة ، المغلية جيداً ، التي تناولتها لم اكن في حالة ولاوقت مناسبين لتنا ول حبة فاليوم ، ثم القراءة حتى يدهمني النوم بشكل طبيعي . ثم تسرب المشهد .

لم يكن تذكراً ، ولم اعشه مرة اخرى . كان اشبه بمناظرة بين احمد الذي يحمل داخله صورة العالم الخارجي عن الفدائي : الروح المثالية ، والحس العملي العميق . مزيج لايمكن هزيمته ، بل يحمل مقاييسه ليفرضها . اما المناظر الآخر فقد كان طرفا عملية اللواط . وفي الخلفية مشهد ثابت وانفعال ميلودرامي .

صحـوت من نومي فجأة . جدران الحجـرة ذكـرتني بانني في السجن . على يميني كان احمـد يجلس متربعـاً . شاربه الكث ، الذي لم يشذّبه ، بدالي وكأنه ينبثق من داخـل منخـريـه - على شكـل قوس - ويـواصـل الانبثاق لما لانهاية . طاقتا انفه مضمـومتـان وكأنـه بضمهـما يسهّـل عمليـة الانبثـاق المتصلة لشاربه . عيناه ناصعتا البيـاض ، حادتـان ، وكأن ذلـك جزء من طقس الانبثاق . كانت نظراته مركزة على شيء مايجري على يساري .

اكتشفت ان الذي ايقظني من النوم كان تلك الحركة المستمر التي تخبط جانبي الايسـر بايقـاع منتظم . التفت الى مصـدر الحـركـة فرأيت الـرجل العابس ، الذي يتمـدد بجـواري ويـوليني ظهره . كان هو الذي يهتز . كان ذلك غريباً جداً ، ولد في داخـلي احسـاسـاً بأن شيء ما مخيفـاً وفـاجعـاً يحدث منذ زمن . حاولت ان انهض . التقت عينـاي بعيني احمـد ، رأيتـه يضـع سبابته على شفتيه طالباً صمتي . الى متى يستمـر ذلـك ؟ ولكنـه لم يطـل . قفز احمد ، اعني وقف وقفز في نفس الوقت وبشكل مبـاغت ، فتخطـاني وهبـط على يسـاري . كان ذلك - او على الاقل كما اتصوره في هذه اللحظة - مضحكاً جداً ولكنني لم اضحك . كنت خائفاً .

نهضت لأرى مايحـدث . كان احمـد يهوي بصفعـات رنـانـة على وجه الرجل والـرجـل يحتمي الصبي من الخلف واضعـاً يسراه تحت رأس الصبي ، بينما تقبض يمناه على ردف الصبي . رغم الصفعـات مضى الرجل في ايقاعه ولهاثه . انحنى احمـد وامسـك برأس الـرجل ورأس الصبي وابعدهما ، ثم داس بحذائه على ذراع الـرجـل التي تلتف حول عنق الصبي فانفلت جذع الصبي واندفع الى الامـام ، ولكنه ظل ملتصقاً بالرجل من وسطه ، صاح الصبي :

- انا في عرضك يابيه ! ابعده عني .

بعض النيـام استيقـظ واخذ يطالع مايحدث دون تعليق . عندما صرخ الصبي قال احدهم :

- يافاجر .

ولكن الصبي كان يحاول جاهـداً ان يخلص نفسـه من التحـام الرجل به ، فلا يوفّق . واخذ يقول بصوت شاك :

ـ سيبني يابن الكلب !

في المثلث الذي يفصل بينهما كان احمد يقف . ارتفعت قدمه ثم اندفعت الى صدر الرجل ، المرة بعد المرة . فجأة انفصل الاثنان . كان المشهد مقززاً : أن ترى ذلك الانفصال ، والعري الجزئي للأثنين . وكان احمد يواصل رفس الرجل في صدره ، والرجل يحاول جاهداً استعادة الصبي بذراعه اليمنى . قال الرجل بصوته المختنق الخشن وهو يتلقى الضربات :

ـ ماتحاسب يافندي .

ـ قال ذلك وكأنه ينبه احمد الى مضايقة يسببها له ، دون قصد سيء . وكأن عبارة الرجل كانت اشارة البدء . تحوّل احمد الى حركة سريعة ، مباغتة ، والرجل وقد اصبح وجهه دامياً ، لايفعل شيئاً سوى ان يحمي وجهه بكفيه .

كان الصبي واقفاً ، وقد سقط بنطلونه الى كاحليه ، عاري المؤخرة ، يطالع مايحدث بعينين متفحصتين ، وفم نصف مفتوح . التفت اليه احمد ، ثم اقترب منه ، وبدا لي للحظة انه يود معانقته ، ثم رنت صفعة على وجه الصبي ، واحمد يحدّق به بعينين ضيقتين ، ثم دفع سبابته حتى اصبحت قريبة من انف الصبي وقال :

ـ البس بنطلونك .

قالها كمن يوجّه نصيحة الى طفل . انحنى الصبي ، ورفع بنطلونه واخذ يزرّره ، ثم انحنى رأسه واخذ يزرّر قميصه ويعدّل من وضعه داخل البنطلون. كانت عيناه مسبلتان ، وقد بدا انفه وشفتاه رقيقتان ، مشحونتان بحزن الثوي ، خاضع . كان كإمرأة تعيش حزنها في ظل حاميها . رفع وجهه نحو احمد وقال بصوت باك ، مرتعش .

ـ كنت نايم يابيه ،وهو . . .

لاحظت في تلك اللحظة ان الرؤوس قد ارتفعت من وسط بحر النائمين واخذت تراقب مايحدث بصمت وحياد . في تلك اللحظة انفتح الباب ودخل اثنان من امناء الشرطة . صاح احدهم .

ـ ايه الدوشة دي ؟ فيه ايه انت وهوه ؟

اتجه الصبي نحوهما وهو يقول بصوت مرتفع :

ـ والنبي ياشاويش ، كنت نايم والراجل ده هجم علي .

رفع الرجل ذو الوجه الدامي رأسه وقال :

ـ شوفوا ابن القحبة ! عايز يوديني في داهية .

ثم انتبه الى نفسه ، فاخذ يزرّر بنطلونه .

ظل هذا المشهد يتفكك ويعاد تركيبه في خيالي ، الى ان سمعت حركة ايوب فوقي ، وهو يستعد للتوجه الى عمله ، فنمت .

ـ ٤ ـ

في هذا البيت الكبير تعرفت على عصاب ربة البيت . اعني بذلك ، الاحساس الثقيل بانني في معركة دائمة مع القذارة ، ومن اجل المحافظة على نظافة البيت . ووضع كل شيء في مكانه المخصص له جاهزاً لاداء وظيفته .

اكتشفت ان عليّ ان اؤ جل القراءة والكتابة ووقت النوم حتى اغسل طبقا او كوب ماء ويتكرر هذا في اليوم عشرات المرات . تبين لي ان الانسان في البيت يمكنه ان يمضي يومه ، في دورة ابدية ، يلوث الاشياء وينظفها

ان غسل طبق واحد ، مثلاً ، يحتاج الى مجموعة من العمليات بدت لي لانهائية :

تسخين الماء وغسل الطبق بالماء الساخن والصابون السائل . يؤدي ذلك الى اتساخ الحوض والرخامة المجاورة ، ولذا لابد من تنظيفهما من الماء والصابون ثم اكتشف ان ارضية المطبخ قد تلوثت ولابد من مسحها . وعندما انتهي من ذلك أرى ان ملابسي قد ابتلت واتسخت فلا بد من وضعها في طشت الغسيل ، وسكب الماء ومسحوق التايد فوقها ، وانه لابد من لي من الاستحمام وارتداء ملابس جديدة . وهكذا امضي في عمليات متتالية ، بلا بداية ولانهاية .

ولاحظت ـ واعجاب كبير بالمرأة يملأني ـ أن كنس البيت ومسحه يكلفني جهداً ، احتاج لأن استريح يوماً كاملاً في السرير بعده ، وانا اعاني آلاماً حقيقية في عضلات ظهري واكتافي . وقد جعلني ذلك اسأل نفسي : أي كائن عريب هي المرأة تقوم بكل هذه الاعمال ، ثم تربي الاطفال وتذهب الى العمل ، ثم تظل رغم ذلك نشيطة ، جميلة وشهية أو أية اكذوبة نخترعها ثم نصدقها ، حين ندّعي ان الرجل الذي يذهب صباحاً الى مكتبه ، يسترخي ريشرب الشاي ، ويثرثر مع زملائه هو الذي يشقى ويتعب واي تقسيم غريب للدخل القومي الذي يجعل مجهود المرأة الكبير

بلا مقابل في حين يغدق المال على عدد من البير وقراطيين الكسالى ؟

استمر ذلك فترة من الزمن، ثم قررت فجأة ان ارفض هذا القدر النسائي . كان معنى قبوله ان استنزف طاقتي كلها دون فائدة ، ان اتوقف عن القراءة والكمتابة الجادتين ، وان اعيش حياة تحت المستوى الانساني . لهذا السبب قبلت زحف القذارة على البيت : حجرة المكتب وقد غطّى التراب كراسيها الجلدية ،والمكتب الصغير الذي تكوّمت فوقه الكتب والاوراق واعقاب السجائر والفناجين التي تحجرت القهوة في قاعها ، وعلى السرير الذي اتسخت ملاياته واصبحت فرشته وكأنها محشوة بالحجارة . كنت دائما ازيح كومة من اوراق الشجر اليابسة . اما الحديقة المهملة فقط هاجت اشجارها وحشائشها وامتلأت بالقواقع والزواحف وراحت تفيض على البيت باغصانها واوراق شجرها وزواحفها وترابها .

جعلني هذا اشعر انني اعيش حياة مؤقتة وسط هذا الخراب لاقوم بعمل ما ، وحين انجزه اخرج الى الحياة والنور والنظافة . من اجل ان اكتب قررت ان اعقد اتفاقا مع الحياة : ان اسالمها واتجنب صراعاتها الصغيرة البائسة .

في عملي تنازلت عن كل مطالبي عدا اثنين : الوقت والعزلة . ولم اكن خاسراً . ففي حين انهمك الكثيرون في تكديس المال والترقي في المناصب . كنت اشعر انهم ينسجون الحبال التي يشنقون بها انفسهم : المزيد من المال والترقي لتنفيذ مشروعات، بناء بيت ، شراء سيارة ، اثاث للبيت الخ . . . ثم المزيد من العمل الروتيني التافه ، لمواجهة الاحتياجات المتزايدة ، والتذلل ، وفقدان الكرامة ، والخروج نهائياً من مجال العمل المبدع والحياة الحقيقية . ولكنني كنت كثيراً ما اسأل نفسي : الم أدخل انا ايضاً في دائرة مفرغة ، تبدأ بالقراءة وتنتهي بالكتابة ، وتكون الحياة فيها مؤجلة ، كنت اعزّي نفسي بان هنالك رصيداً كبيرا من الخبرة الحياتية يحتاج مني الآن صياغة كتابة . غير ان الحياة المشحونة ، التي تكشف كل يوم عن جديد ، حين تنقطع اوتؤجل ، يستيقظ الاحساس بعدم جدوى الكتابة ذاتها . من هنا عزمت خوض تجربة تنفذ الى العمق ، وذلك يعني ، بالنسبة لي ، تجربة مع المرأة . وهكذا كان .

ولكن هذا حدث لم نحن اوانه بعد .

★★★

في بعض الاحيان كنت اخرج من هذه الدائرة ولكن الى دائرة اخرى ومغلقة ايضاً . بحثت عن آخرين ، يسمعون مني واسمع منهم ، كنت استغل استعداد ايوب الدائم لمغادرة فاقترح عليه ان نذهب الى فندق دار السلام ، فكان يوافق على الفور .

هنالك دائما بعض المصريين ، بعضهم مقيم بعمل في العراق ، وبعضهم قادم في زيارة سريعة ، تلبية لدعوة رسمية . عدد محدود منهم قد اندمج في الحياة السياسية والاجتماعية على نحو ما ، خاصة ممن يعملون في مجالات الاعلام او التدريس في الجامعة ، واخرون - وهم غالبا يعملون في المجالات المهنية المتخصصة - مازالوا يحملون عن العراق نفس الفكرة التي جاءوا بها من مصر .

يقول احدهم وكأنه يقدم كشفاً لم يسبقه اليه احد : أن العراقيين يعتقدون ان الخمرة تجعل الانسان بطلاً . فالعراقي في البار ، يثني ذراعه ، مبرزاً عضلاته ، ويصيح بالجرسون :

- بوي ، انطيني البطَل .

ومهما حاولت اقناعه بان العراقي يقول البُطُل لا البَطَل فلن يقتنع

اسأله : انت شفت دا بيحصَل ؟ يقول : طبعاً ! فاسأله :

- انت متأكد انه بيقول البَطل مش البُطُل ؟

يقول : وأيه الفرق ؟ المهم انهم بيعتقدوا ان الخمرة بتخلي الواحد يصير بطل .

يقول ايوب وقد دخلت المسألة في دائرة اختصاصه :

- بُطُل ياخوي يعني *bottle* بالانجليزي ، يعني قزازة .

ولكنك لن تجد ابداً اغبى من غبي المصري . فالغبي اكثر الناس ايماناً بالفكرة العامية المصرية التي تقول ان كل من هو غير مصري فهو متخلف عقلياً . وهو ، في الوقت ذاته ، يعتقد انه شديد الذكاء . فيبصر صاحبنا على حكايته . وحين يحاول ايوب ان يعيد شرح رأيه يأخذ المصري في السخرية . منه والسخرية من ايوب اصبحت عادة كل المصريين الذين نلقاهم في الفندق .

كان ايوب يجلس صامتاً يصغي باهتمام شديد . فقد تعلم الايشارك في الحديث . فعندما كان يقول شيئاً ، كانت الدهشة تعلو الوجوه لمجرد سماع صوته . والنكتة الدائمة كانت ان ايوب يهمل محدثه والحديث الدائر عندما تدخل امرأة الفندق ، او عندما يرى امرأة تجلس قريباً منا . يظل يحدّق فيها ويغيب تماماً عن الجالسين . يناديه احدهم ، وهو يكتم ضحكة :

ـ ايوب ، سي ايوب !

فلا يسمعه ، ويظل محدّقاً في المرأة . فيمسك كتفه ويهزه صائحاً في اذنه :

ـ حاج ، ياحاج ايوب ! فوق ! اصحى !

فينتبه ويطالع الجميع بعينين واسعتين ، وكأنه استفاق من نومه للتو ويقول :

ـ عفواً ، نعم ياخوي .

فينفجر الجميع ضاحكين .

لذلك ، عندما اصر ايوب ان يحكي للحاضرين ماحدث عصر ذلك اليوم ، انقلبت الحكاية ـ كما توقعت ـ وبالاً عليه . كنا منطلقين ـ ايوب وانا ـ بسيارته في شارع فلسطين . حين وصلنا الى تقاطع توقفنا حتى ينتهي مرور السيارات . ثم بدأنا نتحرك ، واذا بسيارة تندفع من الشارع المعترض ، امام سيل السيارات ، وتتوقف فجأة . سمعت اصطكاك الفرامل بالارض ، كل ذلك والسيارة واقفة تعترض طريقنا . التفت الى ايوب وقال بعصبية : « شايف ليش واقف ؟ الست الماشية هناك ؟ » وبالفعل كانت كتلة حمراء تسير بمحاذاة مجموعة من البيوت ذات الطابق الواحد ، وهي تبعد عنا حوالي كيلومتر على الاقل . كان ايوب يهدر : اتعرف لو ان ذلك حدث في امريكا ؟ اتعرف ماذا كان يفعل شرطي المرور ؟ سوف يسحب رخصة هذا الحيوان ، ويرغمه ان يسير على قدميه . لن يسمح له بقيادة سيارة ، بعد هذا ابداً .

التفت الينا سائق السيارة المعترضة وابتسم ابتسامة جميلة ، ثم انطلق بسيارته في سرعة جنونية . قال لي ايوب بعصبية :

ـ شفت العكروت ؟ ابتسم . الظاهر كان بريد ناخذ له صورة . يمكن بتصور انه دمه خفيف . (تزايد انفعاله بشكل غير طبيعي) كان لازم انزل له وفي ضربة هوك واحدة اخليه يفهم نفسه .

حكى ايوب ذلك للحاضرين بالتفاصيل المملة ، فاصبح موضوع الجلسة . قال احدهم :

ـ الظاهر ياجماعة ان الايوبزم اصبحت حركة جماهيرية .

شخصت عينا ايوب وعلا الاحمرار وجهه ، وقال : ايوبزم ؟ مش فاهم .

رد عليه : انك انت ايضاً تغيب عن جلستنا عندما ترى امرأة . فقال ايوب :

ـ لكنه كان مخالف للسير .

ـ وقف لأنه عرف انك القائد المؤسس ، علشان يحييك . مش ابتسم لك ؟
ثم صمت المتحدث فجأة ه س احد الجالسين .
ـ بلاش حكاية القائد المؤسس دي . عايز تخرب بيوتنا .
فقال المتحدث الاول : والله ماكان قصدي . حبكت لوحدها .
لم يستطع ايوب ان يفهم سبب الصمت الذي حل على الجميع . همس لي :
ـ وشو صار ؟
ـ مافيش . الاخوان تذكروا انهم من انصار الايوبزم . بس اسم الجمعية مختلف . عندما قلت ذلك ضحك الجميع ، وقال احدهم لايوب :
ـ الّفنا جمعية اسمها جمعية المباوعون العرب ، على وزن (المقاولون العرب) ، وقررنا نعملك رئيس لها .
سأل ايوب عن معنى كلمة المباوعين ، فقلت له ، في اللهجة العراقية يباوع تعني ينظر . وعاد الحديث . ويتقدم الليل ، وكل منا يؤجل موعد انصرافه . لم تكن الجلسة مبهجة ، ولكن وحدة ومللاً لايطاقان ينتظراننا . ثم ننهض متثائبين ، آملين بنوم سريع .
في امثال هذه الليالي يزداد عذاب ايوب . هل يعود ذلك الى الموقف الهجومي الساخر الذي يتحدّه الآخرون ، ام بسبب وهم العيش لحظات بين البشر ؟ لاادري .
في تلك الليلة . وايوب في اشد حالات توتره ، وددت لو اسأله إن كان قد اخذ بنصيحتي ، ولكنني كنت ضجراً حتى الموت .

ـ ٥ ـ

صحوت متأخراً كالعادة . ايوب خرج الى عمله الذي يبدأ في الثامنة صباحاً . ذكرى فرحة رافقت صحوي ، حاولت استعادتها والامساك بها . ماالذي يفرحني ؟ ثم تذكرت . لقد انهيت الكتاب الثاني من رواية « السؤ ال » استلبت الحركات والمشاهد المكرورة البهجة . اوراق الشجر الجافة نفذت في الليل داخل البيت واستقرت على ارضية حجرة النوم وحجرة المكتب . كان هواء المبردة يحركها حركة بطيئة ، فبدت كائنات حية . طبقة من التراب تكونت في الممر المؤدي من حجرة النوم الى المغسلة . حذاء ايوب مطبوع فوقه ابتداء من قاعدة السلم الداخلي

وانتهاء بالمطبخ . برص يقبع ساكناً في الزاوية المكوَّنه من التقاء الجدار مع السقف . تحت المغسلة خط اسود من النمل قادم من مكان مجهول ، وينتهي الى الظلمة التي تكثفت تحت المغسلة .

لم يكن لدي الرغبة ولا القدرة على القيام بحملة تنظيف . كنت اقوم بالحركات اليومية المعتادة التي تعقب الاستيقاظ حتى اواصل احلام اليقظة التي بدأت ساعة صحوي . حملت ادوات الحلاقة ، وفرشة الاسنان والمعجون الى الطابق الاعلى حيث المكان اقل قذارة ، واقل اثارة للاكتئاب . وضعت الادوات على الحوض ونظرت في المرآة ، ففاجأني وجهي . علي ان أعيد صياغته حتى ازيل اثر السهر الطويل .

من النافذة بدت بغداد لوحة رائعة . الشمس بكل بهائها تستقر في وسط سماء عميقة الزرقة ، اشجار النخيل تمتد حتى دائرة الافق . اشجار اللارنج والبرتقال تحيط بالبيوت المكونة من طابقين ، والتي تقبع مستكينة في بحر النخيل . مشاتل كثيفة الشجر ، يحيطها سور من الاشجار العقيمة العملاقة ، وخلفها احواض الزهور ، ونبتات عضة في مئات القواوير الفخارية . حديقة عامة بزهورها واشجارها السمينة وطرقاتها الانيقة . كانت بغداد بستاناً حقيقياً ، قطعة من الجنة الشرقية . اما في الخارج ، في قلب هذه الفتنة وتحت شمسها مباشرة ، فانني في جوف نار الله الموقدة ، اعيش اتحاد الجنة بالنار .

بمجرد ان اطفأت المبردة اخذ العرق ينز من جسدي . لمحت بغداد من وراء النافذة بغداد ، كانت لوحة استوائية لجوجان ، بلا نساء ، او بنساء ممسوحات الملامح ، يختفين داخل عباءات سوداء . دخلت الحمام ووقفت تحت الدوش احلم ببغداد اخرى . بعد الاستحمام اخذت اجفف العرق والماء ، واندرج في سياق لهيب بغداد ، فعد قليل سوف اكون في الخارج

وقفت انتظر الباص . في محاذاة الرصيف الذي اقف عليه تجمعت مياه آسنة كانت المياه تأتي عبر قنوات صغيرة ، محفورة تحت البوابات الخارجية للبيوت مياه الغسيل والمسح التي لاتكف عن التسرب ، سمراء تطفو فوقها رغوة صابونية ، تعبر لشارع المائل باتجاه الرصيف الذي اقف عليه . هنا ، بمحاذاة الرصيف تتجمع لمياه مكتسبة سطحاً اخضر من العفونة .

بعد نصف ساعة من الانتظار رأيت الباص يلتف من ساحة الطبقجلي متجهاً

نحوي . كان الخريف يسخني كأنه حمى داخلية ، فاشعر بجسدي ثقيلاً كالرصاص وصل الباص ، وعند ماأخذت اتهيأ للركوب صاح الجابي الذي كان يقف بالباب

ـ مقبّط يابه .

رجل بجواري كان ينتظر الباص قال بغيظ :

ـ قز القرط !

قلت ، وانا في حالة هذيان ، للرجل :

ـ قز املك .

التفت الرجل نحوي وقال :

ـ بلي ؟

ـ ماكوشي .

قلت : وعدت الى الانتظار . . . انتظار طويل قد يمتد ساعة كاملة . اغوتني سيارة اجرة فركبتها . سارت بي عبر شارع بلال الحبشي ، عبر بحر من النخيل وشجر اللارنج ، والبيوت البيضاء الصغيرة . شاهدت نساء بعباءات سوداء ، تغطي الجسد من قمة الرأس الى القدم ، وبوجوه بللها العرق ، يحملن اكياس نايلون ملونة أرى وراء شفافيتها خبزاً وخضاراً حمراء وخضراء ولحمةكان ذلك نتيجة للوقوف ساعات طويلة في طوابير الجمعيات الاستهلاكية ، والافران ، والدكاكين الصغيرة . شاهدت رجالاً يلبسون كوفيات منقطة وعقل غليظة ، لهم وجوه مكدودة ضامرة ، بدت لي كالاقنعة .

انحرفت السيارة يميناً ، فخرجنا من بحر النخيل ، ودخلنا في جو خال من الاشجار والظل . اصبحنا في الشارع الجمهوري . الهواء القادم من شباك السيارة المفتوح يأتي لاسعاً ، عنيفاً كلسان ناري يلعق الوجه بشراسة .

امام العيادة الشعبية تقف عشرات الوجوه المنتحبة بصمت ، الضارعة بصمت تنتظر . نساء بعباءات سوداء ، رجال بكوفيات وعقل ، اطفال سمر معلّقون على الصدور ، اطفال دارجون بين الاقدام ، او واقفون في صمت كالتماثيل بعيون سوداء ، واسعة ، حزينة ، الى جوار امهاتهم . كلهم ينتظر في جحيم بغداد الملتهب . واعيش للحظات ـ وانا أكاد اختنق ـ كوابيس طوابير الانتظار : طابور يمتد من داخل الفرن الى الرصيف ، الى الشارع ، وانا اتفسّخ واذوب بالحرارة المنبعثة من الفرن المشتعل ، وعندما اصل الى بائع الخبز يقول لي .

ـ عيني ، ماكو صحون . . !

فانصرف ملتاثاً بالحر والخيبة . . طوابير طويلة لشراء كيلو طماطم ، او خيار ، اكتشف بعد شرائه انه لا يصلح للأكل ؛ طوابير في داخل الاورزدي باك لشراء علبة سجاير او استكانات لشرب الشاي . . طوابير ، طوابير ، لاتنتهي ابداً وكأنها تتولد وتواصل السيارة اندفاعها في شارع عريض يمتد لما لا نهاية . ولما لانهاية تتكرر « امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة » مكتوبة بخط اخضر بارز فوق ارضية من الزجاج الصيني الابيض ، معلقة على شرفات وفوق بوابات دوائر حكومية ، ومؤسسات غامضة ، وعمارات سكينة ، ومطاعم كباب ومحلات بيع الشربت . بداية الوزيرية . صورة كبيرة لرئيس الجمهورية يبتسم بادب ، مكتوب تحتها « الرئيس احمد حسن البكر مثال رائع للمناضل البعثي » ـ صورة اخرى لنائب رئيس الجمهورية وهو عابس يرتدي ملابس عسكرية ، مرينة بنياشين كثيرة . صورة اخرى لرئيس الجمهورية ونائبه ، الرئيس يبتسم برقة ونائبه يضحك .

على يميني الآن المجمع العلمي الكردي . بناء كابي الصفرة يكاد يكون مكعباً . تقتحم وقاره الثقيل الالوان البراقة للوحة « امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة » . ثم تتوالى الصور والاعلانات : نائب رئيس الجمهرية يلقي نظرة جانبية وقد مال وجهه ميلاً خفيفاً الى اليسار ، فريد شوقي وزيزي البدراوي على لوحة كبيرة الحجم في اعلان عن فلم جديد ، لوحة تحمل عبارة « مشروع اسالة المياه » ، اعلان كبير الحجم عن عرض مسرحية بريخت « جاليلو » قرب مدخل اكاديمية الفنون . . يقول يبدأ العرض . . ولا استطيع قراءة التاريخ .

نمرق تحت الجسر الحديدي . « امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة » « وحدة حرية اشتراكية » معلقتان فوق دار الجماهير . تزاحم السيارة وتناور ، وهدفنا ساحة باب المعظم . زحام هائل . آلاف يقفون بانتظار باصات تنقلهم الى اماكن متفرقة في المدينة . تجيء الباصات وتمضي ويظل الزحام على حاله .

شحاذ يجلس على الرصيف ، متكئاً بظهره على الجدار . يفرش منديلاً على الارض امامه ، وقد تكومت فوق المنديل قطع معدنية مختلفة الاحجام . كان يطالع الفضاء بعينين مطفأتين ، محدّقتين . ويصرخ بين الحين والآخر : الله ومحمد وعلي . عجوز نحيلة ، مستقيمة كالعصا ، تسير واضعة عباءتها فوق رأسها ، تاركة ابياها تنسدل حتى حذاءها ، دون ان تمسك بطرفيها . من فتحة العباءة يظهر جسدها

ملفوفاً بثوب ازرق ، بلا اثداء ولا بروزات . تسير كالرجال مستقيمة دون ان تتثنى ، وتضع سيجارة مشتعلة بين سبابتها واصبعها الاوسط ، تنفث دخانها من انفها ، وتلقي نظرة عكره ، حجرية على الشارع .

اوقفت السيارة قبل استدارة الساحة ، وواصلت مسيرتي ماشياً . توقفت في انتظار اشارة عبور المشاة ، ولم اشارك السائرين مناوراتهم الجسورة لعبور الشارع ، وسط اصطكاك الفرامل ، وشتائم السائقين . انفتحت اشارة المرور ، ولكن سيارة فولفو مرقت مسرعة كالسهم بين العابرين . قوانين المرور يحترمها الضعفاء فقط . في الطرف الآخر من الساحة يجلس بائع السجائر الوقور المقطوع الساقين على الارض . امام سجايره . اسأله :

ـ اكو روثمان عندك ؟

ينصرف الى تنسيق السجاير دون ان يرد . بعد قليل يرفع رأسه ويقول : ماكو كان كبير الرأس ، عريض الوجه ، ذا تقاطيع عابسة ، صارمة . اتخطاه واواصل السير في الشارع الجمهوري ، بمحاذاة حي شعبي يقع على يميني . اعبر سور المكتبة الوطنية الى الساحة الخلفية حيث تقف سيارات كبار المسئولين . حين التفت الى اليمين كان بامكاني ان ارى احشاء الحي الشعبي .

الحي الشعبي هذا كان جزءا من احد المباغي العامة في الخمسينات . والآن وقد اقتطعت منه المساحة الواسعة ، التي تحتلها المكتبة الوطنية ، واستولى الشارع الجمهوري على جزء آخر ، ضاق الحي حتى بدا كديكور مسرحية ، يحاول ـ اي الديكور ـ ان يوحي بملامح حي شعبي . تتجسد تلك الملامح في الشناشيل التي تحت نوافذ الطابق الاعلى . وفي ابواب البيوت المطلة على الساحة الصغيرة ، الخالية . تهبط درجتين تحت مستوى سطح الارض فتصبح امام الباب . وحين ينفتح الباب ترى امامك ستارة مزركشة تحجب مدخل البيت ، ووراءها . عتمة وحركة خافته . الستارة المزركشة ، والبيت الهابط تحت سطح الارض والعتمة تملأ المراقب بحس اغواء انثوي عريق .

كنت اراقب هذا الحي من نوافذ الادوار العليا للمكتبة الوطنية . كان يدهشني دقة احجام بيوته وتلاصقها ، وتداخلها احياناً ، حتى ليصعب من هذا العلو تحديدها . وكأن هذا الحي يصر على التشبه بالمسرح ، فما ان يبدأ الشجار بين النساء (وهو يبدأ فجأة ودون سبب واضح) فتنطلق الشتائم مدّوية مدغمة لتعلو على ضجة

الشارع الجمهوري ، ويتوافد الاطفال والنساء من مسارب مبهمة ويتجمعون في الساحة ـ ضاربين نطاقاً حول المتشاجرات . كان ذلك بالنسبة لي يشبه مشاهدة عرض مسرحي من الشرفات العليا للمسرح .

تزدحم الساحة ، وتتعالى الاصوات الزاعقة ، وتقوم مشاجرات نسائية في اماكن متفرقة من الجمع . غريبة مشاجرات النساء . تمسك كل واحدة بشعر خصمتها ، فتقترب الرؤوس ، فتعتقد ان المسألة لا تعدو جذب الشعر . ولكنهن ، عندما ينفصلن تجد جروحاً ودماء على الوجوه ، فتتساءل : كيف تم ذلك واليدان منشغلتان بشد الشعر ؟

ثم يتوافد الرجال ـ لا تعرف من اين جاءوا ـ وتسود اصواتهم الحلقية الخشنة حركاتهم البطيئة توحي انهم عاجزون عن فعل أي شيء امام دينامية النساء المتفجرة . ولكن العراك يتوقف ، والحشد يتلاشى ببطء . ولن تستطيع ، مهما حاولت ، ومهما اجهدت نفسك في الاصغاء ان تعرف سبباً لبدء العراك او سبباً لانتهائه .

اسير الآن في موازاة قلب الحي . لمحة من الشارع الضيق ، النظيف ، الذي يتخلل الحي ، ويتوه في عمقه بغموض ، ولّد في داخلي شوقاً لبغداد اخرى : بغداد الخمسينات الملفعة بضباب عصر عباسي .

اواصل المسير . ادور حول مبنى المكتبة ، فاصل الى مدخلها المواجه لوزارة الدفاع . على يساري مكتبة المجلات . ستارة سمنية اللون تغطي واجهتها الزجاجية ، خلف الباب الزجاجي ارى احدى الموظفات جالسة الى مكتب المنيوم ، رمادي اللون . اطالع وجهها الناظر نحوي عبر الزجاج . المكياج ثقيل واعلم بخبرتي انه غير متقن . ابتسم لها ، واهز رأسي .

افكر في الدخول ، والقاء نظرة سريعة على الصحف العربية والاجنبية المتيسرة . ولكن شعوراً بالذنب يستحثني للاسراع . فقد بلغت الساعة العاشرة والنصف تقريباً

- ٦ -

صعدت الى الطابق الاول من المكتبة الوطنية . كنت اقاوم الجو البارد في الداخل بحركتي السريعة . واجهات زجاجية تمتد على يساري الى نهاية الممر .

انحرف يسارا الى الممر التالي . واجهات زجاجية على يميني وعلى يساري . الحجرات التي تضم فتيات وضعت على واجهاتها صفائح كرتون سوداء ، بارتفاع متر عن الارض وبعرض متر فوق ذلك . حين اجلس في حجرتي المواجهة لهن ارى من الفتاة ساقيها وجزءاً من عجيزتها . اقول بأسى انني احد اسباب هذا الاجراء . فمن الفتيات العاملات في ارشيف المكتبة ، الجالسات في الحجرة المواجهة لحجرتي ، حصلت على الكثير من الكتب الهامة . كنت اكتب دراسة عن الفيلسوف المعتزلي ابراهيم بن سيار النظّام ؛ وكانت المكتبة تحتوي على عدد من المراجع الهامة .

يبدو ان مدير المكتبة شاهدني وانا اكلم احدى الفتيات ، اوربما بسبب وشاية ، صدر ذلك الاجراء الغريب . ففي احد الايام ناديت احدى الفتيات فجاءت . تلفتت يميناً ويساراً قبل ان تدخل ، ثم اقتربت مني وهمست :

ـ ماكو كتب .

قلت مندهشاً :

ـ اش دعوه ؟ اش صار ؟ زعلانة مني ؟

ابتسمت وقالت :

ـ انت حباب لويش ازعل منك ؟ امر المدير عيني .

حاولت ان اعرف منها السبب فاكتفت بالقول انها لاتعرف . وعندما الححت اشارت بسبابتها الي وقالت :

ـ ممنوع على وِلْد الثقافة يحچوا وايا بنات المكتبة .

في محاولة منها لتقليد اسلوب مدير المكتبة في الكلام . ثم خرجت مسرعة من الحجرة وايضاحاً للمسألة ، فان وجود المجلة التي اعمل فيها ، في مبنى المكتبة الوطنية كان مؤقتاً بسبب عدم توفر مقر لها . اما اطلاق صفة « وِلْد الثقافة » على العاملين في المجلة فلم يكن دقيقاً ؛ اذ اننا جميعاً ـ المكتبة والمجلات والتأليف والنشر الخ . . . ـ تابعون لادارة الثقافة ، وبالتالي من وِلْد الثقافة . ولكنها صفة اختصصنا بها وحدنا وشاعت .

المهم ، ان تصرف الفتاة وحديثها ادهشاني فذهبت الى مكتب مدير المكتبة اسأله عن السبب ؛ فلم يفدني في شيء . دخلت حجرة السكرتيرات فرأيته واقفاً هنالك . ماان رآني وجهه الابيض الشاحب احمر كالطماطم الناضجة احمرّت حتى اذناه . واخذ يرحب بي بحرارة . عندما استدرت لانظر الى احدى الفتيات ، وقد

اعتقدت انها تكلمني ، حتى ازداد احمرارا واخذت عينه اليسرى تختلج . اما الفتيات فقد اخذن يتبادلن النظرات ثم ينفجرن بالضحك كان المدير يحاول ان يجيبني على سؤالي ، عن سبب منعي من استعارة الكتب ، ولكن كلامه كان غمغمة غير مفهومة ، وبدا وكأنه يجد صعوبة في ابتلاع شيء ما . تزايد ضحك الفتيات بعضهن وضعن رؤوسهن فوق المكتب واخذت اكتافهن ترقص بالضحك المكتوم . فتاة اخفت وجهها بيديها واخذت دموع الضحك تبلل انفها وطرفي فمها . حاول المدير اسكاتهن بنظرات غاضبة مخيفة ، ولكن ذلك كان باعثاً على ضحك اشد ، كما يحدث في الافلام الكوميدية .

كان الموقف مستحيلاً ، وخاصة عندما تصاعدت محاولات المدير في ابتلاع ذلك الشيء الذي يقف في حلقه ، فخرجت وعدت الى حجرتي حائراً .

قبل انتهاء الدوام بقليل زارني احد الزملاء . كان رجلاً متزناً ، ويتحدث باللغة العربية مع غير العراقيين . واخذ يشرح سبب اجراء مدير المكتبة . قال ان مدير المكتبة لاحظ انني اطيل النظر الى الفتيات ، قلت ان ذلك لاحيلة لي فيه ، فعندما ارفع رأسي اجد حجرة الفتيات في مجال نظري . واما الحديث معهن فهو مقصور على طلب الكتب التي احتاجها . هل تريدني ان لاارفع رأسي ؟

ضحك وقال :

ـ ارفع رأسك ياأخي فلقد مضى عهد الاستعباد . كلمات عبد الناصر .

وضحك مرة اخرى ثم اضاف :

ـ مدير المكتبة لايحب ان ينظر احد الى الفتيات او ان يكلمهن .

قلت :

ـ ولكن المدير يحتجز ست فتيات في حجرة ضيقة ملاصقة لمكتبه وكلما دخلت وجدته واقفاً بينهن .

فقال الزميل :

ـ المدير مسيحي ، كما تعرف ، وهو يحتجز الفتيات المسيحيات فقط .

ـ بدون شغل .

ـ اعلم ذلك .

قلت :

ـ انا اكلم الفتيات الاخريات لاالمسيحيات .

فقال ان مدير المكتبة غيور جداً على كل النساء . قلت :

ـ ولكنني لم اقتحم عليه مكان حريمة الفتيات اللواتي كلهن يقمن بخدمة عامة ، ومن حقي التمتع بها .

في اليوم التالي طلبت مقابلة المدير العام لدائرة الشئون الثقافية . ادخلني السكرتير الى مكتبه على الفور ، وبدا واضحاً انه على علم بسبب زيارتي . كان المدير صغير الحجم ، دقيق الاطراف ، وجافاً . بدا شعره وكأنه شعر مستعار قد الصق بجمجمته . كان مصبوغاً بلون اسود فاحم . في جبينه وصدغيه وعلى ظاهر يده تبرز شرايين خضراء ؛ وفي حركاته استرخاء ، وفي حديثه رقة وتنغيم للكلمات ، خاصة حروف العلة فيها ، التي يمطها وينغّمها حتى يبدو وكأنه يغني . استقبلني واقفاً . صافحني وهو يقول :

ـ ويشلووونك استاااذ غالب ؟ وشلون صحتك ؟ إن شاء الله مرتاح !

قلت :

ـ زين . تمام .

واحسست بعبارتي قاطعة ، جافة في مواجهة ميلودية المدير فاضفت :

ـ شلونك انت ؟

وبتنغيم مستحيل اخذ يردد :

ـ ياهلا يامرحبا ، ياهلا يامرحبا . . .

وهكذا لمالا نهاية .

دق الجرس وجاء الفراش العجوز :

ـ شايين ياولد ! ـ

وبغنج غريب مال نحوي مردداً :

ـ اهلاً استاذ غالب ، اهلاً . . .

ـ اهلاً بيك .

في تلك اللحظة هاجمني الضحك فقاومته بصعوبة ، اذ تذكرت ماقاله لي احد المسئولين ، الذي يكن عداوة للمدير العام : ان كل المجاد هذا المدير انه شارك في اغتيال عبد الكريم قاسم على النحو التالي : لقد صدر اليه الامر ان يرتدي ملابس النساء ، وان يقف قرب المكان المقرر للاغتيال ، ثم عليه بعد اطلاق الرصاص على

قاسم مباشرة ان يصرخ بصوت نسائي ، عالٍ وواضح :

ـ واويلاه ! الشيوعيين كتلوا الزعيم . . . !

وقال لي ذلك المسئول : تصور ، انه حتى هذا الدور لم يقم به . فلقد انصرف بعد اطلاق الرصاص بعباءته واقراطه الذهبية دون ان يطلق ولولة واحدة .

حتى لايستمر في الترحيب لمالا نهاية ، قلت :

ـ استاذ عايز اكلم سيادتك في موضوع اعتقد انه مهم . مدير المكتبة منعني من استعارة الكتب ، وانا احتاج اليها لدراسة هامة . عمل هذا لسبب لااعرفه .

اغرق المدير في الضحك ، برقة منضبطة ، ونعومة ذات ايقاع ، وقال :

ـ استاذ غالب . .

ولكن الضحك ـ الذي بدا لي مفتعلاً ـ منعه من الاستمرار بقيت صامتاً ، مبتسماً حتى انتهى . اخرج علبة الروثمان . قدم لي سيجارة وتناول اخرى . اشعلنا سجارتينا وسادت فترة صمت . بدا المدير حزيناً وهو يراقب دخان سجارته ثم اخذ يتكلم بنبرة شاكية . قال ، قد لاتعلم ان المدير اصيب بصدمة عصبية خلال ثورة ١٩٦٣ . قلت :

ـ لاحول ولاقوة الا بالله . لكن استاذ ، ماعلاقة هذا بموضوعنا ؟

ـ علاقة وثيقة جداً استاذ .

صمت قليلاً ثم قال وهو يتنهد بأسى ان مدير المكتبة اصبح ، بعد الصدمة ، غيوراً جداً .

سألته :

ـ على كل النساء ؟

فهز رأسه مرات عديدة بوقار وحزن وقال :

ـ بلى استاذ ، على كل النساء ،

ـ والعمل استاذ ؟

ـ مثل مادا تشوف .

صمتنا ندخن . ثم قلت دون ان اقصد اللبس :

ـ ماكو علاج استاذ ؟

قال المدير ان الدولة ارسلته الى امريكا للعلاج وتحسنت حالته ولكن غيرته زادت . اوضحت للمدير العام انني لم اكن اتحدث عن علاج مدير المكتبة ، بل عن

علاج الموضوع الذي جئت من اجله . فقال ، ان الحل هو ان احصل على الكتب بالاسلوب التالي : ان اخرج من دائرة الثقافة ، واصعد الى المكتبة من السلم الخاص بالمتعاملين مع المكتبة من الخارج . سوف اجد ان الذين يتلقون طلبات الاستعارة ذكور ، وكذلك الذين يأتون الي بالكتاب . فاستعير الكتاب واجلس في القاعة المخصصة للقراءة .

شرحت له ان ذلك مستحيل . اولاً ، انا اعمل في دائرة الشئون الثقافية ، فكيف اتظاهر بانني اتعامل معها من الخارج ؟ كيف استطيع ، ثانياً : ان انقل كتبي واوراقي كلها واعيدها في كل مرة ؟ ثالثاً ، ماذا عن عملي في المجلة ؟ انني احاول التوفيق بين عملي الخاص وعملي في المجلة ، فهل اتخلى عن عملي في المجلة ؛ ولماذا يكون لغيرة مدير المكتبة كل هذا الاعتبار ولاتؤخذ هذه الامور كلها في عين الاعتبار ؟ قال المدير بعد ان اصغى الي بانتباه ان لاحل الا هذا ، والدعاء لمدير المكتبة بالشفاء . فغادرته وانا محتقن بالغيظ .

حدث هذا يوم الاربعاء ، اعني لقائي مع المدير العام . مر يوم الخميس دون ان يحدث شيء ، ويوم الجمعة كان يوم عطلتنا الاسبوعية . يوم السبت جئت متأخراً اكثر من المعتاد ـ بعد الساعة الحادية عشرة . فاجأتني صفائح الكرتون السوداء ، تمتد على ارتفاع متر عن الارض ، تغطّي الحجرات التي يوجد فيها فتيات تابعة للمكتبة الوطنية .

اعتقدت في البداية انها موضوعة بمناسبة عيد ما ، من تلك الاعياد التي لاتنتهي . يوم او يومان وتزال . ولكن ذلك الكابوس الاسود ، ذلك الليل الابدي ، استمر عبر الايام والسنين .

كانت صفائح تحمل صوراً عجيبة . ذات الوان حمراء وصفراء وخضراء صارخة . كانت الصور ذات طابع وجو صينيين : وجوه حمراء ، مدوره كأنها كرة ، لها عيون جاحظة . العين ذات جفن عريض ، مزخرف بدوائر ذهبية تقوم مقام الرموش والحواجب . والاذن كانت على شكل قرن اصفر لولبي.كان هنالك صورة لتنين له لون فسفوري اصفر ، تندفع النيران القاتمة الحمرة من فمه . ومن منخريه تندفع طلقات زاهية الحمرة متتابعة ، تشكل قوساً ، وتنتهي الى مشهد غائم ، يسيطر عليه اللونان الاسود والرمادي .

هل قلت « وتنتهي الى مشهد غائم » ؟ كم انا مخطىء ! لقد نفذت تلك البقعة الى اعماقي . فبمجرد ان تلمحها عيناي كنت اشعر بتوتر يدفعني دفعاً لأن ابعد بصري عنها .

السور الكرتوني انهى ، ايضاً ، علاقة حب ، من الجدارين الزجاجيين لحجرتين كانت عيوننا تتلاقى . كانت تسوّي جلستها بحيث تستطيع عيونا ان تلتقي .

الحوار بين عيوننا كان فقيراً ، غير انه اصبح لاغنى لي عنه . استغرق في القراءة او الكتابة بين الحين والحين ارفع رأسي **لتلتقي عيوننا** على الفور . ادقق **النظر في العينين** واجاهد ان اقرأ ما تقولان . لاتقولان شيئاً ؛ وكأنهما تنظران الى شيء **خلفي وانا اعترض بين العينين ذلك الشيء** .

وعيناي ؟ ماذا كانت تقولان ؟ لاادري . إن كانتا تعبران فعلاً عن مشاعر فانهما كانتا تطرحان سؤالاً ملحاً ، نهماً ، ملهوفاً ؛ تطرحانه بلجاجة ، وبصيحة مختنقة ما معنى هذا ؟ وماذا بعد ؟ الانقترب خطوة واحدة ؟

• لاشيء غير ذلك . عينان مشبعتان بالضوء حد افتقاد التفاصيل ، تلتقيان بعيني ، ولاتقولان شيئاً . رغم ذلك ، فقد احتلت العينان النقطة المركزية ، المتوهجة **في يومي** . ذلك التوتر والتركيز اللذان اشحن بهما عيني ، **لألقي** اسئلتي اللجوجة ، **التي لاتنال سوى اجابات مبهمة ، هما اللحظات الرائعة في يومي الثقيل** .

في الصباح ، تدفعني الرغبة الى استعادة تلك اللحظات المتوهجة الى الاستعجال حس بالتفاؤل يوهمني ان يومي هذ **سوف** يكون مختلفا . عندما يتأخر الباص ، وهو حتماً سيتأخر ، اركب سيارة اجرة . اهبط منه واخترق الحي الشعبي مسرعاً ، واصعد سلم المكتبة لاهثاً ، عرقاناً . يمر في مجال رؤيتي الجالسون وراء المكاتب ، خلف الجدران الزجاجية كأنهم ركاب قطار مسرع . وبمجرد ان اصل الى بداية الممر ، المؤدي الى حجرتي يرتفع رأسها الذهبي ، تتابعني عيناها الذهبيان في خطواتي الى ان ادخل حجرتي . ويبدأ نهاري - وكأن ذلك يحدث للمرة الأولى - وانا عازم على جعل العينين تنطقان وان أصل الى نتائج محددة . احلام اليقظة ، والقرارات التي اتخذتها خلالها ، تلح علي الى حد المجازفة . لامجال للتردد هذه المرة ، اقول لنفسي اجلس خلف مكتبي العينان عليّ ثابتتان - لاتتحولان . ابدأ الحوار بنفاذ صبر . اسأل واسأل - وألحّ في سؤالي - والضوء في عينيها يشع بهدوء

راقبته من الخلف وهو يمشي . رغم ان كعب حذائه يبلغ حوالي تسعة سنتيمترات ، فقد كان قصيراً جداً ونحيلاً ، يسير متصلباً وهو يدق الارض بحذائه ، فكان اشبه بحصان قزم .

كانت الاشاعات قد ترددت ـ وفي كل اشاعة في بغداد بذرة من الحقيقة ان تحقيقاً حزبياً جرى مع المدير ، وان هنالك قراراً بابعاده عن منصبه . وسبب ذلك ـ كما اشيع ـ ان المدير استدعى فتاة ، ثم كمن لها قرب الباب . وعندما دخلت الحجرة فاجأها واحتضنها من الخلف ، واخذ يقبل عنقها ، فصرخت . ثم قدمت شكوى ضده . قيل ان المدير اصرّ ان الشكوى كيدية ، فللفتاة اقارب شيوعيين ، وكراهية الشيوعيين له معروفة ، وكذلك كراهيته لهم وقيل ، ايضاً ، ان المدير صرخ امامم المحققين بغضب :

ـ وهكذا يكون الشيوعيون قد حاكموني مرتين . مرة تحت حكم قاسم ومرة اخرى تحت حكم حزب البعث الذي انتمي اليه .

ورغم ان التاريخ يكرّس امثال هذه العبارات ، ويحيطهابالاجلال ، وانها كثيراً ماتحول المواقف الخاسرة الى نصر فيه شبهة الخلود ؛ ولكن يبدو ان صرخة الفتاة قد اجتذبت البعض ، فشاهدوا المدير وهو يحتضن الفتاة من الخلف ، ويضع كفه على فمها ؛ غير ان صراخها كان يتسلل من بين اصابعه وقال الشهود ان الفتاة حررت فمها من كفه وواصلت صراخها القوي النافذ . وقد شهد هؤلاء ضد المدير امام لجنة التحقيق ، اما انصار المدير فقد اخذوا يتساءلون بذكاء : لماذا حررت الفتاة فمها ولم تحرر جسدها كله منه ؟ وقالوا ان المدير ضعيف البنية والفتاة تتمتع بصحة جيدة وعضلات فكيف استسلمت له وهو يحتضنها من الخلف ؟ ومن خلال اسئلة كهذه كانوا يؤكدون ان الشكوى كيدية .

وترددت اشاعات اخرى ، الاغلب ، انها قيلت بقصد النكتة ، فصدقها البعض وروّج لها ، من ذلك ان المدير قد استقبل الفتاة وقد خلع ملابسه ؛ او انها دخلت ، فلقيته يجلس خلف مكتبه ، وهو يرتدي ملابسه كاملة ، ولكن عندما اقتربت منه اكتشف ان الجزء الاسفل من المدير كان عارياً تماماً . المهم ان المدير العام اختفى من الدائرة وان مديراً آخر حلّ مكانه ؛ وان هذا الاخير جاء من احدى الادارات الغامضة ، وقيل انه سوف يعود اليها . وقد علمت ان هذا المدير كان شيوعياً سابقاً ، ثم انضم الى حزب البعث في السبعينات ، واصبح فجأة من اشد

المتعصبين لافكار الحزب ومن المغالين في عدائهم للماركسية . يقال انه مرة قابل احد معارفه ولامه لأنه كتب مقالاً في احدى الصحف عن مدام كوري . قال له : « لماذا لم تكتب مقالاً عن الخنساء بدلاً من الكتابة عن امرأة شيوعية . » ولااعلم ماانتهت اليه هذه المناقشة ، ولكن قيل ان استاذ الفيزياء الجامعي هذا قد تم نقله الى معلم اطفال ، في قرية في جنوب العراق .

حين دخلت رأيت ان بعض الزملاء قد سبقوني . الاكتشاف الحقيقي كان المدير العام ذاته . كان ممتلئاً ، ذلك الامتلاء الذي تتسم به الاجساد العضلية القوية ، المتماسكة . رأسه مربع ، ووجهه يفيض بالحيوية والمرح . استقبلني واقفاً ، ضاحكاً ، وقال :

ـ الرجال العظام يأتون دائماً متأخرين !

وصافحني . لم يكن يلومني ، بل كان يستجيب لفيض مرحه ، جلس واخذ يتحدث . قال ان هذا الاجتماع للتعارف وابداء النصح . ثم اضاف قائلاً ، انه ـ صراحة ـ غير راض عن المجلة ، اذ تنقصها الحيوية والعمق . احببت قوله ، فقلت ان ذلك صحيح . قال :

ـ متفق واياي ؟

قلت بالطبع . ان معظم المواد دون مستوى النشر ، وتنشر امابسبب علاقات خاصة بهدف تبادل المنافع ، او بسبب اوامر غامضة تأتي من جهات مجهولة . اننا ، بصراحة ، نفاجأ بالمواد المنشورة ، لأننا لم نطلع عليها ، ولم نقرها .

اندهشت لأن ماقلته لم ينل استحسان المدير العام . اصغى الي وهو مقطب ثم توجه بحديثه الى الآخرين . قال :

ـ لماذا لم تفكروا باصدار عدد خاص عن البيان السياسي للمؤتمر القطري الثامن للحزب ؟ دراسات شاملة عنه تكشف . . .

لاحظت ان الجميع قد فوجئوا ، ولكنهم اختاروا الايعلقوا بشيء . اكتفوا باحناء رؤوسهم . قاطعت المدير قبل ان يتم كلامه ، وقلت :

ـ بس المجلة ادبية .

احنى رأسه وحدّق في وجهي ثم قال ببطء ، دون ان تغادر نظراته وجهي :

ـ البيان السياسي فيه جانب ادبي كبير . موافق ؟

قلت :

ـ مش موافق .

قال بعصبية كشفت عن وجهه الآخر :

ـ مش موافق ، يعني شنهو ؟ تريد تقول ان البيان السياسي ماله قيمة ؟

كان واضحاً انه يهددني . قلت ، ان له قيمة بالطبع . ولكنها ليست قيمة ادبية . يعني ، مثلاً ، قد تكون نظرية النسبية لاينشتاين عملاً فيزيائياً عبقرياً ، بل هي كذلك بالفعل ، ولكن هل يمكن دراستها باعتبارها رواية ؟

قال :

ـ إش دعوه استاذ نقيت اينشتاين اليهودي ؟ ايه نسيت انك ماركسي ، وماركس يهودي .

واخذ يضحك ليزيل الحدة من كلامه ، عندها ادركت مدى حكمة زملائي حين اختاروا الصمت . اذ لم يكن هنالك جدوى من النقاش.وقدّرت ان المدير كان يريدنا ان نصل الى هذه النتيجة ، وهي ان نشعر ان لاجدوى من مناقشته .

عندما خرجنا لم ينظر إحد منا الى الآخر ، اويعلق على الحديث الذي دار . لااحد منا اخذ ماقاله المدير مأخذ الجد ، فما داعي الحديث والنقاش ، خاصة ونحن نعلم ان مايقال يصل الى اسماع المسئولين من خلال مسارب يصعب تحديدها .

ـ ٩ ـ

على عكس توقعي ، مر الوقت سريعاً ، كأنه غافلني ، ووضعني في قلب الموقف دون ان اتهيأ له . جلست في الباص بجوار سهام ـ وقد تم كل شيء باسرع واسهل مما تصورت ـ وانا اعاني ذلك الخوف اليائس ، الذي يجعلني قادراً على المجازفة دون تردد . لم يعد هنالك مايمنعني من تنفيذ ماعزمت عليه ، فكل شيء سار بشكل طبيعي . غير انني كنت اشعر ان هنالك خطأ ما ، نقصاً في الاعداد للمسألة لم استطع تحديده .

انطلق بنا الباص من ميدان المعظم ، وقد منعني التوتر من توجيه كلمة واحدة اليها . كنت ، خلال سير الباص بنا اتجنب الالتصاق بها ، وحركة السيارة تدفعني الى ذلك دفعاً حين يدور في المنحنيات . وفي حين كانت هي تسمح لكتفها ان يلتصق

بكتفي في المنحنيات ، دون ان تبذل مجهوداً لمنع ذلك ، كنت اجلس متصلباً ، ممسكا بيدي الاثنتين بالمقعد الذي امامي .

يبدو انني كنت مرتبكاً اكثر مما كنت اتصور . فعندما اقترب الجابي مني ، رأيتني اخرج الورقة التي كنت انوي اعطاءها لسهام واضعها في يد الجابي . نظر الجابي الى الورقة التي طويت عدة مرات فاصبحت صغيرة الحجم ، وعلى وجهه تعبير دهشة وتساؤل ، وحاول ان يفتحها . ولكنني خطفتها من يده ، ومددت له درهماً بدلاً منها ، وقلت :

ـ بطاقتين .

نزع البطاقتين ومدهما لي ، ومعهما الفلوس العشرة المتبقية . لاحظت ان سهام تبتسم دون ان تنظر الي (أتسخر مني ام تبتسم تواطؤاً ؟) . جذب انتباهي في تلك اللحظة انها لم تحاول ان تخرج فلوساً ثمناً للبطاقة ، وكأنها اقرت بانني سوف ادفع عنها ، وبان ما بيننا يسمح بذلك .

وضعت البطاقة والرسالة في يدها ، فتناولتهما بشكل طبيعي تماماً ، ووضعتهما في الجيب الصغير لقميصها ، الذي يعلو ثديها الايسر ، ثم التفت الي وقالت :

ـ مرسي .

ثم ادارت وجهها الى الشباك وابتسامة خفيفة ، لا تكاد تلحظ على شفتيها خطر لي فجأة : انها قالت كلمة لا تستعمل في العراق « مرسي » ، أتكون مصرية ؟ ولكن هل يعقل ذلك ؟

وقف الباص في المحطة التي تنزل فيها عادة ، فنهضت وقالت :

ـ في امان الله .

ـ في امان الله .

حاذرت بجهد حقيقي ان اجعل عيني تلتقي بعينها وهي تواجهني في هبوطها من الطابق الثاني للباص الى الطابق الاول . ولكن المرح المنضبط في وجهها ، تلمك الابتسامة الداخلية التي تشع بتلقائية ، كانا رسالة شديدة الوضوح .

اكتشفت انها ليست من النوع الذي يخاف الآخرين ، او يهتم بمراعاة التقاليد الاجتماعية . فاجأني دلك واخافني قليلاً . في صباح اليوم التالي دخلت حجرتي واضأت النور . رأيتها تقف في الممر خارج حجرتها ، وعندما التقت عيناها شاهدتها تتجه الى حجرتي ثم تدخل اليها . خيّل الي انها قادمة لتثير فضيحة . القت تحية

وطمأنينة ، لايقول شيئاً ، يقول اشياء طيبة ، انيسة ، ، وحلوة ، ولكنه لايجيب على سؤالي . بعد فترة من التوتر اركن الى الضوء ، مستمتعاً بغيضه ، ارتوي منه واطلب المزيد وانسى رغبتي الملتاثة في ان احسم المسألة .

وكعمل اضافي - إن صحت العبارة - بحثت جاهداً عن اسمها . لم يكن ذلك سهلاً ، خاصة وانا اتجنب اثارة الشكوك . كان مصدر الصعوبة في معرفة اسمها ، هو تحديد الفتاة المعينة . هل اقول انها تلك الفتاة ، التي تبادلني النظرات طيلة الوقت ؟ ولكن ذلك ، رغم وضوحه ، سر بيننا . هل اقول ، انها تلك الفتاة ، ذات العينين السوداوين - الذهبيتين (فعلاً ، **مالون** عينيها ؟) وذلك القوام الانيق المتماسك ، كأن منحوت ؛ والتي تسير بطلاقة فراشة ولها طلعة ملكة ؟ ولكن هذا يصف عشقي . وهذا ما يجب ان اخفيه . خطر لي ، بشيء من **الحدس** ، ان اسمها ليلى . قلت لنفسي : ليلى اسم كل معشوقة **وحدسي** خاطيء . سمعت اسم سهام يتردد . نادت فتاة :

- عيني ، سهام !

رأيت ساقين تتحركان ، وساقين غيرهما يسيران في الاتجاه المعاكس . ثم خيلَّ لي : هذا هو اسمها . لابد ان يكون اسمها . سهام ؟ ولم لا ؟

ومن هنا كانت بداية الاحداث العجيبة التي تلت ذلك ؟

★★★

كيف امتلكت الجرأة على اتخاذ قرار كهذا ؟

واقع الامر ان اختفاء سهام خلف مستطيلات الكرتون الاسود جعلني في حالة **توتر دائمة ليس من السهل - صدقوني - التعرف على امرأة عن مجرد مشاهدة ساقيها**

هدان الساقان ونصف العجيزة - جزء ميت من الجسد حين يشاهد منفصلاً . يصبح مجرد عامودين يتتابعان او يتوقفان . او ينطويان بحركة ميكانيكية تتوالى حركة العامودين : شمال - يمين - شمال يمين . . ثم يتوقفان ثم يواصلان السير . . ثم يثبتان امام كرسي . ينطويان من منتصفهما بشكل فجائي . ويتكوَّر الجزء الاعلى منهما الذي يشكل العجيزة ، التي تهبط ببطء ، وكأن قوة مغناطيسية تجذبها الى اسفل .

لايبقى امامي سوى جزء ضيق ، مستطيل من الجسد ـ قطاع عرضي من العجيزة ـ تظهر لي من فتحة مسند الكرسي الذي تجلس عليه الفتاة .

هل يمكن تمييز انسان على هذا النحو ؟

كما قلت منذ قليل ، هذا جزء آلي ميت من الجسد ، يستمد حياته وجماله واغواءه من الجسد ككل . والجسد المتكامل لا يمنحه الحياة والجمال فقط ، ولكنه ايضا يشحنه بذلك التيار من الدفق الجنسي ، ويعيده الى الكائنات العضوية بعد ان يستنفذ من الآلية الميكانيكية .

لم يكن ذلك مصدر ارهاقي الوحيد . كان ضوء النهار في السابق يأتي حجرتي التي بلا نوافذ ، عبر الشبابيك الواسعة لحجرة الفتيات . كان ضوء النهار ، رغم عبور الحاجزين الزجاجيين حتى يصل حجرتي ، يدخلها وهو ما يزال في زهوته . ولكن الحاجز الكرتوني الاسود جعل حجرتي في ظلمة دائمة . اصبح النيون المشتعل في حجرتي يشعرني بأنه يضيء مكاناً ليلياً . انتهى الاحساس بان ما في حجرتي هو عتمة النهار ، التي يعيدها الضوء الكهربائي الى النهار ـ بل اصبحت عتمة الليل التي يستنقذ النيون المكان منها ليعيده من الغياب الى الحضور .

كان ذلك مقبضاً للكآبه . اصبحت اعيش ليلين . ففي حين يضيع ما تبقى من ضوء النهار في نوم بعد الظهيرة الطويل . الذي اصبح لاغنى لى عنه . اصبح النهار بالنسبة لي هو ذلك الانتظار الثقيل للباص ، الذي لا يأتي ، واصبح صهد الظهيرة وانا عائد الى البيت بعد انتهاء الدوام . تحولت بغداد بالنسبة لي الى ليل دائم !

حين استغرق في الكتابة اصل الى اللحظة التي اتوقف فيها قليلاً ارجع رأسي لاعيش لحظات مع ذات العينين الذهبيتين . افاجأ بمستطيلات الكرتون السوداء اشعر للحظة عابرة ان هنالك خطأ ما احداً يقف على بابي ، ثم اتذكر . فأمتلىء غيظاً واصمت . الشكوى للزملاء لاتأتي براحة . ان لهم مشاكلهم هم ايضاً . وبعضهم قد يضمّن شكواي تقريراً يرفعه الى الجهات الامنية ، وذلك سوف يسبب في مصاعب حقيقية .

اظل هكذا ، محاولاً ان اتسلى بمراقبة السيقان في حركتها ـ وهي ترسم خطوطاً على ارض الحجرة المقابلة لي ، يبدو انني اعاني نقصاً في القدرة على تحديد المسافات . اشاهد فتاة ـ ساقان ونصف عجيزة ـ تأتي من اتجاه ، واخرى تأتي من

الاتجاه المضاد . اقدر انهما سيصطدمان . تغيب احداهما خلف الاخرى ثم اراهما يتباعدان . في بعض الاحيان ان الساقين ونصف العجيزة تعود الى الوراء ، فاشتاق ان ارى ذلك والفتاة **بكامل** جسدها . ثم يتضح لي بعد قليل ان الفتاة تسير الى الامام .

خلال ذلك كنت اشعر ان تلك الحركات لا معنى لها ، ولاهدف . سير طويل او قصير ينتهي دائماً دون توقع . تضجرني في هذه الحركة العشوائية فاعود الى الكتابة ولكن الملل يدركني سريعاً ، فانهض واتمشى في الممر الفاصل بين الحجرات .

كان ذلك يشبه ما يحدث لي في الليل . فحين ترهقني الكتابة اصعد الى سطح البيت الذي اسكن فيه . واتمشى لوقت طويل . غير ان الفارق بين **المسيرتين** كبير . المسيرة على سطح البيت كانت تضعني تحت السماء والنجوم مباشرة ، في وسط بغداد ـ البستان ، حيث يشيع العطر المسكر لزهر القدّاح ، **الشبيه** بعطر الياسمين ، وحيث نسيم الليل الجاف ثقيلاً وحرّيفاً كالنبيذ . وعن بعد تبدو لمحات من نساء عبر نوافذ مضاءة ، او في وسط حديقة منسقة . كان ذلك يرفعني الى حلم يقظة اعيش فيه بغداد عباسية .

اما هنا فكنت كأنني اسير في قبو تحت الارض

يضاف الى ذلك الضيق الذي تسببه لي دهشة زملائي الموظفين من هذه المسيرة المعتمة ـ أم هم يتظاهرون بالدهشة ؟ ـ التي تعكس ريبتهم القائمة ابدا خلف ابتساماتهم .

كان تكرار ما يحدث لي في الليل نهاراً وعلى هذا النحو المقبض يسبب لي ضجراً يتحول الى احساس بالاختناق .

ثم اتخذت ذلك القرار .

كنت **اؤ جل تنفيذه اليوم بعد اليوم فيزيدني في ذلك احساساً بالعجز . احتفظ بالورقة في جيبي ، وعند اللحظة الحاسمة ، اقول لنفسي : هل تعود ـ في هذا السن ـ الى مرحلة المراهقة ؟ الى تبادل النظرات عبر الشبابيك ، وارسال القبلات في الهواء ، وكتابة المواعيد على ورقة ، ونلفها حول قطعة حجر ونقذفها عبر شباك طابة الثانوي ؟**

ثم خطرت لي الفكرة التالية : لست انا الذي انكص الى مرحلة المراهقة بل **اهذه** المدينة هي التي تعود بي الى الخلف

عندها اتخذت قراري . فلقد كانت تستعمل نفس الباص ، الذي اعود به الى البيت حين لااستعمل سيارة اجرة . قررت ان اتبعها حتى تركب الباص . سوف اركب الباص . قبلها واحجز لها مكاناً بجواري . ثم سادعوها علاني وبوضوح ان تجلس بجواري . عندها سوف اضع الرسالة في يدها

كانت الرسالة تقول ان من المستحيل ان تستمر الامور على هذا النحو يجب ان اراك وابحث معك امراً هاماً جداً . (كدت ان اضيف ان المسألة تتعلق بمستقبلنا نحن الاثنين ، ولكنني رأيت الا استعجل الامور وقلت **انه** لامجال للتفصيل الآن ، ولكننا سوف نتحدث طويلاً . ثم كتبت لها عنواني بوضوح ورسمت لها خارطة تبيّن مكان البيت .

الواقع انني اعدت كتابة هذه الرسالة عدة مرات ، وفعلت نفس الشيء بالنسبة للخارطة . ففي كل مرة كان يخيل الي ان الرسالة ليست واضحة تماماً وان الخارطة لم تكن رقيقة وان هنالك امكانية اللبس واردة ، فاعيد الكتابة والرسم من جديد . ولم يكن النص الاخير هو اكمل النصوص ، ولكنني شعرت باليأس من التوصل الى رسالة وخارطة لااعتراض لي عليهما .

وهكذا حسمت الامر ، وقررت ان انفذ خطتي هذا اليوم . وفي تلك اللحظة دقّ جرس التليفون . كان هنالك صوت امرأة (اتكون سهام ؟ كدت ان اصرخ : سهام ؟ أهذا انت ؟) . كانت المتكلمة سكرتيرة المدير العام . قالت ان المدير العام الجديد يطلب الاجتماع باسرة تحرير المجلة في الساعة الحادية عشرة .

ـ ٨ ـ

لم اكن خالي الذهن عن شخصية المدير الجديد ، وعن الاسباب التي جاءت به . فقد لاحظنا أن المدير السابق اخذ يتغيب كثيراً . وعندما نلتقي به كان يبدو وديعاً وكثير الشرود . قابلته يوماً في الممر . رد على تحيتي بحماس ، وصافحني ، ثم سألني :

ـ إش وكت رجعت من السفر .

وعندما قلت انني لم اسافر استدار مسرعاً الى حجرته ، وقال :

ـ ايه هذيك راجحة .

الصباح ، فرددت بصوت حاولت ان يكون طبيعياً . قالت بعد ان جلست بصوت واضح ، خال من التوتر :

ـ الرسالة وصلت .

قالتها باللهجة المصرية . هل هي مصرية ، ام انها تصطنع هذه اللهجة من اجلي كانت تلقي الي نظرة غريبة ، نظرة ضاحكة ، متواطئة ، لم استطع تفسيرها الا فيما بعد . قلت :

ـ ما انا عارف انها وصلت .

ارتسمت دهشة حقيقية على وجهها . اضفت موضّحاً :

ـ ما انا سلمتها لك في ايدك .

ضحكت سهام واغرقت في الضحك . لم يكن لضحكها ، آنذاك ، معنى محدداً بالنسبة لي . توقفت عن الضحك ، واخذت تسوّي شعرها . قلت :

ـ الموعد تمام ؟

قالت :

ـ تمام .

مفخّمة (ألف) التمام ، في محاولة للسخرية من لهجتي العراقية . سألتها ، كيف دخلت حجرتي مع وجود الامر بمنع «بنات المكتبة من الكلام مع اولاد الثقافة » ، انفجرت ضاحكة . كانت ضحكتها طلقة ، صافية . لم يكن ينقصها حسن الفكاهة .

قالت والضحك مازال في وجهها :

ـ المدير هذا مخبّل .

واخذت تروي لي حكايات عن مدير المكتبة . قالت انه اصيب بحالة هياج عصبي عنيف ، عندما علم ان احدى الفتيات المحشورات في مكتبه دون عمل حقيقي تنوي الزواج من ابن خالتها . لقد تشنج المدير وامرها الاتتزوجه .

ـ امرها ؟

قالت :

ـ مثل ما اقول لك . امرها .

واضافت ان المدير يصاب بنوبات تشنج واغماء كلما تناقش مع الفتاة في هذا الموضوع . قلت :

ـ واضح انه بيحبها وعايز يتجوزها .

قالت سهام ان المدير متزوج ، ولكن هذا شأنه مع كل الفتيات اللواتي يعملن في مكتبه . واضافت ان المدير اقسم للفتاة انها اذا تخلت عن ابن خالتها ، فسوف يجد لها عريساً مناسباً اكثر منه بالف مرة .

ـ الف مرة ؟

قالت وهي تبتسم بسمتها المشرقة :

ـ ايه ، الف مرة .

قلت : .

ـ والباقيات ؟

انهن يضحكن على المدير وبعضهن يشفق عليه . اتعرف سناء ؟ الفتاة السمينة التي تجلس قرب باب مكتب المدير ؟ انها اكثرهن اشفاقاً عليه . عندما يصاب بحالة اغماء ، وذلك يحدث كثيراً ، تحمله وتضعه على الصوفا الواسعة ، وتضع رأسه على حجرها ، وتبلل وجهه بالماء ، وتداعب شعره ، وتقول للفتيات الضاحكات :

ـ عيب يابنات . تريدن تخبلن الولد ؟

واضافت سهام ان نداء ، وهي الفتاة التي سوف تتزوج ابن خالتها ، جعلت المدير اضحوكة الجميع . انها تحاول اقناعه ان الفتاة من فتيات مكتبه مسيحية تنوي الزواج من شيوعي مسلم . ونداء ، ايضاً ، عندما يغمى على المدير تمد اصبعها وتعبث بانف المدير ، واحيانا تزغزغ ابطيه . وسرقت مرة كتابه الطبي وارتنا اياه .

ـ اي كتاب ؟

قلت . قالت انه كتاب طبي مذكور فيه ان الزواج بالاقارب يسبب اضرار للنسل . سألتها إن كان مدير المكتبة قد صدق حكاية زواج الفتاة المسيحية بالشيوعي المسلم ، فقالت انه صدّقها بالطبع . انه يصدق كل ما يقال له .

ثم حكت لي عن نوال ومدير المكتبه . ونوال فتاة شديدة السذاجة ، لها وجه صغير ، مضحك ، جميل جمال وجه الدمية : انف صغير وشفتان رقيقتان ، وعينان سوداوان ذات رموش سوداء كثيفة . وجنتاها البارزتان تضفيان على وجهها مسحة يابانية . قالت ان مدير المكتبة يأتي يومياً ويقف امام مكتبها ، فترفع رأسها وتصرخ في وجهه :

ـ ما يرضون ! ما يرضون !

يصبح وجه المدير احمر كالطماطم الناضجة ، ويزداد اقتراباً منها ، وهو متكيء بيديه على طرف مكتبها ، ثم يأخذ يهمس لها . تزداد نوال انفعالاً ، وتصيح :

ـ شلون زمال هذا !

يقترب برأسه اكثر من وجه الفتاة ، ويقول بصوت مرتعش :

ـ على كيفچ عيني نوال ، على كيفچ .

وتردد نوال :

ـ اقول مايرضون .

ـ مثل ما تشوفي .

وعندما يبتعد ، وقبل ان يخرج من الحجرة تقول : « قز القرط » سألت سهام عن معنى قز القرط ، قالت :

ـ مثل ما تقولوا في مصر ياسم .

قالت ان ذلك يتكرر يومياً . والسبب انه يطالب نوال بتجنيد عضوات جديدات للحزب ، فتدور الفتاة على الحجرات التي تتواجد فيها فتيات ، وتقف بباب الحجرة ، وتنادي بصوت طفلي مسرسع :

ـ من منكن يا بنات تريد تنضم للحزب ؟

فيعلو ضحك البنات وتكرر نوال :

ـ دي قولن !

قلت لها :

ـ انت عضوة في الحزب ؟

نظرت الي طويلاً ، وقد اكتسب وجهها تعبيراً جاداً ، وقوراً ، ثم قالت بحسم

ـ لا .

قلت ان هنالك وسائل أخرى ، يجندون بها اعضاء للحزب . مثلاً الزجاجة ، المهشمة الحواف ، التي يرغمون المعترض على دخول الحزب ان يجلس عليها ، وادخالها في مؤخرته . انخطف لونها ؛ ولكنها قاربت مابين حاجبيها وقالت :

ـ نحن مستعدون لكل شيء . . !

ثم ابتسمت ، وقالت :

ـ ماذا تكتب الآن ؟

اكتشفت انها قارئة جيدة . تحدثنا بعض الوقت عن الكتب والادباء قالت انها لاتحب روايات نجيب محفوظ الاخيرة ، او هي على الاقل تفضل رواياته الاولى .

بعــد ذلـك ودعتني وخـرجت برشـاقـة راقصـة باليـه اجتـاحت الممـر ودخلت حجرتها . كنت اعلم ان هذه اللحظات التي قضيتها مع سهام سوف تعيش معي في ايـامي المقبلة . ستصبـح ، منـذ السـاعةواحدة من ذخر الذكريات ، التي تضيء في ساعــات اليأس . كانت لحظــة تطهــير ، احسست بنفسي بعــدهـا خفيف طلق الحـركـة ، جسوراً . اكتشفت بعد خروج سهام ان ذلك الثقل في حركتي ذلك الحذر الذي يجعلني اسير بخشية وكأن العالم من حولي مصنوع زجاج هش ، تلك الآلام ، التي تصاحب نهوضي من وراء المكتب ، وانحنائي لالتقاط شيء ما من الارض ، آلام العنق التي اشعر بها حين استرخي في كرسي مريح ، لم تكن الاما جسدية ، بل نتاج الخوف الكامن في عظامي .

ادركت ، لحظتهــا ، بحـدس فاجأني وادهشني انني شاركت في صنـاعـة هذا الخـوف عنـدمـا تجنبت الصدام والمواجهة ، واخترت الانزواء والانصراف الى القراءة والكتابة ، وعندما قبلت بالامر الواقع اعتماداً على من كانوا يرون اننا نعيش في احسن العوالم الممكنة .

وفي تلك اللحظــة شعـرت بالآلام التي ولّـدهـا الخـوف تتـلاشى في نشـوة من الاستمتاع اللذيذ . « انه الحب » قلت لنفسي ، باعتزاز وفرح .

الحرية التي رافقت الحضور الفاتن ، الذكي لتلك الفتاة وهي تدخل الحجرة ، وهي تجلس امامي دون تحرج او خوف ، وهي تسخر بخفة دم من مديرها متحدية جو الـرعب الـذي يخيم على المكـان . . . حضـور فتـاة تعيش قيم المرأة الثورية ، التي لم تنتهـك بالتكتيـك المنـاور ، الخـانـع . . . كل ذلك ملأني باحساس بغنى الوجود ، وبخصوبة القيـم الايجـابيـة للجسـارة . اصبحت قادراً على الحركة الحرة دون ذلك الحساب المجهد والنفعي والمسكين للعواقب .

انه الحب !

لهذا اخـذت انتظـر لقـائي بها كحـدث سوف يغـير مجرى حيـاتي . لن تكون خائفـة مرتعشـة وهي تدق جرس البـاب . . . لن تنظر حولها بخشية قبل ان تمرق من الباب الخارجي الى الحديقة .

- ١٠ -

كان الموعد في العاشرة صباحا . اخذ القلق يستولي علي ابتداء من التاسعة . اخذت افقد بالتدريج تلك الشحنة من الجسارة ، التي منحتني اياها سهام .

الخوف غير المحدد اشعرني بتوتر ملهوف يشبه الاختناق . دائماً تحدث ، هنا ، اشياء غير متوقعة ، ولا منطق لها ، تنتهي بك الى خوف يصبح طبيعة ثانية لك ، خوف يستقر في عظامك فتحسبه التهاباً في المفاصل ، اوبداية انزلاق غضروفي ، او لتوهم انك مصاب بضيق في التنفس .

منذ ثلاثة شهور كنت سهراناً في فندق دار السلام مع عدد من المشاركين في ندوة لممسرحيين العرب انعقدت تحت اشراف الجامعة العربية في بغداد . انصرفت حوالي لساعة الثانية عشرة . ركبت سيارة اجرة ، وكان السائق من النوع المريح . طلب جرة معقولة ، فلم افاصله ؛ وكان طيلة الطريق صامتاً . ومعنى ذلك انه لن يفاجأني ي منتصف الطريق ـ وهذا يحدث كثيراً ـ بقوله انه ظن ان ساحة الطبقجلي هي ساحة لتحرير ولذا يجب مضاعفة الكروة . بالاضافة الى ذلك كان سائقاً ماهراً وحساساً . م يحاول ان يسابق سيارات السكارى ، اويشتم سائقاً يعترض طريقه ، ولم يمل سيارته لقتل قطة عابرة .

لذلك كنت مسترخياً ، وشاعراً بالاطمئنان ، وافكاري من النوع الطيب ، لمحب للعالم ، خاصة بعد ان اتيحت لي فرصة الحديث مع اناس لايفترضون فيّ سوء النية ، ويفهمون ماتقول على وجهه الصحيح . ثم ، ونحن نميل الى الشارع المحاذي لشارع بلال الحبشي ، حيث يوجد بيتي ، وقفت سيارة في عرض الطريق ، فارغمتنا على التوقف . انفتحت ابواب الاربعة وهبط منها ستة اشخاص يصوبون نحونا ستة رشاشات قصيرة . ومن لامكان ، جاء ستة آخرون ، يحملون نفس الطراز من الرشاشات يصوبونها نحونا . كانوا يصرخون :

ـ جايبه من ملهى ! جايبه من ملهى !

كان السائق متماسكاً . قال بهدوء :

ـ لا والله ، خوي ، جبته من الشارع

صرخ احدهم :

ـ من الشارع ؟ قلت من الشارع ؟

خطـر لي ان اسألهـم : من اين تفـترضـون أن اركب سيـارة اجـرة من دار لبيت ؟ . . ولكنني اخترت الصمت .

كانـوا يرتـدون ملابس غريبـة : بذلات صفـراء ، وكـوفيـات صفـراء صغيرة لحجم . اذكـر واحـداً منهم ، بدا وجهـه في ضوء مصباح الشارع نحيلاً ، يحمل آثار الجدري ، وبقعة صفراء لامعة بثدت كصديد سائل تحتل خده الايمن كله ـ أثر قبيح خلّفـه نوع من الـدمـامل يسمونه حبة بغداد ـ ؛ وكان وجهه اشد صفرة من ملابسه .

قلت له :

ـ ايه الحكاية ؟

توجّه الرجل ، ذو الوجه الاصفر نحو الآخرين ، وقال :

ـ هذا يقول : ايه الحكاية ؟

قال شاب غليظ الملامح :

ـ هذا غير قواد هذا .

صدم احدهم كتفي برشاشة وقال لي ، هل يوجد احد يعود الى بيته في الساعة الثانية عشرة . قلت : انا !

صرخ بحنق :

ـ بالملاهي غير ؟

ركب احـدهم بجـواري ، فاصبحت بينـه وبـين السـائق . طلب مني بطاقتي الشخصية فأريته بطاقتي الصحفية ، فقال انه يريد أن يري جواز سفري . قلت لهم انـه في البيت ، فركب ثلاثـة منهم في المقعـد الخلفي للسيارة ، وهم يلصقون فوهات رشاشاتهم في اسفل عنقي ، وطلبوا الى السائق ان يتوجه الى بيتي .

كان السـائق من الفطنـة بحيث راح يقـود سيـارته ببطء ، وعيناه مركزتان على الطـريق من الـواضـح ان كان يخشى ماكنت اخشـاه : ان تنطلق رشـاشاتهم عند أي اهتـزاز عنيف ، فمن سوء الحـظ ان الثـلاثـة الذين في الخلف كانوا يضعون سباباتهم على الزناد .

لكزني احدهم بكتفي وقال انه يجب علي الا اعتقد انهم سيكتفون بهذا القدر . بل سيظلون واقفـين امـام باب البيت ، حتى تأتي « البنيـة » من الملهى . قال انهم

يعرفون انني تواعدت معها .

ـ وبعدين ؟

رغم كل شيء لم استطع اخذ المسألة بجدية . قلت لنفسي : انهم مجرد حثالات ـ مكبوتة جنسياً ، يمتلكون قدراً من السلطة . قال الرجل ، موجهاً كلامه الى الآخرين :

ـ هذا يقول وبعدين ؟

صرخ احدهم :

ـ هذا موشغلك : نسوّي اللي نسوّيه .

ثم حدث امر غير متوقع . فحين توقفت السيارتان امام باب البيت وقبل ان يهبط منهما احد ، اضاءت انوار الحديقة ، والمصباحان القائمان فوق البوابة الخارجية ، التي انفتحت وخرج منها ايوب . كان يرتدي بنطلون بيجاما ، وقميصاً مفتوح الازرار ، ظهر منه صدره العريض المشعر ، وبطنه .

وماعجزت عن التوصل الى تفسير مناسب له هو : كيف عرف بما حدث لي ؟ وماالذي جعله يخرج في الوقت المناسب ؟

نظر ايوب داخل السيارة ، وصرخ بلهجة امرة :

ـ ايش هذا ياكلاب ؟

ثم فتح الباب الخلفي للسيارة وصاح بنفس الصرخة الآمرة :

ـ نزّل ، نزّل رشاشك انت واياه ، وانزل ياغالب .

دهشت حقيقة عندما احسست بالرشاشات تبتعد عن عنقي ، وبالرجال يهبطون من سيارة الاجرة . نقدت السائق اجرته وشكرته . امسك ايوب بالرجل الذي كان يجلس بجواري ، وهزه بعنف وهو يردد : « كلب ، منحط » ثم دفعه بقوة خارقة . اصطدم الرجل بآخر يقف خلفه ، فسقطا على الارض سوياً نهضا بسرعة وهرولا مبتعدين ، وغابا في الظلام . كان ايوب يتوعد بانه سوف يسحقهم ، كما يسحق الحشرات الحقيرة عندما امسك بالثالث من حزامه ورفعه عالياً والقى به على الارض . تدحرج الرجل قليلاً ثم نهض واخذ يعدو،السيارة التي كانت تقل الستة الاخرين ابتعدت ببطء ، ثم زادت من سرعتها واختفت .

ظل الرجل ، ذو الوجه الاصفر واقفاً مكانه . كان يطالع ايوب بعينين لامعتين وفم مفتوح . سألت نفسي : هل تقع الكارثة الآن ؟ بدا الرجل مصمماً على ان

لايتراجع . اقترب ايوب منه وهو يتفحصه ، وقبل ان يتمكن من الامساك به اخذ الرجل يتراجع ببطء إلى الوراء ، وهو يحدّق بايوب ويقول :

ـ على كيفك استاذ ، على كيفك . . .

قفز ايوب عالياً ـ قفز اوطار في حقيقة الامر قفزة لاعب الكاراتيه المتمرس ـ فانطلق الرجل يعدو ؛ ولكن ايوب استطاع ان يناله بقدمه ، في عجيزته ، وبدت الضربة وكأنها هي التي دفعت الرجل الى العدو . صرخت خلفه :

ـ البنيه ، خوي ، ماتريد تستنظرها !

استطعت ان اميزه في الظلام وهو يتوقف فجأة ، وينظر خلفه ، ثم يواصل العدو .

في الداخل ، كان ايوب **مهتاجاً** الى اقصى حد .اخذ يلوم نفسه بصوت **يخالطه** البكاء ؛ وبصوته ذاك مع وقوفه ممدود الذراعين ، شاخص النظرة الى السقف كان يبدو ممثلاً شديد الاقناع . كان يقول انه كان عليه ان يجردهم من اسلحتهم ، ويحطم **عظامهم ، ويطلقهم بعد ان يخلع عنهم سراويلهم والبستهم . كان عليه ان يريهم بغداد** كلها وهم يهربون بعجيزات عارية . . . بل كان عليه ان يضع زجاجة مهشمة العنق في عجيزة كل واحد منهم . . « زجاجة ، مهشمة العنق في . . . » قلت . لم يكن يسمعني . بدا بطلاً اسطورياً متعالياً على الحوار ، بطلاً اتخذ قراره واخذ يحاور نفسه .

التفت الي فجأة وقال :

ـ وانت ليش تسكت إلهم ؟

لم يكن ينتظر اجابة مني . ماذا كان بامكاني ان أجيب على اية حال ؟ ومضى ايوب يقول انه منذ زمن بعيد وهو ينتظر شيئاً كهذا ،**مواجهه** كهذه . كان لابد من وقوعها . . . هؤلاء السفلة يتراكضون طيلة الوقت في الشارع والازقة المحيطة بالبيت وهم يصرخون : اطفئوا النور . . . اطفال عابثون ، اولاد زواني يحتاجون الى من يؤدبهم ويكسر انوفهم ويجعلهم مماسح للارض .

في تلك الليلة لم ينم ايوب حتى الصباح . كنت اسمعه يذرع حجرته ، احياناً يعدو واحياناً اخرى يقفز كالحصان ، مواصلاً شتائمه وتهديداته . لم املك الجرأة فادعوه للهدوء .

لم يكن هذا الحادث فريداً من نوعه . كل يوم ، تقريباً يحدث شيء يؤكد هذا

الخـوف ويجعله يتحـول الى جزء عضـوي من الجسـد ، يشتبـك مع اللحم والعظم والاعصـاب لقـد توقفت عن جولاتي الليليـة ، وملأت الثـلاجـة بالاطعمـة ـ فقـد استـولى علي هوس اكتنـاز الاطعمـة حتى لااضطـر للخـروج ليلاً لتناول العشاء .

كنت في البـدايـة اتنـاول عشـائي في مطعم بسـاحـة الطبقجلي يقدم المشويات : لحم الغنم المشـوي ، كلاوي ، كبـدة ، قلوب غنم . ولكنـه تكـرر اكثر من مرة ، وانا في طريق عودتي الى البيت ، ان تتبعني سيارة يركبها عدد من رجال الشرطة ، فتحاذيني وتطلب مني التـوقف . ويسألني صوت مشحـون بالعـداء ، بارد ، خشن عن سبب خروجي بالليـل ، وعن الجهـة التي قدمت منهـا والمكـان الـذي اذهب اليـه . ومهمـا حاولت ان اضبط صوتي فانه يخرج حاملاً رعشة الخوف . يطلب مني الصوت ان اريه هويتي . البطـاقـة الصحفيـة لاتعجبهم . فهـل احمل جواز سفري ، بحجمه الكبير كلما ذهبت الى العشـاء ؟ جيب القميص لايتسـع له ، ومن المستحيـل ان البس حلة كاملة في هذا الحر القاتل ، لمجرد ان اضع جواز السفر في داخلها . ان فكرة الخروج في ذاتها تنطوي على التخلص من جو البيت المقبض .

هذا كنت ، كلما خطر لي ان اخرج لتناول العشاء ، احس بالخوف يسري بارد في عمودي الفقري ، فاكتفي بأي طعام اجده في الثلاجة .

اما بالنسبة للمرأة فلقد كانت المسألة تثير الفزع حقاً . فلم يتوقف الامنذ وقت قريب ذلـك المشهـد الـذي ينقلك الى جو الكوابيس : مشهد رجال الشرطة يحملون جرادل مملوءة بالصبغـة السـوداء ، والفـرشـايـات ، يستوقفون النساء اللواتي يرتدين ملابس قصيرة ، ويدهنون سيقانهن بالصبغة السوداء تكون المرأة واقفة تطالع احدى الفتر ينات ، فتفاجأ بالشرطي ينحني على ساقيها ليباشر تلك المهمة الغريبة . احدى النساء جعلتها المفاجأة تقفز من الرصيف الى الشارع ؛ صدمتها سيارة مسرعة فماتت على الفور . واخريات كن يصبن بحالة هستير ية ينقلن على اثرها الى المستشفى

واحـداث أخـرى شد غرابـة . فكـل رجـل يسـير مع امرأة في الشارع معرّض لاستجـوابـات رجـال الامن ، الـذين يقـودونـه الى اقـرب قسم للشـرطة ، وهنالك يطـالبـونـه ان يثبت ان صلة عائلية تربطه بالفتاة ، وحين يعجز عن اثبات تلك الصلة ينـال الاثنـان نصيبهما الوافر من الضرب والاهانات ، وتستدعى عائلة الفتاةلاستلامها

اما الشاب فيحلقون شعره ، ويضعونه في سيارة مكشوفة ، تسير في الشوارع ببطء ، وخلال ذلك يتناوب رجال الشرطة ضربه وتوجيه الاهانات له .

حكى لي احـد الاصـدقـاء ان رجـال الامن قادوه ، هو وزوجتـه ، الى قسم الشـرطـة اثبت لهم انهـا زوجتـه بابراز البطاقة العائلية ، ولكنهم طالبوه ان يثبت انه لم يطلقها بعد ولقد عرفت بخبرتي ان دوافع هذه الملاحقات هي رغبة رجل السلطة في الاستئثـار بالنسـاء . ويبـدو ان ذلـك اصبـح جزءاً من تكوين الانسان في الدوائر التي احتك بها . ومثال مدير المكتبة هو مثال متطرف لانسان موجود بالفعل : فقد اجلس مع احد الزملاء في الكافتير يا . سوف اجده دمثاً ، وقد يصبح مرحاً في بعض الاحيان ثم اراقبـه حين تجلس فتـاة معنا . ان انساناً جديداً ، لم اكن اتصّور وجوده ، يتشكل امـام عيني . اراه وقـد تحوّل الى شخصيـة عدوانيـة ، تودان تمزقني وتستـولي على الفتاة . الفتاة لاتخصني ، ولايوجد اية امكانية لاستيلائه عليها ، ولكنه لا يستطيع ان يتصورها الاغنيمة لمنتصر .

عشرات الاحتمالات المخيفة كانت تتجسد في خيالي ، وانا جالس انتظر سهام كل واحد ينتهي بي وبها الى قسم الشرطة . عشت هذا التوتر رغم ان الساعة لم تبلغ العـاشـرة بعـد . كنت اداوم النظـر الى ساعتي . كانت حركتهـا بطيئه جداً . احياناً كنت اتخيل ان بها خللاً ، وفي احيان أخرى تصورت انها توقفت عن العمل .

انتهى بي الامـر الى الـوقـوف وراء باب المطبـخ ، اراقب من خلف جزئـه الـزجـاجي البـوابـة الخارجية وقطاعاً من الشارع . النساء العابرات ، الوان الملابس النسـائيـة السـودا والحمـراء والـزرقاء ،اصوات السيارات العابرة ، الاقدام ذات الوقع الخفيف ، اوذات الكعب العـالي المـوقـع كلهـا توحي بسهـام ، احس بها تعزم على الوقوف امام البوابة متخذة وجه سهام المشرق ، ولكنهاتعابثني قليلاً ، مثيرة في داخلي ترقبـاً ولهفـة حادتـين ، ثم تتحدد ، وتتمايز ، وتنفي سهام . للحظة كان يخيل الى ان واحدة منهن هي سهام ، وانها اخطأت في تحديد البيت .

فجأة ، وفي لحظـة من التـوهج العالي ، برزت امامي بوضوح فائق تلك البقع الـرمـاديـة القـائمـة ، المـرسومة على السور الكرتوني.كنت قد عزمت اكثر من مرة ان اقـترب منهـا ، واشعل ضوءاً قربها ، واطالعها . ولكنني لم افعل . كنت داءماً اؤ جل ذلـك . ثم ها انـا ذا اراهـا امـام عيني واضحـة ، وكأن بقعـة ضوء قد سلطت عليها وحده ، تاركة الاجزاء الاخرى من السور الكرتوني في العتمة .

كانت بعثـاً لصورة قديمـة احتفظت بها ذاكـرتي منـذ عهـد الطفـولة . كانت مرسـومـة على خشب بالالـوان القـائمـة للقـديس مار جرجيـوس . كان يرتدي خوذة

رومانية ودرعاً ، يجلس فوق حصانه ويسدد رمحه الى الاعماق السوداء لفم التنين ، وكان الرمح ينفذ من الفم ليبرز من اسفل البطن . البقعة الرمادية ، كما تبين لي في تلك اللحظة ، اعادة توزيع لعناصر تلك الايقونة.اصبح التنين نصيراً لمارجورجيوس . اما رمح القديس فقد توجه الى مجموعة من الاطفال ، من الذكور والاناث ، العراة . ويواصل الاطفال عبثهم البذيء رغم ان الرمح قد اخترق جسد كل واحد منهم ، مخلفاً فراغاً ، يخترق القلب ، وينفذ الى الظهر .

اما التنين ، فقد اشعل بالنار التي ينفثها من فمه شعر الاطفال ، فاصبح فوق كل رأس هالة احتراق يتلوى الشعر في داخلها كالافاعي . ومن مسدس القديس انطلقت رصاصات لتخترق كل الاجساد ، ورغم انها نفذت الى اللحم الطري فقد احتفظت بلونها الوردي .

مع كل هذا العذاب لم يتوقف الاطفال عن لعبتهم الجنسية ، التي يضاجعون فيها بعضهم وقوفاً باوضاع توحي بالشذوذ الجنسي .

هنالك تفصيل آخر . امرأة عجوز تقف تطل على المشهد كله ، شعرها الابيض طائر في الهواء ، وتشير بسبابتها السوداء ، المدببة الطرف كالمخلب اء الاطفال وتطالع القديس ببسمة اغواء غريبة . لقد بدت تلك المرأة بتقاطيع وجهها القوية شهوانية ، وبالطاقة التعبيرية الهائلة ، المختزنة في وجهها وفي حركة اليد والجسد كله مسيطرة على المشهد ومتحكمة فيه . انها ، وبسبب فجورها الجارف ، هي التي القت اوامرها الى التنين . واغوت القديس ودفعتها الى تلك المذبحة .

منذ متى وسهام تقف خلف البوابة تدق الجرس بالحاح ؟ يبدو ان بعض الوقت قد مر وانا اراها واسمع الجرس يدق دون ان افطن لدلالة ذلك.كنت مستغرقاً في استرجاع تفاصيل البقعة الرمادية . تبين لي في تلك اللحظة انني لم اعد ارغب في مجيئها . ولكنني فتحت باب المطبخ ، وسرت نحو البوابة الخارجية التي كان مفتوحة بالفعل ، فمرقت منا مسرعة لاهثة . لم تكن سهام ، بل الفتاة السمينة ، التي لاتكف عن الحركة داخل حجرة الفتيات المواجهة لغرفة مكتبي ، والتي كانت تجلس الى مكتب قريب من الحاجز الزجاجي مديرة لي ظهرها .

ماكاد السور الخارجي والشجر يحجباننا عن الشارع حتى احاطتني بذراعيها وهي تلهث وترتعش . همست : « خايفة » فاحطت عنقها بذراعي . كان رأسها

يلهث ويهمس في عنقي ، وثـديـاهـا الكبيران الصلبان يضغطان على صدري ، وانا اهمس لها :

- لاتخافي . خايفة من ايه ؟

وتهمس انهـا خائفـة ان يكـون احد قد راها ، انا اطمئنها . وتظل تضغط علي بجسـدهـا وانـا افتـح البـاب ، وفي المدخل فكت ازرار جاكتة البيجامة وأخذت تقبل صدري ، وهي تلهث وتهمهم . وخطـر لي ، انهـا بذلك تختصر خطوات قد تطول لو نها سلكت بشكل طبيعي منذ دخولها . وشعرت بالامتنان لاقتحامها . سرت بها نحو حجـرة المكتب ونحن متعـانقـين ، وكنـا نسير بصعـوبـة لأنها لم تكن تتخلى عني ولو لخطوات قليلة .

وعنـدمـا استطعت ان اجلس جلست على ساقي . . عرّت فخـذيهـا ووضعت يدي بينهما ، وطلبت ان احـركهـا . ثم ابعـدت يدي فجأة وقفـزت واقفة واخذت تجذبني وهي تقول :

- قوم عيني للقبة .

وادركت بعد قليل انها تريدني ان اقودها الى حجرة النوم . قلت :

- على كيفج عيني ! لويش مستعجلة ؟

قالت بلهوجة :

- قوم عيني ، دمي قوم !

رغم ضراوتهـا كانت الفتـاة مخيبـة للامل . فما كدت اجذبها نحوي فوق السرير واعانقها حتى احسست بعضلات عجيزتها ترتعش ، وبجسدها يندفع بقوة نحوي وهي تطلق همهـمات مختنقـة ، ثم يرتخي فيهـا كل شيء ويمـوت . ابتعدت عني وتمـددت على ظهـرهـا ساكنـة ، مغمضـة العينين ، لايتحرك فيها سوى تنفسها . ادركت ان للفتـاة خبرة بالـرجـال ، ولكنهم رجـال لاخـبرة لهم ، رجـال انتجتهم وصاغتهم لقاءات سريعة ، مليئة بالفزع مع نساء شبقات وخائفات حتى الالتباث

غادرتهـا وهي ممدة على السـرير نصف ميتة ، ودخلت المطبخ . اعددت نيست شافية . عندما دخلت الحجرة فتحت بتراخ وقالت :

ـ عندك ويسكي ؟

فوجئت بالفعل . قلت :

ـ عندي حالا اجيب الكلاصات والثلج .

قالت انـه لا داعي للكؤوس والثلج . انهـا تريـد فقـط ان تضيف قليـلاً من الوسكي الى القهوة . البنت صاحبة مزاج . وهو مزيج ممتاز استعمله ساعة الكتابة حين اريد ان اتغلب على الارهاق . اضفت قليلاً من الوسكي الى فنجانها وقدمته لها تذوقته ثم مدت ذراعها وقالت :

انطيني البطل .

ناولتهـا زجـاجـة الـوسكي . صبت منهـا في فنجـانهـا حتى امتلأ . شربت رشفت ، وابتسمت لي ، ثم قالت :

ـ هسّا تمام .

جلست بجـوارهـا على السرير . وتذكرت فجأة انني لم اسألها بعد عن السبب الذي جعلها تجيء بدلاً من سهام . تحيرت كيف ابدأ . ولكنها ، وهي تشرب القهوة بتلذذ قالت انها تصورت انني كنت احب ليلى . قلت :

ـ ليلى ؟

قالت انهـا كانت تظن ذلـك ، لهذا فوجئت بالـرسـالـة التي سلمتها ليلى لها . قالت انهـا تعتقـد ان ليلى نفسهـا قد فوجئت بالـرسالة لأنها ـ اي ليلى ـ كانت تعتقد انني احبها .

سألت مرة اخرى :

ـ قلتي ليلى ؟

قالت :

ـ اشبيك ؟ ليلى البنية اللى انطيتها الرسالة .

ـ اسمها ليلى ؟

ـ ماكنت تعرف ؟

قلت :

ـ ليلى ، ليلى . . . ايه ليلى . وشلون ماعرفها .

لقـد اتضـح كل شيء . هذه ، اذن ، هي سهـام . ايـة ورطة وضعت نفسي

فيها وهل من مخرج بعد كل هذا الالتياث ! لم يكن ينقصني الا هذا .

كانت قد انتهت من شرب كأسهـا ، فوضعتـه على الكـومـودينـو ، وقبلت صدري ممسكـة بشعـره بين شفتيهـا . ثم القت رأسها الى الوراء واخذت تنظر الي . بمثل هذا القرب بدت وكأنها عمياء ، او كأنها فقدت الحياة .

قالت :

ـ زين سوّيت حبيبي .

امسكت وجهها بين كفيّ ، واقتربت بوجهي منها ، حتى اختفت تلك النظرة العمياء ، وقلت :

ـ مش فاهم .

قالت :

ـ زين سوّيت اللي ماسوّيت علاقة بليلى .

ـ زين سويت اللي ماسويت . . . ليش ؟

لم تضحـك . فطـردت الابتسـامـة عن وجهي . تمددت سهـام على السـريـر وقالت ، وبطنها ناعم صلب يضغط على جنبي :

ـ ليلى شيوعية .

ـ ليلى ؟

كنت اعرف ذلك . وهل يمكن ان تكون الا كذلك ؟

قالت :

ـ ايه ليلى .

خطـر لي ان اتأكـد الايكـون الخلط قد حدث بالنسبـة لي ، فنصبـح في اكثـر المواقف غرابة . قلت :

ـ تعرفي اسمي ؟

ـ غير !

ـ وشنهو اسمي ؟

قبلتني على فمي وقالت :

ـ عبوسي .

- عبوسي ؟

قالت :

- عبوسي ، يعني عباس .

قلت بحدة :

- لكن هذا ماهو اسمي .

اتسعت عيناها . كان سوادهما لامعاً ، حياً ، قلت وانا ابتعد عنها حتى اراها بوضوح اكثر :

- هذا ماهو اسمي ؟

- وشنهو اسمك ؟

بدت ، في ترقبها لاجابتي ، خائفة . قلت :

- غالب .

★★★

اللمسة الاخيرة في الموقف كانت لقاء سهام مع ايوب خرجت سهام من حجرة النوم عارية عدا منشفة كانت تلفها حول وسطها ، ثم فجأة كانت تقف امام ايوب وجهاً لوجه كنت اقف بباب الحجرة ، مرتدياً برنس الحمام . كان ايوب يقف بلاحركة ، وقد انفتح فمه قليلاً . من الواضح انه لم ينتبه لوجودي ، ولم يكن يرى سوى هذا الجسد العاري امامه . كانت عيناه ترمشان بلا توقف ، مدققاً النظر في الفتاة ، وكأنه يحاول ان يتأكد من كونها هي ، ولا احد غيرها . مضى عليه بعض الوقت ، وهو عاجز عن الحركة .

كانت الفتاة واقفة تواجه ايوب ، وهي تنظر اليه كالمسحورة ، وقد امسكت

المنشفة بيد ، ووضعت ذراعيها فوق نهديها ، مخفية الجزء الاعلى منهما . كنت استطيع ان أرى كتفيها وقد ارتفعا ، وفقدا استدارتهما . كما كنت ارى عظمتي كتفيها بارزتين ، وقد اقتربتا لتكوّنا منحدراً في بداية العامود الفقري .

استمر هذا الموقف ثابتاً ، دون تغيير ، لمدة دقيقتين ، اوربما اكثر . لم يتحرك احد منا ، ولاصوت نسمعه سوى أنين المبرّدة . كان ايوب يلهث مفتوح الفم ، وهو يدقق النظر في الفتاة ويتفحصها بدهشة ، وكأنه يقول لها : « هذه انت اذن ؟ » . والفتاة تنظر بعينين متسعتين وكأنها تتوقع ان يباغتها في موضع لاتستطيع الدفاع عنه .

قلت :

ـ اهلاً ايوب .

لم يرد على تحيتي ، ولم يبدر عنه مايشير انه سمعني . مال قليلاً نحو الفتاة ، ربما حتى يراها بوضوح اكثر ، او ـ ربما ـ ليتأكد من وجودها . كان يشبه طفلاً يتأمل طفلاً آخر ، بالحياد والجدية ذاتهما . كانت طاقتا انفه قد انتفختا قليلاً ، وعيناه جاحظتين كأنه يعاني صعوبة في البلع ، وقد تكوّنت طبقة من العرق على جبينه .

قلت :

ـ ايوه يا ايوب.

تقلصت عينه اليسرى للحظة ، ثم عاود النظر الى الفتاة ، التي كانت تنظر بثبات . ثم انتبهت فجأة الى ان المفروض ان يحسم هذه المسألة هو الفتاة نفسها ، التي تقف دون ان تبدو عليها رغبة في التحرك او الخروج من هذا الموقف الذي طال .

قلت لها :

ـ إشبيكي ؟ ماتروحي الحمام !

التفتت الي وقالت :

ـ الرجّال !

قلت :

ـ ايوب ، زميلي في السكن .

ثم تبينت ان ايوب يسد عليها الطريق . قلت لايوب بحدة :

ـ ابعد ياأخي خليها تمر .

ابتعد قليلاً جداً . وضعت كفي بين لوحي كتفيها ، ودفعتها برفق . كان جسدها بارداً . انطلقت نحو الحمام ، تسير كالمنوّمة . تبعتها ، مزيحاً ايوب من

طريقي ، وقلت له :

ـ عن اذنك .

كان ايوب يحرك شفتيه دون ان يصدر عنه صوت ، ثم اخرج لسانه واخذ يبلل شفتيه قلت له :

ـ بعدين يا ايوب . اطلع هلق فوق .

دخلنا الحمام سوياً ، وانا اقول لنفسي : « كيف نسيت ان ايوب يعود الى البيت في مثل هذه الساعة ؟ » كانت سهام تعطيني ظهرها ، حتى عندما نزعت المنشفة عن وسطها ، وللمرة الاولى لاحظت ان جسدها مجموعة من الدوائر جلست فوق البيديه وفتحت الدوش تحتها . اصبحت في مواجهتي ، واخذت تقرأ وجهي . قالت بعد قليل :

ـ إش بيه هذا ؟ مخبّل ؟

قلت :

ـ لا . بس فوجيء بيك .

قالت وكأنها تحدث نفسها :

ـ وشلون مخبّل هذا ! فاتح حلقه ويباوع ، عَ بالك يريد ياكلني ؛ وسد الطريق . . .

قلت لها :

ـ استني شويه .

وغادرت الحمام . مازال ايوب واقفاً في مكانه . ناديته ، فارتعش جسده والتفت الي بسرعة . نظر الي بعينين زائغتين ، وفتح فمه قليلاً ثم اغلقه ، دون ان يقول شيئاً . فقط كان يطالعني بعينين واسعتين لاتريان . اقتربت منه وقلت :

ـ ايوب ، اطلع اودتك .

قال :

ـ اودتك ؟

ـ لا غرفتك انت . فوق .

واشرت باصبعي نحو السلم .

همس لي :

ـ شفت ؟

ـ شفت ؟ ايش شفت ؟

استمر يهمس :

ـ مين هاي ؟

ـ بنت .

ـ بتاخد مصاري ؟

ـ لا . زميلتي في الدائرة .

جالت عيناه في وجهي وفي المكان ، واقترب برأسه مني حتى خطر لي للحظة انه ينوي تقبيلي . ثم قال :

ـ ايش بتعمل هون ؟

ضحكت وقلت له :

ـ ايش رأيك ؟

اخذ يبلع ريقه بصعوبة . قال :

ـ بسألك ايش بتعمل هون ؟

قلت :

ـ بنشتغل .

ـ آه .

قال ، وابتسم ؛ ثم اخذ يصعد الدرجات المؤدية الى حجرته . توقف على البسطة القائمة في منتصف السلم . وضع كوعيه على الحاجز ، وبدا وكأنه قرر الاستمرار في الوقوف هنالك الى الابد . كان يتحاشى لقاء عيوننا . اخذت افقد اعصابي ، فقد زادت الامور . عن الحد المعقول . قلت بحدة :

ـ بدك شيء ؟

قال بالانجليزية :

ـ اذن ، فهي ليست مدينة بلا فرج .

ـ اصبحت بذيئاً .

ـ غالب . . .

قال . تردد قليلاً ثم اضاف :

ـ شد حيلك .

ـ شكراً .

انفتح باب الحمام ونادت سهام :

ـ الرجّال طلع لقبته ؟

صعد ايوب درجات السلم بسرعة خارقة ، دون ان يحدث صوتاً ، قلت :

ـ ايه عيني ، طلع .

انطلقت سهام راكضة الى غرفة النوم . نزعت المنشفة عن جسدها ، وتمددت على السرير . قالت ووجهها ملىء بالضحك :

ـ اش بيه المخبل هذا !

واخذت تردد ذلك ، وتتبع ذلك بضحكات عصبية . جلست قربها على السرير وقلت :

ـ ماتديري بال .

نهضت بجذعها وجذبتني الى السرير وتمددت بجواري . اخفت رأسها في صدري ، وتمتمت :

ـ خفت ، وداعتك .

كان لقاؤنا اشبه بالمصارعة . وكانت قوية ، متقحمة ، لاشيء يوقفها عما تريد .

لم يكن ذلك نهاية المطاف بالنسبة لايوب .

انصرفت سهام حوالي الساعة الرابعة على ان تأتي بعد يومين ، في الساعة الواحدة . لم يظهر عليها انها تأثرت بلقائها مع ايوب ، واعتبرت المسألة نكتة ، اخذت تكررها كثيراً : « شلون مخبل هذا . . . ! يايمه ! » وتضحك ، وتضحك كثيراً . وعندما استعدت للانصراف قالت باللغة العربية الفصحى ، وبلكنة بغدادية صارخة :

ـ بلّغ تحياتي لصاحبك المخبل .

وضحكت .

وقبل ان استغرق في نوم بعد الظهيرة ، خطر لي ، للحظة ، ان سهام مفتونة بايوب ، ولسعني احساس بالغيرة .

استيقظت متأخراً بعد نوم طويل ، ثقيل . كانت الظلمة قد هبطت . ساعة اليقظة استعدت على الفور ماحدث ، كما استعدت الاحساس بالغيرة . استحممت وشربت الشاي ، ثم دخلت حجرة المكتب وواصلت كتابة الرواية . اصبحت اكثر قدرة على التركيز ، واخذت الكلمات تأتي بسرعة غير متوقعة .

كنت قد نسيت ايوب ، ونسيت ذلك الموقف مع سهام الذي اخذ يسبب لحظات من الغيرة . لم افطن الى وجوده الا حين سمعت خطواته فوقي . منذ مواجهته مع سهام لم اسمع له حركة . نظرت الى ساعتي . كانت تشير الى التاسعة والنصف وبضع دقائق . الفيت نفسي اواجه هذا السؤال بدهشة حقيقية : « كيف استطاع ايوب ان يكف عن الحركة طيلة هذا الوقت ؟ »

بعد قليل سمعته يهبط درجات السلم . قلت لنفسي ، وكأنني استغيث : « ليس الآن ياايوب ، ليس الآن . ارجوك . » فقد كانت الرواية ، في تلك اللحظة ، تنمو بين يدي بسهولة وسلاسة . أكاد اقول انها كانت تكتب نفسها .

كانت خطوات ايوب ثقيلة ، بطيئة الايقاع . لم اسمعه ابداً يسير بهذه الخطوات . شعرت ان امراً غريباً يحدث . تخيلت ايوب يسير بهدوء ، وهو يمسك مسبحة ، وقد تركزت عيناه على اليد والمسبحة . توقف سيل الكلمات الذي كان يتدفق في داخلي ، كما يتوقف التنفس لحظة المباغتة . واخذت انظر الى باب الحجرة ، متوقعاً حدوث كارثة ما .

عشت ، للحظات وقبل انفتاح الباب ، رعب البيوت الكبيرة ، المنعزلة في روايات الاشباح . انفتح باب حجرة المكتب ببطء شديد ، وتوقف ايوب في اطار الباب المفتوح ، وقال :

ـ انت هون !

ـ ايش رأيك ؟

لم يستجب للدعابة . اغلق الباب بهدوء ، واخذ يطالعني . كان فيه لمحة من المجرم ـ المجنون كما ظهر في احد افلام هيتشكوك ، حينما هجم فجأة ، رافعاً سكينه ، محطماً الزجاج ، قبل ان ينقض على ضحيته بلحظة خاطفة . كان وجه ايوب وجهاً في لقطة مقربة : وجه كبير ، وتعبير غضب **مصمم** لايكاد يسيطر عليه الا بصعوبة قد تجمد على وجهه ، وعينان لامعتان تخلوان من الحياة ، وخصل شقراء استقرت على جبينه العريض المبلل بالعرق ، والتصقت به . كان يسير ببطء كالأعمى .

سار بخطوات المنوّم وجلس على الكنبة الجلدية الخضراء ، اتخذ طابع الاستغراق ؛ وكان ذلك يعني النظرة الثابتة ، والفم المفتوح قليلاً ، والجلسة المتصلبة . سكن طويلاً ، ونظرته الثابتة تتجه الى الفتحة القائمة فوق الباب الآخر ،

التي يندفع منها الهواء البارد ، وكأنه فوجىء بالفتحة وبالهواء البارد ، ورفع رأسه بدهشة ، يحدّق منها بنظرة المباغت . وكأن تلك النظرة التي كان يجب الاتستمر غير جزء من الثانية ثابتة تتجدد وتمتد دون نهاية .

قلت :

- ايوه ايوب ؟

لم يبد عليه انه سمعني ، كررت :

- ايوب ؛ ايوه ايوب .

التفت نحوي بحركة بطيئة ، وطالعني بعينين رجرا جتين ، فقدتا القدرة على التركيز ، وقال :

- ليش عملت هيك ؟

لم يكن ذلك صوت ايوب ، ذلك الصوت المتردد ، المراهق ، الحاد ، بل كان صوتاً عميقاً ، هادئاً ، مشحوناً بغضب وتهديد . حاولت ان اجعل صوتي لامبالياً .

قلت :

- ايش عملت ؟

قال :

- ماانت عارف .

- عارف ايش ؟

هز رأسه وظلت عيناه مركزتان علي . كان التهديد واضحاً في حركة الرأس وفي النظرة الصارمة وقال :

- مش عارف ؟

- لا مش عارف .

صرخ :

- مش عارف ؟

رغم انه كان يجلس في مواجهة تيار الهواء ، فقد كان العرق يكسو وجهه وعنقه .

قلت :

- لا .

زعق :

ـ لا ؟

ـ لا

قال بعصبية .

ـ كيف لا ؟

ـ هذا اللي صار .

واصل الصراخ :

ـ هذا اللي صار ؟

فقدت السيطرة على اعصابي ، وصرخت به :

ـ خلصنا ياأخي من حزورتك وتكلم بوضوح . صارلك ساعة : عارف ، مش عارف ؟ لا عارف ، لا مش عارف .

ـ لانك عارف .

ـ طيب افرض اني مش عارف ، وحاكيني .

قال بهدوء مشحون :

ـ البنت .

ـ مالها ؟

ـ ماانت عارف .

ـ لا . مش عارف .

ودخلنا في الدائرة المفرغة ذاتها : عارف ، مش عارف . . . وفقدنا اعصابنا اكثر من مرة ؛ وكان سبب غضبي تصوري ان كان يطالبني بالا ادخل فتيات الى البيت . ولكنني تبنيت الحقيقة في نهاية الامر ، اذ قال : ان الفتاة سهام ، جاءت له ، وانني اختطفتها منه .

سألته :

ـ كيف عرفت ؟

قال :

ـ عرفت .

قلت :

ـ عمرك ماشفتها ، فكيف عرفت ؟

ـ بسيطة ياأخي ، البنت غمزت لي بعينها .

ـ ماشفتها غمزت .

قال :

ـ ماهيـه كانت دايـرة ظهـرهـا إلك ؛ كيف بدك تشوفها ؟ بقول إلك غمزت لي اكثر من عشرين مرة .

كان محقـاً . لم يكن بامكـاني ان اراهـا وهي تقف في مواجهته . اما انها غمزت بعينها له ، فلم استطع ان اجزم بذلك . قلت :

ـ يجوز .

ـ اكثر من عشرين مرة غمزت .

ـ يجوز .

ـ وحكت لي كل شيء .

هل يعني هذا انها صعدت الى حجرته بعد ان غادرتني . ان ذلك مستحيل .

قلت :

ـ امتى ، يعني كيف حكت لك ؟

قال بنفاذ صبر :

ـ اوه هوه . . . حكت لي بالتليفون ياعمي .

ادركت ، بخوف ، ان الرجل قد جن . قلت :

ـ بس انت بتعرف يااايوب انه مافيه عندنا تليفون

رد بعصبية :

ـ تليفـون ؟ ايش التليفـون هذا ؟ انـا قلت تليفـون ؟ قلت لك انهـا كانت بتكلمني باللاسلكي .

ادركت بسـرعـة سخـافة موقفي ، اذ اخذت اقنعه اننا لانملك تليفوناً ، وكأن هذه هي المسألـة الاسـاسيـة . نظـرت اليه وانا افكر : « ايوب مجنون » وقد كان ذلك محزناً جداً . ماذا افعل الآن ؟ رأيت ايوب يبتسم . قال :

ـ بتعرف ايش قالت لي عنك ؟

ـ لا .

اخذ يضحك دون توقف ، ثم قال من خلال ضحكه :

ـ قالت لي أن عضوك التناسلي زغير جداً ، زغير جداً جداً .

وفكرت انه قد صنع لنفسه قضية كاملة ضدي . لهذا السبب كان صامتاً طيلة

هذه الفترة ؟ انسحب الضحك من وجه ايوب ، واخذ وجهه يتجهم . قلت :

ـ قالت لك زغير ؟

قال بحدة :

استوليت عليها يااخي ، مبروكة عليك ، بس لازم بعدما خلصت منها ، تقول : تفضل يا ايوب .

ـ واجب .

استمر يتكلم وكأنني لم اقاطعه :

ـ البنت ياعمي كانت بتبكي وهيه بتحكي في التليفون انك منعتها تطلع عندي . يااخي ، بنت مليانه من النوع هذا بدها واحد عنده جسم رياضي ، وعضلات ، وعضو طوله واحد وعشرين سنتيمتر ، على الاقل . انا طوله اتنين وعشرين ونص .

قلت :

ـ انت قسته ؟

ـ طبعاً . اليوم .

كانت نهاية ذلك الموقف مؤلمة .

قلت لايوب :

ـ انا طالع اكلمها بالتليفون من عند الجيران يا ايوب ، واخليها تيجي ، منيح ؟

ـ متل مابدك .

ـ وانت مابدك ؟

لم يعترض ، ولم يتحمس .

عندما وصلت الباب الخارجي سمعته يناديني . التفت خلفي فرأيته واقفاً في اطار الباب المؤدي الى الباب الخارجي . قلت :

ـ ايش بدك يا ايوب ؟

قال بصوت وديع :

ـ ماتنس تقول إلها ياخوي انه انا اتنين وعشرين ونص .

كانت الساعة قد اقتربت من الحادية عشرة حين طرقت باب الجيران . لاأذكر اننا تبادلنا التحية مع جارنا ولو مرة واحدة ، رغم مرور سنة على سكنانا بجواره . كنا

الاعزبين اللذين يجب ان تبتعد عنهما العائلات المحترمة . مرة واحدة دخل هذا الجار بيتي . جاءت امه تزوره من الموصل ، فلم تجده في البيت . استأذنت ان تنتظره في بيتي . رحبت بها ودعوتها الى الانتظار . وحين عاد اخبرته ان امه في بيتي . دخل وقادها الى بيته دون ان يوجه الي كلمة شكر او اعتذار واحدة،اشعرني ، منذ ذلك الحين ، انني اهنته ، فكان يتجهم لمجرد ان يراني .

دققت جرس الباب الخارجي . اضاء الانوار المقامة على جانبي الباب . كان الجار عابساً وغاضباً . قال :

ـ بلي ؟

وكان ذلك رداً على تحيتي له . قلت له ان زميلي في السكن اصيب بانهيار عصبي ، واستأذنته باستعمال التليفون . لسبب عجزت عن فهمه بدا سعيداً ودعاني الى الدخول .

وتتالت الاحداث . عدت الى البيت كان ايوب مايزال جالساً في مكانه . كان الشعور بالذنب يثقل علي : هل استعجلت في استدعاء رجال مستشفى الامراض العقلية ؟ هل فعلت ذلك بدافع الغيرة ؟ لذا قابلت ايوب خجلاً .

انتفض ايوب عند دخولي ، وتعلقت عيناه بوجهي . جلست دون ان اقول شيئاً . كانت عينا ايوب مركزة على وجهي ، وقد ضايقني ذلك بعد قليل ، سألني بهدوء :

ـ كلمتها ؟

ـ كلمته .

ـ ايش قالت ؟

ـ قالت جاية .

يبدو انه كان يتوقع اجابة اخرى ، مخالفة . لأنه نظر الي طويلاً ، ودون ان يبعد نظراته عني ، سألني :

ـ وانت ايش قلت إلها ؟

ـ قلت لها تيجي .

ـ ماقلت إلها إش تاني ؟

كدت انفجر بالضحك حين ادركت انه كان يريدني ان اخبرها عن طول عضوه التناسلي . قلت :

ـ اقول إلها على التليفون ؟

صمتنا قليلاً ؛ ثم قلت :

ـ ماهيه جاية . انت قول لها .

لم يجب . قال بعد قليل :

ـ ايش رأيك آخذ السيارة واشتري ويسكي وأكل ؟ يمكن ماتكون تعشت ؟ والا ايش رأيك ؟

قلت :

ـ فيه عندي ويسكي . قزازتين ، وعندي لحمة ممكن تقليها . ويمكن تكون تعشت .

قال :

ـ بس انا اللي عازمها .

ـ مافيه فرق بينّا يا ايوب .

بعد قليل توقفت سيارة شرطة النجدة امام الباب الخارجي . خلفها تماماً توقفت سيارة اسعاف . نهض ايوب واقترب من الشباك ، وأطل ، ثم قال :

ـ ايش الحكاية ؟

خرج اليهم وتبعته .

هل انا بحاجة الى رواية تلك المعركة التي دارت بين ايوب ورجال الشرطة ؟ كانت قوة ايوب خارقة ، لم يشل حركته الا القمصان التي استعملها الممرضون بخبرة وكفاءة .

مضى ايوب وبقيت وحيداً في البيت .

ـ ١١ ـ

في اليوم التالي ذهبت الى العمل . منذ الصباح كان يبهظني توقع كارثة ما . في الممر الذي تقع فيه حجرتي قابلت ليلى وسهام . كانتا متجهتين الى الحمام . لمعت نظرة التعرف في عيني ليلى ، ابتسمت وهزت رأسها . ادارت رأسي بفتنتها وعدت العاشق الملهوف . اما سهام فقد تجاهلتني ذلك التجاهل الصارم المصمم الذي نفذ الى قلبي كحد السكين .

دخلنا الحمام ودخلت حجرتي .

هل حدث تغيير في السور الكرتوني ؟ كنت قد تأملته قبل دخول حجرتي اصبحت الآن ، البقعة الرمادية والمرأة العجوز هي مركز الصورة ؛ اما ماحول هذا المركز من تفاصيل فقد بدا باهتاً . كيف حدث هذا ؟ أيمكن ان يكون مدير المكتبة قد اعاد رسم الصورة ، فجعل التنين والقديس في الخلفية ، وابرز البقعة الرمادية ؟ جلست وراء مكتبي اتفرج على الرسوم . دققت النظر في التنين ، وحاولت الأرى ماعداه . كان تنيناً كأي تنين ، وليس هنالك مايميزه . دققت في النار الخارجة من منخريه ، وتوالت في ذهني خواطر واسئلة كسولة :

كيف تخرج النار من منخري التنين دون ان يحترقا ؟ الايؤدي انطلاق النار منهما الى اصابته بالجيوب الانفيه ؟ ولكن عيوننا تقدحان شرراً دون ان تحترقا . . وكذلك الملابس المصنوعة من النايلون ومن الالياف الصناعية . . . الايمكن ان تكون النار المنبعثة من منخري التنين باردة ؟ ولكن كيف تكون ناراً اذن ؟ . . . نار باردة مثل النار التي هبطت على ابراهيم .

وأفكار أخرى ثقيلة الظل اضجرتني .

وكنت خائفاً .

عادت الفتاتان من الحمام . سهام تجاهلتني ودخلت حجرتها . ليلى دخلت حجرتي مبتسمة . كانت تضيء ، فاختلج قلبي بعنف . هل من المعقول ان تنتهي من حياتي هكذا ! جلست قبالتي ضاحكة العينين ، دون ان تقول شيئاً . كانت تتحاشى ان تلتقي عيوننا .

قلت :

- اهلاً ليلى .

قالت :

- عرفت اسمي ؟ ايه زين .

- اللي صار معي كان اغرب شيء في حياتي .

ضحكت ، ثم محت ضحكتها بكشرة ، ثم بوضع اصفاء . قلت :

- ليش سويت هيج ؟

ابتسمت وهي ترمش بعينيها ، ولم تقل شيئاً . كل شيء بدا لي ممكناً حتى ستعادة ليلى . ماعلي الا ان ابذل مجهوداً مضاعفاً ، ان اتوصل الى الحجج المقنعة .

قلت :

ـ جاوبيني ليلى .

تنهدت ليلى ، فالححت عليها :

ـ جاوبيني . ردي علي .

ضحكت ليلى وقالت :

ـ إش اقول !

وصمتت . ثم نظرت الي نظرة غريبة ، معابثة ، خجولة ؛ ولكنها كانت تحمل بالاضافة الى ذلك شيئاً اشبه بالتلميح البذيء . ارفقت نظرتها بضحكة قصيرة ، ثم قالت :

ـ عيني ظروفي ماتسمح .

ـ ليش ماقلتي لي ؟

قالت :

ـ ايش اقول ؟

ـ ان ظروفك ماتسمح .

وقفت فقلت بلهفة :

ـ استريحي ، ارجوك ، استريحي .

ولكنها ظلت واقفة . كانت تدير رأسها نحو السور الكرتوني وتتأمل تفاصيل رسومه ، قالت :

ـ هذا غير مخبل .

ـ اقعدي ليلى .

ـ مديرنا غير مخبّل . . .

ثم التفتت الي وقالت :

ـ تريد كتب من المكتبة ؟

قلت :

ـ ماهو ممنوع ؟

قالت ان هذا المنع لااهمية له . وهذا المدير لايستطيع ان يفعل شيئاً ، اذا ماقررت الفتيات معارضته .

قلت :

- شكرر ليلى بس ليش غيرّت الموضوع ؟

قالت انه موضوع طويل جداً ، ومعقد جداً . قلت : فليكن . اعادت القول انه موضوع طويل ومعقد ، وكذلك ظروفها وظروفي ، وانه كلما ابتعدت انا عنها كان ذلك خيراً لي ولها وللجميع .

قلت :

- ليلى ، المسألة بالنسبة لي ماهي نزوة .

- ادري .

- فاهمة ؟

قالت بشيء من الحدة :

- عيني آني مراقبة . افتهمت هسّا ؟

وهمت بالانصراف . خطت خطوة نحو الباب فطار صوابي ، وكدت انهض والحق بها . قلت :

- استريحي ليلى . اريد اقول لك شيء مهم .

التفتت نحوي برأسها . ترددت قليلاً ، ثم جلست ، وقد اتخذ وجهها وضع صغاء . قلت :

- ليلى . انا بحبك .

- ادري .

- الحب هذا إله نتائجه المنطقية .

قالت بضراعة :

ما اتشوف ؟

- اف ؟

- انا خطر عليك .

قلت :

- مايهمني . طول عمري عايش في خطر .

احسست على الفور انني تجاوزت حدود التواضع ، غير انني لم استطع ان اتراجع . قالت ليلى وهي تنهض :

- ماكو فايدة من الكلام .

قلت لها وانا احاول ان اتشبث بها :

ـ سؤال آخر . سهام تعرف ان المسألة كلها كانت سوء تفاهم ؟ يهمي الاسم ؟

قالت :

ـ لا . ماتقول لها .

وخرجت .

الباب الثاني

- ١ -

جرت هذه الاحداث فيما سمي بمرحلة الحوار ، ابتداء من عام ١٩٧٨ . اعني بذلك ، تلك المرحلة التي اعلنت فيها قيادة الحزب الحاكم في العراق ، في اجتماعات اللجنة العليا للجبهة القومية والوطنية التقدمية ، انها قررت بدء حوار بين قواعد حزبها وقواعد الحزب الشيوعي العراقي . واشارت قيادة الحزب الحاكم ان بعض الحدة قد ترافق ذلك الحوار ، وان بعض التجاوزات قد تحدث ، وهذا امر طبيعي في امثال هذه الحوارات .

القرار الحقيقي الذي اتخذته قيادة الحزب الحاكم ، دون ان تبوح به لاطراف الجبهة الاخرى ، هو تحجيم الشيوعيين من خلال القيام بتصفية كاملة لقواعدهم . وكانت النتيجة التي تبغي القيادة الوصول اليها هو الايظل من الشيوعيين سوى قيادتهم ، وبعض المظاهر الشكلية ؛ وان تبقى هذه القيادة كديكور تستعمل حين الحاجة .

وكان الحوار يتم على النحو التالي : يستدعى عضو الحزب الشيوعي الى احدى لجان حزب البعث . تناقشه اللجنة في افكاره وتطرح امامه افكار حزب البعث . الشيوعي ، الاكثر ثقافة في الغالب ، يصد الهجمة الاولى . هنا يأخذ الحوار طابعاً اكثر حدة ؛ اذ تطلب اليه اللجنة بصراحة ان ينضم الى حزب البعث . وكان معنى ذلك ان يقوم عضو الحزب الشيوعي بتقديم كل مايمتلك من معلومات عن حزبه ، دون ان يخفي شيئاً . ان اخفاء اية معلومات عن الحزب ، مهما كانت قليلة الاهمية ، يعاقب ، حسب القانون ، بالاعدام .

تمارس اللجنة « الحوار » مع الشيوعي لفترة من الزمن . فاذا استسلم فانه ينضم الى لجنة تقوم بغسل مخه ، حتى يصبح صالحاً للانضمام الى الحزب الحاكم .

واما اذا استعصى تجنيده ، يقال له : اننا فعلنا كل مانستطيع لمصلحتك ، ولسنا مسئولين عما يحدث لك بعد ذلك .

بعد فترة قصيرة تقوم قوات الامن باعتقال عضو الحزب الشيوعي المستعصي ، وتمارس معه انواعاً من الحوارات ، يقف على رأسها الحوار الجنسي . يتم هذا الحوار على النحو التالي : الاغتصاب الجنسي للرجال والنساء (من اين لاجهزة الامن هذا العدد الكبير من الشاذين جنسياً والساديين ؟ سؤال مشروع ، اليس كذلك ؟) ارغام الشيوعي او الشيوعية على الجلوس فوق زجاجة مهشمة العنق ، وادخالها كاملة في المؤخرة . الزجاجة المستعملة هي زجاجة بيبسي كولاً ، وهي ليست كبيرة الحجم (هل يعني اللجوء الى الزجاجة ان اجهزة الامن تعاني نقصاً في عدد الشاذين جنسياً ؟ لا . لأن الزجاجة كانت تتحول الى كائن آخر ، شرير ، ومشبع بالرعب . الزجاجة هي التي كانت تملأ خيال ليلى ، وتجعلها تعتبر نفسها انسانة غير صالحة للحب والزواج) واذا فشل ذلك كله تلجأ اجهزة الامن الى الضرب المؤدي الى الموت .

ولاتنتهي مشكلة الشيوعي عند تحوله الى جثة . اذ تنقل الجثة وتوضع امام باب بيت اهله . بعد ذلك تصدر الاوامر الى الاهل بعدم لبس السواد على الفقيد او البكاء عليه ، او اقامة مأتم له ، او طقوس دفن الموتى . واذا قام الاهل بواحدة من هذه ، تعتقل العائلة كلها ، بما فيها النساء والاطفال والشيوخ ، وتمارس معهم الواناً أخرى من الحوار . البعض قال ان تعليمات السلطة تحتوي على امر بالاكثار من الابتسام .

الاسلوب الآخر الذي اتبعته السلطة ، وكان اكثر حسماً من سابقه هو التجنيد الاجباري في الجيش ، الجيش حزبي ولايجوز للشيوعيين دخوله . ولكنهم مرغمون على دخوله ، طبقاً لقانون التجنيد الاجباري . وهكذا يدخل الشيوعيون الجيش ويلقى القبض عليهم ، ويحكمون بالاعدام . قيادة حزب البعث تقول بأسى:

ماذا تريدون منا ان نفعل ؟ هل نلغي قانون التجنيد الاجباري ، ونضعف قوة جيشنا امام العدو الصهيوني الغادر ؟ ان نلغي احد مواد دستور الجبهة الذي يعتبر الجيش خالصاً لحزب البعث ؟ وحتى لو اردنا ان نلغي هذه المادة لعجزنا ، لأنها من صنع اطراف الجبهة مجتمعة .

الشيوعيون اعتبروا هذا الحوار مؤقتاً (خط التطور لايسير مستقيماً ، دون التواءات وتعقيدات ، كما يعتقد ضيقو الافق) . اضاف آخرون بعض التفصيلات :

هنالك صراع داخل السلطة بين مجموعة يسارية وأخرى يمينية . والمجموعة الاولى يقودها ويجسد اهدافها السيد النائب ، واما المجموعة اليمينية فتدور في فلك رئيس الجمهورية ، ثم يصبحون بالغي الرقة عندما يخبرونك عن طبيعة المجموعة اليسارية داخل السلطة (ماالداعي للالتفاف حول الامور الواضحة ؟ هذه المجموعة تمثل اتجاهاً ماركسياً لينينياً بالتحديد !) ويرى نائب رئيس الجمهورية (يطلقون عليهُ تحبباً اسم السيد النائب) ان سياسة الحوار هذه موجهة ضده بشكل اساسي . وهو يعمل بدهاء شديد لتغليب الاتجاه اليساري داخل الحزب الحاكم على الاتجاه اليميني ؛ وانه سيتقدم ، في اللحظة المناسبة ، ويضرب ضربته ، رافعاً راية الماركسية اللينينية .

السيد النائب يعلن بصراحة ووضوح انه لا اساس لكل هذه التحليلات وان الحوار هو مشروعه ، وان كل مايتم هو بامره وتحت اشرافه . وقد تحدث مطوّلاً عن هذا ، وطلب من المحللين الحالمين الاتستغرقهم احلامهم . (دا تشوف ؟ السيد النائب يناور .)

فلندع له فرصة المناورة . ان دلائل كثيرة تؤكد مقولة انقسام السلطة الى مجموعتين . (عيني ، يابه ، السيد النائب قعد هوه وشاه ثلاث ساعات . ثلاث ساعات بالتمام . وشاه ايران يقول له :

« انطيك اللي تريده . شط العرب ، مستعد امنع المعونة عن الاكراد ، امشي واياك بالاوبك ، اللي تريده ، بس اضرب الشيوعيين . » السيد النائب قال : هذا مستحيل يابه . انا والشيوعيين في خندق واحد ، ولايمكن اغدر بيهم .) كما كنا في كل ليلة نشاهد نائب رئيس الجمهورية في التلفزيون ، يقبل عشرات الاطفال ، ويتشاقى « يمزح » معهم ، ويداعبهم كأب حنون .

واي شيء لم نكن نراه على شاشة التلفزيون . النائب يزور البيوت ويسأل الناس عن مشاكلهم ، ويأمر بتجديد الاثاث التالف ، ويتبرع بمهر المقبلين على الزواج ، ويزور معسكرات الطلبة ، ويداعب شعر الفتيات ، ويهازحهن ، ويبتسم ، ويبتسم ، ويبتسم ، ويقهقهه احياناً ، وتهتز كتفاه ، في احيان أخرى ، بضحك مكتوم .

لقد اصبح السيد النائب هو الممثل الرئيسي في التلفزيون . هاهي جماهير غفيرة تتزاحم حوله . رجل عجوز يتقدم منه ويقول :

ـ فانوس . . فانوس . .

السيد النائب يقترب منه ، ويقول :

- بلي ؟

العجوز يتحدث بجرس الشيوخ الخشن :

- اريد فانوس يمي ، هنا

عينا السيد النائب ترمشان بسرعة ، يقول :

- من هو فانوس ؟

الرجل العجوز يفاجأ بالسؤال . كان يتوقع كل شيء الا سؤالاً كهذا . يقول بصوت مرتفع :

- فانوس ، اللي عندكو بالحكومة . ماتعرف فانوس ؟

لقطة مقربة لوجه النائب . يتلو ذلك حوار يشارك به آخرون ، نفهم ان فانوس مجند في الشمال ، والاب يريده قريباً . عندما يتضح كل شيء ، يبتسم النائب ويقول

- موه تتدلل !

كما ان رقم تليفون السيد النائب معروف لدى الجميع . وكل من يعاني من مشكلة ، حتى ولو كانت مشكلة غرامية ، يمكنه الاتصال به ، او مقابلته شخصياً فتحل جميع الاشكالات ، كما في الاحلام .

واحياناً كنا نشاهده وهو يقتحم المستشفيات ، ويمسك بالاطباء الذين ينامون في ساعات الدوام ، ويقرعهم على مرأى من الجميع .

على شاشة التلفزيون كنا نرى النائب في كل مكان ، وفي كل الاوقات ، باستثناء الاماكن التي نوجد فيها . ولكننا نحلم ونأمل ان يزورنا في بيوتنا ويجدد اثاثنا التالف .

كل شيء بدا باعثاً على الاطمئنان ، هو انحراف مؤقت ، وسوف تتعدل الامور سريعاً . ولكننا فوجئنا بالمكتب السياسي للحزب الشيوعي يصدر بياناً داخلياً (بعد موجة رهيبة وواسعة من الاعدامات والتصفيات والاعتقالات) ؛ كان البيان موجهاً الى اعضاء الحزب يقول فيه : من استطاع الهرب منكم فليهرب ، ومن امكنه الاختفاء فليفعل . ان المجموعة اليمينية هي قيادة الحزب الحاكم كلها ، وليست مجرد جماعة صغيرة تلتف حول رئيس الجمهورية .

- ٢ -

اصبحت سهام تزورني كل يوم تقريباً . كنت ادع باب المطبخ مفتوحاً . وحين اعود في الثانية ظهراً اجدها هناك . تأتي في الواحدة وتنصرف في الرابعة والنصف ، لأنها كانت تعمل في المساء ايضاً من الخامسة حتى السابعة .

اعود فاجدها مرتدية احدى بيجاماتي ، وقد كفكفت كميها ، ورفعت سروالها الى مافوق الركبة ، وقد تركت الجاكتة مفكوكة الازرار ، حيث يبدو جذعها عارياً ، حيث تحررت من كل الملابس ، حتى السوتيان .

رغم قصر الوقت الذي تستغرقه ، أجدها قد قامت ببعض التنظيفات ، وبهذا كانت تجعل البيت مكاناً صالحاً للسكنى . كما انها تكون قد اعدت طعاماً سريعاً . ومن سهام تعلمت كيف تكون المطابخ منافذاً الى الحياة لمجتمع ما . هنا تكتشف وظائف ومجموعة عمليات ، في حين انك من الخارج لن ترى الا اشياء جاهزة ، كأنها خلقت هكذا . دخول حياة المطبخ هو النفاذ من سياق الثوابت الجاهزة الى الخلوة التي تدور فيها العمليات الاولية ، التي تحوّل المواد الى وظائف . هنا ، في المطبخ ، تتعلم صنع الاشياء ، تحطم القشرة الصلبة لعالم اصم .

خلال عودتي بالباص ، وكل ماحولي نار موقدة ، أرى سهام منتظرة في بيت مبرّد ، فتبدو لي كالحلم المستحيل ، كحلم يقظة يتكرر دون ان يتحقق لأنه اعادة صياغة لاحداث مضت . وخلال ذلك اكون متشوقاً حتى الاختناق لضم ذلك الجسد الصلب ، المرن ، وهو ينزلق بحيوية حيوان ضار عارياً ، تحت قماش البيجاما الواسعة . ولقد كانت سهام جاهزة في كل لحظة للعناق ، والضم ، والجلوس على

حجـري ، ودخـول السرير ، وممارسة الجنس . كانت تشتعل بمجرد دخولي ، وكأن هذه الخلوة ، المنتزعة من رتابة حياة مضجرة ، تحرّمها ، ستحدث مرة واحدة فقط ، ولن تتكرر .

تتعلق بي ساعة دخولي ، فاقول لها انني اختنق بالحر ، واحس بالاشمئزاز من جسـدي ، وانني اريـد ان استحم والبس بيجامتي . ولكنها تظل متعلقة بي ، ساكنة تلهث ، فاقول لها ، وانا امسك بوجهها بين يدي :

ـ وشنهو رايحة تغدينا اليوم ؟

في مثل هذه اللحظات لاتسخر من لهجتي العراقية غير المتقنة ، ولا تلح علي ان اتكلم باللهجة المصرية ـ كما تعودت ان تفعل في ظروف اخرى ـ بل احس بها تجاهد للتخلص من طغيان الرغبة،تتشنج ، وتضمني بقوة . يتوقف تنفسها ، ثم تطلق زفرة عميقـة ، ويـرتخي ذراعـاهـا بالتـدريج . تفرك وجهها بكفيها ، وكأنها تطرد النعاس العـالق بجفـونهـا ، وتضغـط باصـابعها على عينيها . تظل هكذا لحظة ثم تعود الى اعداد الطعام .

كانت سهـام تتكشف لي وتتضـح ، بالتـدريج ، من خلال تعرفي على مزاياها الجسدية والسلوكية . مازالت الملابس ـ بالنسبة للمرأة العراقية ، نوعاً من المصادرة ، ابتداء بالعباءة وانتهاء باحدث المودات . الملابس لاتخفي عريها ، وتفاصيلها الجسدية بل تخفي روحها . لم تتعلم بعد اختيار الملابس المناسبة لتكوينها الجسدي ، فالملابس العصرية مصممة لامريكيات واوربيات نحيلات الاجساد ، طويلات السيقان .

فلادراك جمال المرأة العراقية ينبغي البدء من البداية ، انطلاقاً من عريها وهكذا بالنسبة الى سهام ؛ فما كنت اظنه ـ وهي ترتدي ملابسها ـ سمنة وترهلاً ، تكشّف في عريهـا عن جسـد مكتمـل الانوثة . جسد كل مافيه ينحو الى الاستدارة : الكتفان ، والـوجـه ، والعنق ، والصـدر والنهدان ، العجيزة . الساقان استدارة كاملة ، تشع منها تلك اللمعة الانثوية اللدنة .

لم تكن استدارتها وقفاً على التفاصيل ، كانت توحي به كليتها . (والاستدارة هي انسب الاشكـال لاختـزان الطـاقـة) : والطـاقـة المختزنة هنا هي انوثة كثيفة ، ضـارية ، معطاءة ، لاتكف عن النيض . وبهذا كنت اشعر بجسدها مكتفياً بذاته ، تبدأ فيه خطوطه وتنتهي فيه .

استدارة سهام كانت تومىء الى اصل الاشياء : نواة الذرة ، وكما تحيط الالكترونات النواة كانت الرغبة تحيط بجسد سهام العاري ؛ كما تومىء الى الاشكال النهائية للمادة : استدارة الارض والشمس والاجرام السماوية .

هنالك اجساد تكتسب اكتمالها من خلال الحركة ، او الايحاء بها . ترى الوجه يعاني نقصاً ما ، فتنبعث فيه ـ وفيك ايضاً ـ دينامية تجاهد لاكماله . هذه وجوه تعيش حركة ابدية لتكتمل . اما سهام فاكتمالها فيها . وعندما كانت سهام تغادرني ، لاغرق في نوم بعد الظهيرة ، كنت اشعر بانني مدّور . قبل ان استغرق في النوم ؛ كنت ارسم ، في خيالي ، خطوط جسدي على شكل دوائر ، فاعيش الاحساس بهذا الجسد وكأنه دائرة . وقد كان هذا الاحساس مريحاً جداً ، يدفعني الى السكون .

حديثها ـ لم لااقول ثرثرتها ؟ ـ قادني الى حياة بغداد الداخلية . كان لها اسلوبها الخاص في الحديث ، اسلوب تلقائي ، طلق . تستطيع في عبارات قصيرة ، محايدة ، خالية من الخلفيات والشروح ـ وكأنها تفترض فيّ معرفة كلية بموضوع الحديث ـ ان تخرج الشخصيات من نطاق المجتمع العراقي المجهول لدي ، والغامض ، الى دائرة البشر ، ذوي الدوافع والعلاقات والاهداف المفهومة . كانت تدع لي وضع خلفيات الموقف ؛ فكنت استعير خلفيات اردنية ومصرية . هنا يبدو لي المجتمع البغدادي اليفاً .

كانت سهام باحاديثها هي الحبل السري الذي يربطني بمجتمع منطوعلى ذاته ؛ وكان مجرد سؤ الي عن بعض الخلفيات والتفاصيل يربكها ، ويجعلها ترسم صورة لمجتمع غير مفهوم ، وشديد الغرابة . فكانت تهرب من هذا الارباك بالجنس . تقول لي ، حين الح في اسئلتي :

ـ حبيبي ضوّجتني .

وتندفع الى العناق والمعابثة .

لم يكن الحديث عن الآخرين هو موضوعها المفضّل ، على اية حال ، بل انا الذي كنت ادفعها اليه . كانت تحب الحديث عن مصر ـ التي زارتها مرة مع اهلها ـ كما كانت تحب ان احدثها عن نجوم السينما (رسمت لهم صورة داعرة تكاد تكون قريبة من الواقع) . وكنت احدثها عن مدى الحرية التي تتمتع بها المرأة المصرية ، فمنحتها حرية بلا حدود ولاقيود . ربما كان دافعي الى ذلك هو مصادرة الشعور بالذنب ، الذي لم يكن موجوداً في واقع الامر .

امـا ماكـانت تعشقـه بالفعـل فهو النكات البذئية . كانت تطلب حكايتها المرة بعـد المـرة د ولم تكن تضحكهـا فقط ، بل تثير رغبتها ايضاً . كانت تنطلق بالضحك وتعـانقني خلال ضحكهـا ، وينتهي الضحـك الى لهاث الـرغبـة . كانت الكلمـة الجنسية بالنسبة لها جزءاً من الفعل الجنسي .

وعندما كانت سهام تحكي نكاتاً ـ وكانت تحفظ الكثير مما جعلني اسألها اكثر من مرة عن مصـدرهـا فلاتجيب . وعنـدما كنت ازداد الحاحاً ، واقول انها نكات الرجال الـذين عرفتهم ، تنكـر المصـدر ومعرفتها بالرجال ، وتقول انها سمعتها من زميلاتها ـ وكثيراً ماتحكي نكاتاً ، لم اكن اجد في نكاتها مايضحك . كانت مجرد حكايات بذيئة .

★★

ومن خلال سهـام تعلمت ان ابحث عن وجـوه المـرأة العراقية الثلاث . الوجه الاول ، ان اراهـا داخـل إطارها الاجتماعي المتخلف ، وهي في حالة خضوعها له ، وقبـولهـا به ، او تظـاهرها بالقبول . وهو الوجه القبيح ، الذي عرفت سهام في البداية من خلاله : بدت لي فتاة سمينة ، عصابية ، ثقيلة الظل ، تتحاشى مجتمع الرجال ، وتعيش في رعب دائم منهم . كنت اراهـا وهي تتنقـل داخـل حجـرة الفتيات ، تسير محنية الرأس ، تدب بقدمين متباعدتين وكأنها حبلى ، والوجه عابس كأنه لايعرف الابتسام .

عبر هذا الـوجـه يكـون صوت الفتـاة خشنـاً ، انفياً ، كأنها تعاني من زكام . وحـين تتحـرك تبـدو ثقيلة الحـركـة ، مفتقـده للرشاقة ولروح الانثى . واذا حدثها رجـل ، فتتلخص ردود فعلهـا في حمايـة جسـدهـا : تنحني لتخفي نهديهـا . ولذلك ينـدران ترى الفتـاة العـراقيـة تسـير منتصبـة القامة . يرعبها ان يبدو نهداها مشرعين للعيـون . ان نظـرات الـرجـال واحاديثهم تتحول عندها الى نوع من الملامسة ، بل محاولة اغتصاب .

وعندما تتعمق هذا المظهر تجد وراءه رغبة الفتاة ان يستباح جسدها . ان الخلوة بالنسبة لها ، مع رجل تعني منحه جسدها . هذا مافعلته سهام في نفس اللحظة التي اغلقت فيها الباب الخارجي .

الـوجـه الثـاني ، هو الـذي ينكشف امـامـك حين تشعـر المـرأة بغياب الرجل

العـراقي . هنـا تحس ان الفتـاة تعيش حالـة انتعاش . حالة يقظة وكأنها تستيقظ من خدر كان يلازمها . تنفتح روحها امامك فتجد ذلك المزيج من خفة الظل ، والذكاء والمـرح . ترافق ذلـك جرأة غريبـة ، لاتتوقعها ؛ وتصبح الفتاة مستعدة لكل شيء ، دون خوف ، ودون شعور بالذنب .

اذكـر مرة انني اتفقت مع امـرأة ان تقـوم بتنظيف بيتي . انتظـرتهـا على موقف البـاص . حين جاءت اقـتربت مني ، ثم ادارت ظهـرها لي ، حتى كدت اشك انها تعرفني . جاء الباص فتبعتني وجلست بعيداً عني . كانت بعباءتها ، وانكماشها تجسيداً يحجب اي تواصـل . دخلنـا البيت وهي تتبعني عن بعـد ، في الداخل شرحت لها ما اريدها ان تفعله . قلت لها انني سأخرج ، واعود بعد ساعتين . هزت رأسها دون ان تقول شيئاً .

اطلت الغياب حتى اتأكد من انها انتهت من عملها . وحين عدت رأيت بيتاً نظيفاً ، لامعاً . التغيير الذي حدث فيه كان اشبه بالمعجزة . والمرأة ؟ شيء لايصدق قد حدث . لقد انقشعت عنها عباءتها وانكماشها وخوفها كما ينقشع السحاب الاسود الجهم عن وجه البدر . من وحول العباءة والخوف نبتت وردة .

لقيتها جالسة في الصالون الواسع جداً تقرأ في جريدة الحزب الشيوعي (طريق الشعب) ، وهي بتـاريـخ قديم . كانت تلبس فستاناً ابيض به دوائر سوداء . وعندما دخلت عليهـا رفعت رأسهـا وابتسمت . أي وجـه ! عينـان سوداوان ، واسعتـان ، تضيئان ، وفم مكتنز ، ولبشرتها لون العسل . جلسنا نتحدث . وامتد حديثنا ساعات .

بدأ الحـديث بالسيـاسـة . تتعـاطف مع الحزب الشيوعي ، ولكنها لاتستطيع الحصول على الجريدة لأنها تسكن في حي شعبي . زوجها معتقل ، ابن عمها شيوعي اعدم منذ فترة قصيرة . تخفي هويتها في العمل .

وانتقل الحديث الى حياتها الخاصة . لها اربعة اطفال ؛ وهي تعمل فراشة في دائـرة حكـومية . تعيل اطفالها ، ولكن الدخل لايكفي ، فتضطر للعمل الاضافي . حدثتني عن ابنتهـا البـالغـة من العمر خمس سنوات ، كيف انها تصران تطبخ لنفسها وتغسل ملابسها بنفسها .

كانت لتلك السيدة تلك القدرة الفذة ان تجعل من احداث الحياة العادية مادة لحديث مبهج . كما كان حزنها نبيلاً تزيل حدته حتى لايجرح من يسمع حديثها . لم

ارها بعد ذلك . فلقد هربت الى الشمال عندما بلغ الهجوم على الشيوعيين ذروته . ولكن قدرتها الرائعة على المرح ، وقوتها في مواجهة الأحداث عاشت معي أياماً عديدة . منحتني قوة كنت باشد الحاجة اليها .

وعندما لبست عباءتها وانصرف كنت اعلم انه في داخل تلك الكتلة السوداء حياة ذات جمال نادر ، وروحاً قوية ومرحة .

الوجه الثالث ، هو وجه الفتاة المتمردة على وضعها الذليل ، والتي تملك القدرة ان تعلن تمردها امام الجميع ، وتجعل الظروف الاجتماعية تخضع لشرطها . انها التجاوز .

هكذا كانت ليلى .

- ٣ -

دخل الخريف ، وبدأ الجو يميل الى الاعتدال .

خريف بغداد هو اجمل فصولها . روح الارض الذي انضجته الحرارة يفيض بعصارات حية ، بعطور الارض الخصبة . من خلال الخريف تبدو المدينة وكأنها تعتذر عن الصيف الذي مضى ، صيف حارق هدّ الاعصاب والروح ، وعن شتاء قادم لبص ، موحل ، قذر ، شتاء لم تستعد له المدينة بالتدفئة المناسبة ، ولا بالمجاري ، ولا بالشوارع الصالحة للسير ، ولا بالمواصلات .

ويصيبني الاندهاش واتساءل : كيف اغفل الشعراء الخريف ، ونسبوا اليه كل صفات الكآبة والموت ، واحتفوا بربيع بغداد الثقيل بعواصفه الرملية الخانقة وحره .

ولكن نار الصيف وكآبة الشتاء الفظة حاصرتا الخريف من طرفيه . صيف هذا العام اخترق الخريف بجوراكد ورطوبة خانقة . كان الهواء ساكناً تماماً ، والاشجار بدت وكأنها سخطت تماثيل حجرية ، تنتصب دون اهتزازة واحدة.اوغل هذا الصيف الثقيل في الخريف حتى كاد يبلغ منتصفه . وكان اشد لحظاته هولاً حين يرتفع معدّل الرطوبة ، ويسكن الهواء حتى يصبح جثة هامدة ، عطنة ، فلاتحس نسمة تمر . وتغيب الشمس فتحس كأنك في قدر ماء حار . وفجأة يندفع مطر غزير ، ينسكب في خطوط مستقيمة وكأن السماء تصبه من برميل هائل الحجم . وخلال ذلك يداهمك عرق حار ، لزج ، تحس وكأنك تسبح فيه ، وتصبح كالمصاب بالربو ، تلهث ،

وتشهق فلاتجد الهواء .

وتود لو تموت . تكاد تصلي ، تضرع للهواء ان يجيء ، ان يملأ رئتيك ان يحرك كابوس الشجر المغسول ، المتوقف عن الحركة . تشعر انه من غير المعقول ان يستمر هذا الكابوس ، ولكنه يستمر .

اما شتاء هذا العام فقد اقتحم الخريف بضجيج مرعب ، ارتد عليه وانهاه بضربة هائلة . اندفع بزوابعه الكثيفة برملها الاسود ، وصقيعه الجاف الذي يخترق العظم ، ويستكن فيه ؛ ثم تدفق بمياهه التي تملأ الطرقات في دقائق قليلة ،وتصعد الى الارصفة ، وتقتحم الدكاكين والبيوت . الشتاء بوحله الاسود الكابي ، المخلوط بعفونة استقرت في مياه الشارع الآسنة طيلة العام . . . وخلال ذلك يكون الشارع خالياً من الناس ، طويلاً وفارغاً . كان خريف هذا العام ساحة نزال بين الصيف والشتاء امتد النزال حتى الغى المناطق المحايدة ، والغى كرم المقاتل وشرفه .

★★★

حدث ذلك في فترة الايام القليلة ، التي مهدت لهجمة الشتاء المبكرة . كنت ما ازال نائماً عندما جاءت سهام . احسست بها متمددة بجواري ، ساكنة ،عارية ، فضممتها الي ، وغمغمت :

ـ شلون دخلتِ ؟

قالت :

ـ باب المطبخ كان مفتوح .

سألتها عن الساعة ، فقالت انها التاسعة . عدت للنوم ، وانا افكر : كيف تركت باب المطبخ مفتوحاً .

لم تكن سهام بجواري ، كانت تميل على وتقبلني . عند فتحت عيني ، ابتسمت لي . ومسحت بكفها على وجهي ، وقالت :

ـ الشاي .

قلت :

ـ الساعة كام ؟

ـ تسعة ونص .

ـ كيف دخلتِ ؟

مالت علي ضاحكة :

ـ قلت لك . باب المطبخ كان مفتوح .

ـ مين فتحه ؟

ـ انت تركته مفتوح .

ـ غريبه .

استيقظت وانا اشعر ان سهام غير طبيعية . شيء مافي ابتسامتها ، في تمددها ساكنة بجواري ، جعلني اشعر بذلك . وكانت غريبة بالفعل .

شربنا الشاي في صمت . لم تكن تنظر الي . قلت لها بعد قليل :

ـ مارحتِ الشغل اليوم ؟

ردت ببرود : اليس ذلك واضحاً ؟ كانت اجابتها قاطعة . نفذت الي كحد السكين . سألتها عما بها ، قلت لها انها غريبة اليوم . لم تجب . ساد الصمت بيننا بعض الوقت . سألتني فجأة إن كنت احب ليلى . قلت لها :

ـ احبك انت .

ـ صدق ؟

ـ طبعاً سهام . سؤ الك غريب .

اخذت تتحدث عن ليلى . بنية حبابة ، احبها كثيراً ، اثق بها اكثر من اية فتاة اخرى . . . . وعندما تمددت بجواري على السرير كانت فاترة . كانت تريد مواصلة الحديث عن ليلى . سألتها عن السبب الذي يجعلها تكثر الحديث عن ليلى اليوم . قالت :

ـ ليلى حبابة .

قلت كانت ليلى حبابة دائماً ، فلماذا الحديث عنها الآن ؟ قالت : لكن ليلى شيوعية ؛ قلت : اعلم ذلك . قالت ان ليلى اختفت . لم تأت للدوام ، وعندما سألنا عرفنا انها اختفت .

منذ متى ؟ سألتها بلهفة .

ـ ماتدري ؟

لم يكن سؤ الاً ، بل اتهاماً . وكان شيئاً في لهجتها يوحي بان الاتهام ذو طبيعة مزدوجة : انني اعرف باختفاء ليلى لأن هنالك رابطة سياسية بيننا ، ولأن هناك علاقة

سرية بيني وبين ليلى .

قلت :

ـ ماكنت اعرف .

ولكنها كررت سؤالها :

ـ ماتدري ؟

قلت :

ـ إش بيكي ، سهام ، اليوم ؟

قالت بلهجة مكابرة :

ـ اش بيا ؟

قلت لها انها تتحدث بطريقة رجال الامن . بهتت ، واخذت تنظر الي باستنكار وقالت :

ـ صدقه لله . هاي حجا تقولها عيني غالب .

سألتها : لماذا ، اذن ، تشككت في انكاري بمعرفة اختفاء ليلى ؟ هل اكذب عليها احتقن وجهها وقالت انها كانت تسأل فقط . قالت ذلك بصوت مختنق صغير ؛ واخفت رأسها في صدري .

واخذ جسدها يهتز بالبكاء .

ونسينا الموضوع كله بعد ممارسة الجنس .

★ ★ ★

ودعتني سهام ـ كما هي العادة ـ بوجه حزين وقور . قبلتني بسرعة وانصرفت نمت ساعتين بعد انصرافها . بدت في احلامي وكأنها تتجاهلني . صحوت في الثامنة . كانت الظلمة شاملة . حتى الضوء القادم من مصباح الشارع احتجب . مددت يدي واشعلت الضوء من مفتاح بجانب السرير . أكلت وجبة خفيفة ، وشربت القهوة ، وجلست اكتب . كانت رواية (السؤال) تنمو بين يدي دون مجهود . بدت وكأنها تكتب نفسها .

و في التاسعة والنصف انقطع التيار الكهربائي . ظلمة حقيقية حطت . كان الكلام مايزال كثيراً في داخلي . اشعلت شمعتين وواصلت الكتابة .

كان الصمت ثقيلاً ، ثقيلاً كأن البشر انتهوا . الاصوات الخافتة بدت كهمس متآمرين ، وجادين للغاية . وللحظة ، وانا اواصل الكتابة ، شعرت بالعالم يستعيد روحه البدائية ، العالم كما كنت اشعر به وانا طفل : صامتاً ومشحوناً باحتمالات غريبة ، مفزعة ومفرحة في آن واحد . تلكأ تدفق الكلمات . سمعت البوابة الخارجية تفتح . عزوت ذلك للريح . ولكن حذراً فزعاً تولّد وتخل في الكتابة . قلت لنفسي انها الريح ؛ ولكن فزعاً وشللاً استوليا علي . لقد سمعت البوابة الخارجية تغلق ، وتلا ذلك وقع خطوات .

توقف وقع الخطوات . اخذت انصت بتركيز . هل توقفت الخطوات ام ان ماسمعته كان بمجرد وهم ؟ كان الصمت حياً ، منذراً ، مسكوناً بالرعب كسكون افعى متحفزة . عاودت الخطوات مسيرتها . حاولت ان اجعلها وهماً ، ولكنها الحّت في التجسد .

نهضت فجأة . لقد سمعت خبطات واضحة ، محددة على زجاج باب المطبخ امسكت شمعة ، وسرت الى المطبخ . الخبطات تتواصل على الباب . قلت :

ـ ايوه ، ايوه .

لم يكن للخوف اثر في صوتي . على ضوء الشمعة رأيت الوجه الرائع حزيناً ، ساكناً ، مضغوطاً على الزجاج ، تحيط به هالة من الشعر الاسود منثور ، ومتساقط على الرقبة والكتفين . اسرعت وفتحت الباب . لم استعمل المفتاح لأنه كان ، كما تركته سهام ، مفتوحا . صحت :

ـ ليلى ، ليلى ، مش معقول .

عبرت الى الداخل بسرعة ، وانا اردد :

ـ ليلى ، مش معقول . انت فين .

همست :

ـ عندك احد ؟

ـ لا . انت وينك ؟

قالت ، دون ان تبادلني حرارة اللقاء :

ـ ماتشعل الضو .

قلت :

ـ التيار مقطوع .

سبقتها اقود طريقها الى حجرة المكتب . تعثرت ، واطلقت صرخة خافتة . امسكت بيدها وادخلتها الحجرة ، واحتفظت باليد الباردة . توقفت قليلاً تتأمل الحجرة . سحبت يدها من يدي ، وقالت :

ـ كتب كثيرة عندك .

قلت :

ـ معظمها تيجي وحدها .

ورداً على تعبير التساؤل الذي انطبع على وجهها قلت :

ـ كتب دار الرشيد ، اهداءات ، استعارات ، سرقة .

لم ترد . سارت وجلست على الكنبة الجلدية الخضراء ، بذلك الاسترخاء الذي يميزها . وغطت وجهها بكفيها ، وكأنها تريد بذلك ان توقف هذا الحديث الذي لامعنى له عن الكتب . جلست الى المكتب ، اتأملها ، وقد اخذ عشقها يتسرب الي . مرّ بعض الوقت : انا جالس الى المكتب ، وهي تغطّي وجهها بكفيها . الى اين سوف ننتهي اذا بقينا على هذه الحال ؟ قلت :

ـ ليلى .

كانت العتمة في صوتي ، الحذر والتوجس . ابعدت كفيها عن وجهها ونظرت الي . قلت :

ـ هذا انت وين يابه ؟

صدمني الجرس الزائف لصوتي . مسحت وجهها بكفيها وكأنها تطرد النعاس ، ثم نظرت الي وابتسمت ـ ايه ابتسامة بحق الله ـ ابتسامتها الحزينة المرهقة ، المضيئة رغم ذلك ، ثم مالت نحوي وقالت :

ـ لهجتك العراقية مضحكة . احسن نتكلم بالمصري .

وضحكنا . وكأن الضحك نبهها ، فقالت :

ـ عيني غالب ، سد باب المطبخ والباب الخارجي .

في محاولة لاضحاكها قلت :

ـ لهجتك المصرية تخرّب من الضحك .

ـ اعرف . لكن اللغة للتفاهم .

ـ للتواصل وانت الصادقه .

ـ للتواصل .

قلت بجدية ، مستعيراً حزنها :

ـ اتشاقى واياك . لهجتك المصرية ممتازة بجد .

نهضت . في الخارج بدا الليل قروياً . اغلقت الباب الخارجي بالتر باس ، وباب المطبخ بالمفتاح . وعدت . قلت :

ـ اخبارك ؟ احوالك ؟

ـ زينه .

وضحكت ، لأنها ليست كذلك . قالت :

ـ دا تشوف سهام ؟

ـ ايه .

احسست ان في اجابتى تملصاً من ذكر الحقيقة ، فاضفت :

ـ بتيجي كل يوم .

بدا عليها الذهول . مرت لحظة كانت شفتاها تتحركان دون كلمات ثم قالت بلهفة ، وبلهجة عراقية صميمة :

ـ إش وكت ؟

قلت انها تجيء في العادة بين الثانية والسادسة من بعد ظهر كل يوم . وسألتها عن سبب دهشتها . لم ترد . وساد الصمت بيننا .

كنت ارى في لقائي مع ليلى شيئاً فذاً ، ومن معطيات تنفي كل ماهو معقول او مقبول ، اجتماعياً ، لقاء يتم خارج المصادفات المألوفة ، وحتى خارج المفارقات التي تحدث في الحياة ، وفي الروايات . . . حدث فريد . . . رأيت اننا ، نحن الاثنين ، سوف نعيش معاً وفوق قوانين الواقع اليومي . سوف نعمل سوياً . ساكون انا الغطاء العلني للمقاومة السرية . اراها وهي تخرج في الليل ، والانوار مطفأة ، وتعود في الليل . اما انا فاستطيع التحرك في كل الاوقات .

ـ وسهام ؟

قالت ليلى . فقلت :

ـ سنجد لها حلاً .

نظرت الي بدهشة . وادركت انني اجبت على تساؤ لي لاتساؤ لها .

صمتنا ، دون ان نزيل الالتباس الذي حدث . وفجأة اضاءت الانوار .

قالت ليلى بهدوء :

ـ طفّي الضوا .

ـ كلها ؟

قالت ، بل الاضـــواء التي في خارج البيت والمطبـخ ، ويكفي في هذه الحجـرة اشعال الاباجورة . نفّذت ماطلبت ، وعدت للجلوس . قلت :

ـ من غير ماتدخل في شئونك الخاصة ، ماسبب انقطاعك عن العمل واختفائك ؟

قالت : الم تر بيان المكتب السياسي ؟ بعدهاختفيت .

قلت :

ـ فين ؟

ادركت على الفور سخافة سؤ الي ، فقلت :

ـ آسف للسؤ ال .

قالت :

ـ فين ؟ عند سهام .

جاء دوري لاندهش :

ـ سهام ؟

ـايه .

ـ مش معقول .

قالت :

ـ اهلها كانوا مسافرين .

وحاولت ان اتذكر إن كانت سهام قد قالت شيئاً عن ذلك ، ثم قلت :

ـ ماقالت لي .

ـ اعرف . اهلها يرجعوا الليلة بالطيارة .

سألتها :

ـ سهام ماقالت لك انها بتيجي يومياً هنا ؟

نظـرت الي طويـلاً ، نظـرة ضاحكـة ، معـابثة ، محملة بلوم خفي ، دون ان تكون جادة في ذلك ، وقالت :

ـ سهام تقول قطعت علاقتها بيك .

ـ كيف كانت تفسر غيابها ؟

قالت وهي تنطلق في ضحكة طويلة :

ـ تقول انها بتداوم بعد الظهر .

قلت :

ـ صحيح . بتداوم هنا بعد الظهر .

لم يبد عليها انها استاءت لبذاءة التلميح . كانت تنظر الي نظرة غريبة جداً ؛ انتقلت الي كصدمة كهربائية . اخذ قلبي يدق بعنف . كان يدق في اذني . استطعت ان اقول :

ـ ليلى ؟

قالت بصوت مختنق ، هزّ كياني بعنف :

ـ اطفى النور .

كان صوتها مبحوحاً ، لاهثاً .

ـ ليلى ؟

قلت . فكررت :

ـ طفّى النور .

اطفأت ضوء الاباجورة . احسست انني اهبط الى قاع بئر مظلم . والصمت . كان صمت احتباس انفاس وتحفز ، لا صمت الاسترخاء . كنت اسمع ليلى تقوم بحركة غير مفهومة . ماذا يحدث ؟ حاولت ان اسألها . كان صوتي محتبساً . وقلبي يدق بعنف . ثم ناديت بهمس :

ـ ليلى . . ليلى . . . !

لم اسمع رداً .

ماذا افعل الآن ؟ هل اشعل الضوء ؟ ان مجرد التفكير في ذلك ملأني بالفزع . مر وقت لاأستطيع تحديده قبل ان اسمع صوتها . قالت :

ـ تعال اقعد يمي .

تظاهرت انني لم اسمعها . كررت همسها بوضوح وبطء :

ـ غالب ، تعال اقعد يمي .

ماذا افعل الآن ؟ لم يكن لي خيار امام همسها الملحّ ، الذي لم يتوقف . نهضت . احاول ان اتقدم ولكن المكتب يصدني من كل اتجاه .

همست بغضب :

ـ اش بيك ؟

ـ مش شايف .

همست بفحيح :

ـ اش بيك ؟ اعمى ؟

ـ ماد اشوف .

واخذت اتحرك في جميع الاتجاهات ، وانا ارتطم بالجدار مرة ، وبالمكتب مرة ، وبالمدفأة الكهربائية والكراسي مرات . امسكت يد صغيرة ، باردة بيدي ، وهمست ليلى :

ـ قرب امش ماتخاف ، اقعد .

ولكن على اي شيء جلست بحق الله . وتحسستها وقلت :

ـ ليلى ، انت عارية .

اطلقت ضحكة صغيرة . قلت :

ـ انني ثقيل عليك .

همست :

ـ قبلني .

وفكرت : كما في افلام التلفزيون المترجمة « قبلني » . قلت :

ـ فين وجهك ؟

ـ مادا تشوفه ؟

قلت :

ـ كل شيء اسود قدام عيوني .

ـ حتى انا ؟

ـ كل شيء .

احسست بها تهتز ، حتى فخذاها اللذان اجلس فوقهما . فقدت توازني وكدت اسقط ، فتشبثت بنعومة طيّعة ، اكتشفت انه شعرها . قلت :

ـ كنت ح اوقع .

لم تهمس هذه المرة ، بل قالت بصوت خافت :

ـ ماانت عنيد .

اربكتني كلمة « عنيد » . مامعنى هذا ؟

لفت ذراعها حول ظهري ، وامسكت برأسي ووضعته على كتفها . سرى ارتخاء في مفاصلي فقلت بلسان ثقيل :

ـ رايح انام .

قلت بنعومة :

ـ نام ، عيني ، نام .

وكأنها تهدهد طفلاً .

هل نمت ؟

جذبت انتباهي حركة غريبة ، خارج حجرة المكتب ، في المدخل الذي يؤدي من البوابة الخارجية الى باب المطبخ . كنت استطيع أن ارى ذلك من الشباك المطل على المدخل . لم تكن الحركة واضحة في عتمة الفجر . ولكنني كنت ارى رجالاً يقتربون ويبتعدون عن بعضهم ، وكأنهم يلعبون لعبة ما . انفصل عنهم رجل استطعت تمييزه على الفور . انه لابس البذلة والكوفية الصفراء ، والوجه الشديد الصفرة ، الذي كان ضمن الرجال الذين استوقفوني وانا عائد في سيارة الاجرة للبيت . انفصل عنهم وضغط وجهه على زجاج الشباك ، واخذ ينظر في عينيّ .

فكرت : لقد وقعنا في قبضتهم ! ولكن ليلى ، فيما يبدو ، لم تتنبه الى وجودهم وكيف استطيع ان اشرح لها الموقف ، وعينا الرجل مثبتتان على عيني . بل ها انا ارى اثنان آخران ينفصلان عن كتلة الرجال ؛ وواحد يقف على يمين الرجل الاصفر الوجه ، والثاني على يساره .

ادرت وجهي قليلاً الى الشباك الآخر . كانوا هنالك ايضاً . كنت اعلم الآن انهم يقولون لانفسهم « هاهي البنية التي كان ينتظرها » . ولكن ماذا تفعل ليلى بالضبط ؟ لقد ادخلت يدها داخل بنطلون بيجامتي ، واخذت تعبث . همست لها :

ـ احنا محاصرين .

قبلت صدري وقالت :

ـ ماتدير بال .

ـ الشرطة ليلى .

ـ انت تحلم .

وضحكت ، وهي مصرة على عبثها .

★★★

مازلت جالساً الى المكتب ، وليلى جالسة على الكنبة الجلدية . مضى علينا وقت طويل ونحن نتحدث . لم اعد اذكر ذلك الحديث . اجل اذكر . كان وجهها في الظل ، لأن ضوء الاباجورة كان موجهاً الى الحائط . قالت انها تشعر بالبرد . فاشعلت المدفئة الكهربائية . فكانت بيننا روحاً انيساً ، اليفاً كقطة . ماذا حدث بعد ذلك ؟ اجل ، تذكرت . حدثتني عن اخيها ، الذي يبلغ الثالثة عشر من عمره . بعد اختفائها بثلاثة ايام اعتقله الأمن رهينة حتى تسلم نفسها . افرجوا عنه بعد اربعة ا يام . لقد استعملوا معه الزجاجة المهشمة العنق . وقد اعتقلوا الطبيب الذي كان يعالجه .

يبدو انها تحدثت عن تلك الزجاجة طيلة ساعات كاملة . اتذكر ، انها تحدثت وكأنها كانت تكلم نفسها . قالت انهم يستعملون زجاجة بيبسي كولا صغيرة . استعملوها مع اخيها .هشموا الجزء الاعلى من عنقها ، وارغموه على الجلوس فوقها وادخلوها كلها في مؤخرته . انه بالاضافة الى الجروح الناتجة عن ذلك حدثت شروخ ، تحتاج الى شهور لعلاجها . وكيف يمكننا علاجها ، قالت ، وهم يعتقلون كل من يعالجه ؟

قلت :

- ليلى غيّري الموضوع .

- اغيّر الموضوع ؟

قلت :

- الا اذا كان الكلام يريحك . شاعره بالذنب ؟

قالت :

- لولاي . . .

قاطعتها :

- كانوا حايسووا معاك نفس الشيء واخوك كان رايح يعتقل على اية حال . لأنه راح يرفض دخول الحزب . . .

ربما كان الارهاق هو الذي دفعني الى أن اقول :

ـ سمعت انهم يستعملون مع النساء زجاجات مش مهشمة . يمكن حتى يسهل عليهم ممارسة الجنس معهن .

انطلقت تضحك ، وقالت :

ـ ماهم يمارسوه مع الولدِ همينا .

ـ اعرف .

ـ تعرف ؟

قلت لها :

ـ كل الناس تعرف .

انتقلت ليلى بعد ذلك الى المسائل ، التي خجلت انا من طرحها . رداً على اسئلتها ، قلت ان الطابق العلوي ، الذي كان يسكنه ايوب فارغاً ، وتستطيع ان تستعمله كيف تشاء ، ولوقت غير محدود . شكرتني ، وقالت انها لن تطيل البقاء ، فهنالك خطة لخروجها من العراق . سألتها إن كان ذلك سهلاً ؟ قالت انها سوف تخرج من خلال الطريق البري الموصّل الى سوريا ، وانها سوف ترتدي الملابس الشعبية ، وتستعمل جواز سفر مزوّر .

هل ينجح هذا الاسلوب في الخروج ؟ سألتها . قالت انه ناجح حتى الآن . الححت عليها في القول انه لاداعي للاستعجال ، وانني اعتقد ان احداً لن يشك في وجودها في بيتي . قلت لها ان بقاؤ ها معي يسعدني .

في تلك اللحظة نظرت الي طويلاً وقالت :

ـ شكراً .

قلت لها ان تلك الرسالة كانت موجهة لها . قالت انها تعلم ذلك اما بالنسبة الى سهام فقد رأت ليلى انها يجب ان تجيء كالمعتاد ، وخلال مجيئها سوف تختبىء ليلى في الطابق الاعلى .

قلت :

ـ كالمعتاد ؟

ابتسمت وقالت كالمعتاد . يجب الا نثير عندها اية ريبة .

صعدت معها الى الطابق الاعلى ، وفتحت لها باب حجرة النوم . هبطت الى حجرتي ، وكانت الساعة فجراً .

- ٤ -

جاءت سهام مبكرة جداً . استيقظت عليها وهي تتمدد بجواري بكامل ملابسها . قالت :

- اصح .

واخذت تمطرني بقبلاتها . قبلات سريعة صغيرة تتنقل على وجهي كله ورقبتي . كانت تلك وسيلة جيدة في الايقاظ ، وسيلة لذيذة ، وكأنها امتداد لحلم جميل .

قلت :

- الساعة كام ؟

- بالواحدة .

- كم ؟

وضحكت :

- بالتسعة .

واصلت تقبيلي . قلت :

- جايه بدري .

- ماتريدني آجي بدري .

ضممتها الي ، وقلت :

- اريدك .

قالت انها ، ولايام كثيرة ستجيء مبكرة . « لماذا ؟ ماذا حدث ؟ » قالت انها سوف تداوم بعد الظهر فقط . قالت « انهض الآن واستعد » قلت « استعد لأي شيء ؟ » قالت :

- دوام . شغل .

قلت :

- دوام ؟

ضحكت وقالت :

- الدوام الشغل نسيت اني رايحه اداوم هنا ؟

وتذكرت بشكل انني قلت ذلك التلميح البذيء « ماهيه سهام بتداوم هنا بعد الظهر » . ولكن كيف عرفت سهام بذلك ؛ هل بامكانها ان تعرف .

جلست على السرير في مواجهتها ، وهي متكئة على كوعها ، تطالعني بنظرة ضاحكة ، معابثة . قلت لها انني سابقى معها معظم الايام ؛ سوف اذهب الى المجلة بعض الوقت واعود بسرعة . قالت انه بامكاني ان اذهب للشغل واعود ، فتكون هي اقد اعدت الطعام ، واستحمت ـ قالت انها جاءت معها بقميص نومها ـ وبعد ذلك ننصرف الى الشغل .

الشغل ؟ مرة اخرى ؟

اتفقت مع ليلى الا اثير ريبة سهام ، ولكن مامعنى هذه التلميحات ؟

سمعت حركة خفيفة من الحجرة التي فوقي . صوت اقدام مسرعة ، ثم هبوط ثقيل مفاجيء . مابال ليلى لاتلتزم الحذر ؟ رأيت سهام توجّه نظراتها الى السقف وتبتسم .

هل انا في حلم ؟

نهضت سهام وقالت انها ستعد لي القهوة . وكان ذلك مناسباً تماماً . فانا بالفعل ، بحاجة الى قهوة تخرجني من هذا الخدر الذي انا فيه.كل شيء حولي ـ هاتان المرأتان خاصة ـ يبدو غير حقيقي ، وكأن تدبيراً ما قد أعد ، تدبيراً يحيط بي ويحاصرني ، وقد اصبح خروجي منه مستحيلاً .

كانت ليلى تتحرك في الحجرة العليا حركة لايمكن وصفها بالحذر الذي اتفقنا عليه . جاءني احساس بان هنالك ايقاعاً او نظاماً لحركة ليلى . اتكون رسائل سرية تبعث بها الى سهام ؟ هذه الحركة الخرقاء في الحجرة العليا ، وابتسامة سهام وهي تنظر الى السقف ، هل تندرجان في سياق اتفاق ما ؟

دخلت سهام الى الحجرة ، حاملة صينية القهوة ، فشهقت . كانت ترتدي قميص زهري اللون ، وقد تركت جدائلها تنساب على كتفيها . بدا في الوجه لمحة من ذلك التحفظ الانثوي الذي يسيطر على جسد مهدد بالانفلات والتبعثر . وفي الجسد المنساب تحت القميص بدا الجسد الانثوي بكل عطائه ، وخصبه . وكانت نعومة خضرة تحيطها كالهالة . كدت اصرخ : « احبك » ، وعلى الفور اخذت اقارن بينها وبين ليلى . امرأة حقيقية ، لامجرد دميه مزوّقة .

تمددت على السرير الواسع واضعة صينية القهوة بيننا . صبت القهوة مركّزة

نظرتها في الفناجين وقدمت لي فنجاني بذلك الحياد ، الغياب الانثوي .

اخذت اشرب القهوة وعيني عليها . مالت بجذعها الى الجانب الآخر وتناولت علبة السجاير . سحبت سيجارة واشعلتها ، ثم مدت لي اياها ، واشعلت لنفسها اخرى . في تلك اللحظة تخيلتها زوجة . زوجة في قميص النوم هذا ، وفي حركتها وتعبيراتها المحايدة .

عندما انتهينا من شرب القهوة والتدخين ضممتها الي واخذت اهذي هذيان عشق . ولكنها فاجأتني . كانت كلمات الحب ومداعباتي تدفعها الى الضحك . اربكني ذلك . قلت :

ـ سهام ، مالك ؟

ضحكت وقالت :

ـ مادري .

ولكنني لم استطع ان اتوقف . ازددت اقبالاً ، وبينما انا في حمى العناق قالت انه علي ان انهض الآن .واحلق ذقني وافطر ، ريثما تعد هي الطعام . ولكنني كنت مصمماً ان اهزم ضحكها ، واسمع لهاثها المحموم . بدأت تستجيب ، وتبادلني العناق ؛ غير انني كنت اشعر ، انها بشكل ما ، لاتغالب الضحك . قلت لنفسي : يجب ان انهي هذه المهزلة ، وحاولت الابتعاد عنها . ولكنها تشبثت بي ، فاستجبت .

كنت احس بها تتفلت مني فاصبحت اكثر شراسة . كنت اود الاحتفاظ بها ، مهما كانت النتائج . عضضت كتفها القوي ، المستدير ، المتين العضلات ، فنظرت الي بعينين حزينتين ، وهمست همساً خشناً :

ـ لا ، وداعتك !

زادني ذلك هوساً ، ففحّت :

ـ انت تحبني ؟

ـ ماتعرفي ؟

ـ تحبني ، تحبني ؟

شعرت بذلك وكأنه نوع من المزاح . اعني ذلك القبول بالالم ، والتظاهر بعدم

فهم الدافع الحقيقي وراءه ، ونسبته الى الحب . وكأنها تداعب طفلاً باغاظته . عندها ، وهي تكرر « تحبني ؟ يحبني ؟ » انفلت عقال سادية في داخلي ، كنت اجهلها عن نفسي . سادية امتزجت فيها الرغبة . بشفاء غيظي ، بهوس التعجل باكتمال النشوة والانتهاء من هذا الموقف برمته . كان انينها المتألم ، المطالب بالمزيد من الالم ، هو منحتها لي . شعرت بالرضى وانا انتهي .

ثم سكنا كانت تخفي رأسها في صدري ، وتهمس فيه بشيء لم اتبينه . ولكن جرس صوتها كان يحمل ضراعة . ناديتها ، استجابت بشفتيها وانفاسها الثقيلة على صدري . قلت :

ـ متونسة ؟

ازدادت التصاقاً بي وكان ذلك ردها .

ولكن مامعنى هذا ؟ الاتكف ليلى عن الحركة ؟ الاتهمد قليلاً ؟ وما بال سهام لاتنتبه لذلك ؟ هل . . . ؟ وخطر لي سؤال : من التي احبها ؟ حبيبة الليل ام حبيبة النهار ؟ ليلى ام سهام ؟ وامسكت بكتف سهام احتمي به من الاجابة .

تفككت سهام ببطء ، وذابت في استرخاء كامل . ناديتها :

ـ سهام !

فلم تجب . علمت انها نائمة .

استيقظت بعد قليل ، وقالت :

ـ نمت ؟

قلت :

ـ دقائق .

نامت حوالي ربع ساعة . وعندما نهضت فعلت ذلك بحيوية . دخلت المطبخ واخذت تعد الغداء .

كنت قد قررت ان اصعد الى الطابق العلوي واطلب من ليلى ان تكف عن الحركة مادامت سهام موجودة . صعدت درجات السلم بهدوء ، حتى لا اجذب انتباه سهام شاهدت السلم تغطيه طبقة من الغبار . مقبض الباب ترك آثار غبار على كفي . فتحت الباب ببطء ، محاذراً ان يصدر عنه صرير قد يثير الانتباه . انفتح الباب بصعوبة ، واسفله يحتك بالارض .

دخلت الحجرة . لاوجود لليلى ، مامعنى هذا ؟ الحجرة خالية ومترتبة ، لم

يدخلها احد منذ اسابيع طويلة . خرجت من الغرفة وبحثت عن ليلى في الحمام ، وعلى السطح . لاوجود لها .

عدت الى الحجرة . ادوات ايوب الرياضية ، ملابسه التي لايوجد فيها بذلة واحدة : مجرد قمصان وبنطلونات وكنزات ، والسرير لم ينم عليه احد.وكلها مغطاة بطبقة رقيقة من التراب .

كانت الحجرة تخنقني . خرجت منهاووقفت على رأس السلم ، واخذت ابحث عن آثار اقدام صعدت ليلة الامس على الدرجات المتربة . لاشيء ، لاشيء . وتذكرت فجأة . البارحة ، وبناء على طلب ليلى ، كنت قد اغلقت الباب الخارجي ، وباب المطبخ فكيف كان بامكان سهام ان تدخل ؟ حتى لوكانت تملك مفتاحاً ، فمن المستحيل ان تدخل من البوابة الخارجية دون ان يفتح لها احد من الداخل .

هنالك احتمال ان تكون سهام قد ارتقت سور الحديقة وهبطت منه . ولكن ، هل بامكانها ان ترتقي سوراً ، علوة ثلاثة امتار ، امام الجير ان والمارة ؟ ذلك مستحيل ، فنحن في بغداد .

اخذت اهبط السلم ، وانا اتفحص درجاته باقصى قدر من العناية والتدقيق باحثاً عن آثر اقدام ليلى . لاشيء سوى آثار اقدامي وانا صاعد . وبعد ؟ حجرة المكتب . . هي التي سوف تعطيني الجواب الشافي .

فتحت باب الحجرة بحذر . . . لماذا الحذر ؟ لست ادري . خطوات الى الداخل . وعلى الفور التقطت عيناي المشهد . وكأن ما مر بي لم يكن يكفيني ، فهنالك على الكنبة الجلدية آثار جسد عار ، قد جلس عليها احد منذ وقت ليس بعيداً كانت الطبقة الرقيقة جداً من الغبار تحمل آثار الساقين ، في اتصالهما ، وحين ينفرجان . وعلى المسند آثار الظهر واضحة . حتى آثار سمانتي الرجل وهما ملتصقتان بحافة الكنبة بدا واضحاً .

اقتربت من الكنبة ، متوقعاً ان تزول بمجرد اقترابي منها . ولكنها الحّت في الوجود . عاينت الآثار عن قرب : تخطيط جسد ليلى موجود بكماله . بل هنا ، ايضاً ، على مسند الكنبة أثر ذراعها . ثم خطرت لي الفكرة التالية : هل جاءت سهام اليوم ؟ هل وجدت سهام اصلاً ؟ انني لااسمع صوتاً لها . وخرجت من حجرة المكتب الى المطبخ .

سهـام هنـالك امام موقد البوتاغاز ، ترفع ذراعها الايسر بغطاء الحلة ، وبيدها اليمنى تحرك الطعـام في الحلة بحـركـة دائـريـة . التفتت نحـوي بشكـل مفـاجيء وابتسمت . فاضـاء وجههـا . وعنـدما اقول « اضاء وجهها » فانني اعني ذلك تماماً . ولّدت في داخلي رغبة هوجاء في ان المس سهام ، ان احتويها ، ولاافقدها ابداً . كم هي رقيقة ولذيذة ، وهي تعد الطعام ، وتلقي علي تلك النظرة الضاحكة الودودة . في وجههـا حلاوة وخفـة دم وفي جسـدهـا تعبـير فتـوة عارمـة . لقـد اصبحت حركـاتها وتعـابـيرهـا خفيفة ، انيقة . هاهي تقترب برأسها من حلة الطعام ، ثم تبعد رأسها وتقف منتصبـة . تستـدير وتنظر الي ، وتنطلق ضحكة صافية منها ، وهي تنظر الى . تغطي الحلة ، وتضع الملعقة فوقها وتسير نحوي . تقول بمرح :

ـ اش بيك قلب ؟

وتستدير لتعود ولكنني امسك بها واضمها ، وهي مندهشة ، تتساءل عما حدث لي ، وتشاركني العناق ، ثم تحاول ان تنفصل عني ، تقول ان الطبيخ سوف يحترق ، اقـول لها : فليحـترق . وتسألني عما بي ، فاقـول لها انني احبها ، مفتون بها ؛ تبتعد وتقول : احلق ذقنك وتحمم وافطر ، امامنا النهار كله للحب .

بحـركـات ميكـانيكيـة خالصـة حلقت ذقني وتنـاولت افطاري . كنت شارداً ولكنني لاافكر في شيء كنت اعيش فراغاً خالصاً .

ثم طرأت لي فكـرة ، احسـاس عام بدأ يتضـح . هل سهام هذه العذوبة التي تشبه النسمة والحلم ، هي نفس سهام التي كنت اراها في حجرة الفتيات . . . اعني سهـام السمينـة ، البطيئة الحركة ، الباردة كالرخام ، القاتمة كلون فستانها الكابي ؟ ان هذه العذوبة المفاجئة تضعها في ضوء مشبوه . وهذا الطابع الاثيري الذي تبدلت فيه هذا الصباح يجعلها مهددة بالتلاشي في كل لحظة مثل ليلى .

وقفت بـبـاب المطبـخ اتأملها . تنظر الي وتبتسم ، ثم تعاود انشغالها بالطعام بعد قليل تقول لي ، دون ان تلتفت الي ، انني اربكها . قلت : لماذا ؟ قالت :

ـ تباوع لي بطريقة غريبة .

كان ذلـك صحيحـاً . فانـا لم ارفع عيني عنها . ولكن ماالذي تعنيه بقولها انني انظر اليها بطريقة غريبة ؟

قلت :

ـ طريقة غريبة شلون ؟

قالت بخفة روح اسرتني :

ـ يعني هيجي .

ومحاولة ان تقلد نظرتي . كانت نظرة الابله الذي لايصدق مايحدث امام عينيه . وسألتني ، ماذا اسمي نظرة كهذه ؟

قلت :

ـ اسميها نظرة حب .

ـ صدقه لأالله .

وعلى الفور احمرّ وجهها . اقتربت مني . قبلتني قبلة سريعة على جبيني ، ثم ابتعدت ، واخذت تعد السلطة . ظللت واقفاً اتأملها من الخلف ، وانا ارغب بجنون ان اعتصرها بين ذراعي ، انهش لحمها باسناني ، اجعلها لاتغيب عن عيني دقيقة واحدة ، ولكنني كنت اقاوم نفسي بضراوة . التفتت الي فجأة ، وهي تبتسم ابتسامة كبيرة ، وقالت :

ـ بعدك تباوع لي !

قلت :

ـ طبعاً .

اطلقت ضحكة رنانة ، متصلة ، وتوقفت يداها عن تقطيع السلطة ، وقالت :

ـ اش بيك اليوم ؟

واستمرت ضحكتها .

ـ ٥ ـ

استيقظت من نومي فزعاً .

كانت ظلمة كثيفة ، متراكبة ، لاتستطيع وانت محاصر بها ان تحدد الوقت ، او المكان . ماجعلني استيقظ فزعاً هو ان شيئاً مالمس وجهي . لمسة خفيفة مثلجة . احسست بها تستقر على انفي ثم تنساب . اخذت اصغي ، محاولاً خلال السمع ان اتعرف على حضور في مكان ما من الحجرة . لاشيء غير الصمت ، واصوات الحديقة تأتيني خافتة كأنها قوام الصمت وهيكله .

حاولت ان اعود الى النوم ، تاركاً ذلك الحضور يتلاش من تلقاء ذاته ولكن حركة

ايقظتني . ليس صوت الحركة ، بل الحركة ذاتها . اخذت اتنصت ، وانا مغمض العينين . لقد اهتز سريري . وبالمناسبة ، اين انا ؟ القاهرة ؟ عمان ؟ القرية ؟ . . تذكرت . . هذه بغداد . وانا في بغداد . وسهام كانت هنا . . . كانت ترتدي قميص النوم ، ومضت . فتحت عيني . لمع شيء اشبه بالنصل ، نصل خنجر . . . لا بل هنالك نقطتان مضيئتان عينا قطة يلمع فسفورهما في الظلمة ؟

قلت :

ـ مين ؟

كان صوتي مختنقاً فاعدت السؤال . ثم مددت يدي واضأت المصباح الذي بجوار السرير . كانت ليلى هناك . كانت تجلس على طرف السرير ، مديرة لي ظهرها ، ظهرها الانيق المنحوت بدقة تماثيل الالهات ، وقد التفتت الي بعنقها الطويل ، وفي عينيها نظرة فائقة الود .

قلت :

ـ ليلى .

تنهدت ليلى وقالت :

ـ عيني ضايجة .

قلت :

ـ يديك باردة .

واحسست انني الومها . قالت بضيق :

ـ ضايجة ، ضايجة ، اقول لك ضايجة .

من الطبيعي ان يدركها الملل ، وحيدة في حجرة ايوب المتربة ، والساعة الآن قد بلغت العاشرة . . . ولكن هل ادركها الملل الى حد ايقاظي من نومي ؟ الم يكن بامكانها ان تنتظر حتى اصحو ؟

كان ذلك رد فعلي الاول . رد فعل انسان ارتوى من جسد امرأة أخرى . ثم تذكرت ان هذه هي ليلى ذات العينين الذهبيتين ، التي كانت اللحظة المضيئة في قتامة يومي ، وانها ، وانها امضت اياماً كثيرة وحيدة مع سهام ، وانها الآن بلا مكان تأوى اليه . واستعدت انها الآن وهي جالسة على هذا السرير تخوض معركة حتى الموت .

ثم فطنت :

ـ ما اكلت ليلى ؟

ـ اكلت .

ـ اش وكلت ؟

قالت انها اكلت منذ ساعتين . لقيت طبيخاً وارزاً في الثلاجة ، فاكلت كفايتها .

امسكت يدها . كانت مثلجة . قلت :

ـ ايدك مثلجة .

قالت :

ـ ادري . غسلت المواعين .

اخذت ادَّفيء لها يدها ، وحتى لايساء فهمي ، قلت :

ـ شربت شاي ؟

ـ لا .

ردت بدهشة . قلت :

ـ ممكن تسوَّي لنا شاي ، رفيقه ، اذا ماكو زحمة ؟

اطلقت تنهيدة ، فنهضت . ابتسمت وقالت :

ـ ممنونه رفيق .

وخرجت .

خلال غيابها راودتني مشاعر الندم ، والاحساس بالذنب . استعدت جلستها على السرير ، وهي تشكو بشبه نحيب : « ضايجه ، ضايجه ، رفيق . . » في حين كنت مستاءً لأنها ايقظتني من النوم . الم يكن باستطاعتي ان استجيب بشكل اكثر انسانية ؟ وانتهيت عاشقاً . وخلال ذلك كانت سهام تظهر وتختفي ، في خيالي . بدت سمينة ، باردة كالرخام ، عابسة ، تقف بكل جهامتها بيني وبين ليلى .

عادت ليلى حاملة صينية عليها ابريق والاستكانات والسكر . وضعتها بيننا على السرير ، وجلست متربعة . بسمة اليفة ، خفيفة الظل على وجهها . قالت :

ـ عايز كام سكر ياسعادة البيه ؟

ـ معلقة صغيرة ياهانم .

انصرفت بتركيز الى صب الشاي واذابة السكر .

اخـذنـا نشـرب الشـاي في صمت ، ورغبة في البوح يمتلىء بها قلبي ، ولكن ذكرى الجسد الذي ارتويت منه تصدني . قالت فجأة :

ـ ماتخاف احد يدخل علينا ؟

ـ مش فاهم .

ـ مش فاهم ؟

ـ مش فاهم قصدك من السؤال . تحولت الى اللهجة المصرية :

ـ مش خايف حد يدخل علينا فجأة ؟

قلت :

ـ حايدخل ازاي ؟

ـ زي ما دخلت انا مبارح .

قلت لها انني اغلقت البوابة الخارجية بالتر باس ، وباب المطبخ بالمفتاح . وهكذا فان احداً لن يستطيع الدخول الا اذا ضرب الجرس ؛ واذا فعل فلن افتح له واضح ؟

قالت :

ـ عيني ، اخاف موت ، اخاف لما اسمع الجرس يضرب .

قلت :

ـ كنت اعتقد انك اكثر صلابة .

ـ كنت . .

لمعت عيناها فجأة (بدهشة ؟ بغضب ؟) وقالت :

ـ سهام جت اليوم ؟

ـ ما حسيتي بها ؟

كنت مندهشاً بالفعل . قالت :

ـ ما حسيت . كنت نايمة .

تذكـرت اننـا لم ننم البـارحـة حتى الفجـر ، وانهـا قالت لي انها لن تنام قبل ان تنظف الطابق الاعلى وتجعله مكاناً صالحاً للسكن .

قالت :

ـ اذن ، سهام بعدها تيجي لك ؟

ـ ماتعرفي ؟

ـ اعرف شلون ؟

واضافت ان سهام قالت لها ، انها اصبحت تعمل فترة ثانية بعد الظهر ، ولم تقل شيئاً عن مجيئها اليك .

ثم نظرت الي بحدة وقالت :

ـ اذن ، سهام تيجي لك كل يوم ؟

كنت خائفاً بالفعل . هذه ؟ ليلى ؟

قالت :

ـ اشوف ماترد .

ـ ما انا . .

قاطعتني :

ـ من الثنتين للسته ؟

قلت :

ـ ما انا قلت لك .

ـ قلت لي ؟ اش وكت ؟

ـ امبارح ؟ نسيتي ؟

ضيَّقت عينها ، فبدت وكأنها تعابثني ، وقالت :

ـ ايه مبارح .

اقترب جفناها ، وتاهت نظرتها ، ثم قالت : ـ ماتذكر .

قلت :

ـ تكلمي بالمصري .

ـ لويش ؟

ـ بتصير ي اكتر انسانية .

ـ تتدلل .

قالت ذلك بحزم ، واستمر التعبير الصارم على وجهها .

بعد فترة صمت قالت :

ـ مبارح ؟ قلت لي ايه مبارح ؟

ـ قلت لك ان سهام بتيجي يومياً من الثنتين للسته .

قالت تستعجلني :

ـ وايه كمان ؟

ـ واتفقنا ، انا وانت ، اني ماقولشي لسهام انك موجوده هنا .

قالت بدهشة :

ـ ليه ؟

ـ اتفقنا . . .

ـ ما انا كنت مختفية في بيتها ، فايه اللي يمنع انها تعرف اني موجوده هنا ؟

قلت :

ـ انت اللي طلبتِ .

ـ وانت ؟

قلت :

ـ انا ؟ وافقت .

ـ وافقت انها تيجي كل يوم ، وانا هنا ؟

قلت :

ـ انت طلبت .

وتزايد انفعالها :

ـ وتمارس معاها الجنس كل يوم ، كل يوم ، وانا موجودة ؟

واشارت بيدها اشارة بذيئة .

قلت :

ـ ليلى ؟

كان سؤ الي قد قيل بجرس ، وكأنني اتساءل : هل انت ليلى حقاً ؟ في حين اردت ان الومها على تلك الاشارة البذئية . ولكنها كررت الاشارة البذئية ، ومضت تقول :

ـ كل يوم ! كل يوم ! وبتصر انك بتحبني ؟

قلت لها :

ـ ماانت عارفة الحكاية .

ـ عارفة شنهو ؟

ـ الحكاية يعني .

تحولت ليلى الى لهجة عراقية ، واخذت تزعق :

ـ الحكاية يعني ! ماانت عارفه ! عارفه الحكاية ! عارفه شنهو خوي والحكاية

صمتنا ، نحن الاثنين . صمتنا طويلاً . ثم تكلمت . كانت تحدث نفسها قالت : إنها تحاول ، تحاول جاهدة ان تتذكر ، ولكنها عاجزة ، عاجزة تماماً . لم تعد تتذكر شيئاً . اجل ، من المستحسن ان تستمر سهام في المجيء كل يوم ، وأن تفعلا ماتفعلانه كل يوم ؛ وان لاتعلم ان ليلى موجودة هنا . ساضع اذني لصق خشب السرير ، واصغي لتأوهاتها . . . هل تتأوه كثيراً ؟ عندها سوف اعلم ان كل شيء على مايرام .

ثم صمتت .

قلت :

ـ ليلى .

لم تسمعني . بدت تائهة تماماً ، وكأنها نسيت نفسها ونسيتني . كان من الواضح ، ان كل ماتفعله وماتقوله كان في اطار ذلك الغياب الكثيف عما حولها . بدت لي محاطة بمجال من الرهبة ، وكأن مجرد اقتحام ذلك المجال سوف يصعقني . وانا خلال ذلك اتساءل : « اين كانت تختفي ليلى هذه . . . ؟ » واتذكر ليلى ذات العيون الذهبية .

مدت يدها ، وهي ماتزال في ذلك الاستغراق ، واخذت تداعب كتفي ثم زحفت يدها واخذت تداعب ابطي . فانفجرت ضاحكاً . ولكنها لم تتوقف ولم تلاحظ الضحك الهستيري الذي انطلق مني .

انتفضت فجأة وقالت بلهوجة :

ـ عيني عباس . انا مخربطة .

قلت وانا ابعد يدها التي تداعب ابطي :

ـ عباس ؟

ـ اقول انا مخربطة . انسى هوايا اشياء .

ولفتني الدوامة ، وعبرها كنت انظر الى ليلى . تغرّست في وجهها فاجتاحني الرعب : بحق الله . . هل كنت اعمى ؟ هذه ليست ليلى ، لاعلاقة لهذه الفتاة بليلى . . . كيف انخدعت . . . وتضيء في ذهني لمحة تذكر خاطفة . . هذه ، أيضاً ، اعني تلك التي جاءت اليوم ، لم تكن سهام . اعرف ذلك . كنت اعرفه . كيف ؟ كيف ماذا ؟ هل اسأل هذه الليلى ؟ يشلني الرعب . احاول ان اتكلم ، فلا يصدر عني صوت . امد يدي لالمسها ، فلا استطيع . اجاهد ، فانجح واقول :

ـ انا في حلم ؟

تنظر الي الفتاة بعينين سوداوين ـ بنفسجيتين ، كعيني فتيات الاعلانات . . . عينين لاتقولان شيئاً .

ـ٦ـ

فاجأتني سهام اليوم مرتين . لم تعطني فرصة كافية لفهم ملابسات الموضوع ، وبالتالي فرصة للتوضيح ، والدفاع عن نفسي .

في المرة الاولى كنت جالساً في الحجرة المخصصة لي في المجلة ، وكان يزورني صحفياً في احد الاقسام الثقافية التابع لاحدى الصحف . قال انه يريد اجراء حوار معي . رحبت به وبالحوار . تقدم الي باسئلة مكتوبة ، وقال انه يفضّل اجابات مكتوبة . بمجرد اطلاعي على الاسئلة اكتشفت اللعبة على الفور . كان باختصار يريدني ان اكتب له مقالاً ، يحمل اسمه . وإلا فما معنى توجيه اسئلة من نوع : ماهي ، برأيك ، العلاقة بين الشكل والمضمون ؟ ماهي العلاقة ؟(في رأيك ايضاً) بين الايديولوجية والادب ؟ ماذا تعني بعبارة (الادب الثوري) ؟

كنت قد حزمت امري على رفض اجراء مثل هذا (الحوار) . سمعته يقول :

ـ الأنسة تريد ان تكلمك ، اعتقد .

وبالفعل رأيت سهام واقفة خلف زجاج الواجهة ، ترمقني بنظرات غريبة . ابتسمت ، وحاولت النهوض ، وانا اقول :

ـ اهلاً تفضلي .

تستدير بحركة عنيفة ، وتدخل حجرة الفتيات .

مامعنى هذا ؟ كيف تخلت عن ذلك التحفظ ، والتظاهر بانها لاتعرفني ، ووقفت تطالعني بنظراتها الغاضبة ـ أجل غاضبة ـ امام الجميع وكأنها تشهدهم على وجود علاقة بيننا ؟ ثم ، اليس من المفروض ان تكون سهام في اجازة ، وان تكون في هذا الوقت بالذات تعد طعام الغداء ؟

اربكني هذا السلوك الغريب ارباكاً شديداً . وقد استغل الصحفي الوغد ارتباكي ، واخذ مني وعداً بان يكون الرد مكتوباً وجاهزاً على اسئلته بعد ثلاثة ايام . بل جعلني احدد الساعة ـ الحادية عشرة صباحاً ـ التي سوف اسلمه الاجوبة فيها .

ثم نهضت لانصرف ؛ وقد اثرت ضجة في انصرافي لانبه سهام . كنت متأكداً انها تراقبني . استوقفني احد الزملاء واخذ يحدثني عن قصة انتهى من كتابتها ، ولكنني غادرته قبل ان يتم حديثه ، وانا اقول له : « مستعجل ، مستعجل جداً » وانطلقت باقصى سرعة لاثبت له مدى استعجالي .

لم اساوم سائق سيارة الاجرة الذي اخذني الى البيت . وكان معنى ذلك بذاءات وسباب ، وربما معركة ، إن لم ادفع له السعر الخرافي الذي يطلبه . سادفع وامري لله .

في البيت كان كل شيء على حاله ، كما تركته في الصباح . لم تكن سهام موجودة بالطبع ، ولسبب غير مفهوم اشعرني ذلك بالراحة . صعدت الى حجرة ايوب ، في الطابق الأعلى . كان قلبي يدق بعنف وكنت الهث ، توقفت قليلاً لالتقط انفاسي . وعندما فتحته كانت الحجرة فارغة ومترتبة .

هبطت السلم فرحاً . كل شيء على مايرام . ساتناول غذائي ، وانام قليلاً ، ثم اواصل كتابة الرواية . من حقي ان انال يوماً اكون فيه وحيداً ، وبعيداً عن سهام وليلى .

ثم رأيتها تقف في وسط المطبخ . بمجرد ان رأتني سهام اتجهت نحوي بخطو سريع . كان وجهها ينذر بالخطر . لم تتح لي فرصة للترحيب او التساؤل ، بل قالت على الفور :

ـ وين ليلى ؟

ـ ليلى ؟

قالت بعنف والحاح :

ـ ايه ليلى ، ليلى ! وين ليلى ؟

كررت تساؤلي : ـ ليلى ؟

قالت بصراخ :

ـ ليلى ، ايه ليلى ! وينها ؟ جاوبني .

قلت :

ـ اش بيك سهام ؟ اتخبلتِ ؟

ـ انت المخبل . وين ليلى ؟

قلت ببرود :

ـ إش مدريني .

وصعـدت السلم المؤدي الى الطـابق العلوي . بدت لي ككـرة انطلقت من فوهـة مدفـع . تبعتهـا ببطء . سمعتها تفتح حجرة ايوب ، ثم تفتح الخزانة . عندما دخلت كانت راكعة تبحث تحت السرير . وحين رأتني ادخل الحجرة ، قالت :

ـ وينها ؟

ـ اعقلي ياسهام .

ـ آني مخبلة . بس اريد اعرف ليلى وينها ؟

وضعت يدي على كتفها وقلت :

ـ سهام اعقلي حبابه .

تكلمت بهدوء مشحون :

ـ عيني اريد انقذك . الامن وراها ، ويعرفون انها عندك .

فوجئت :

ـ الامن ؟ منين عرفت ؟

ـ عرفت .

وانطلقت الى السطـح تفتش الـزوايـا ، خلف خزانـات الماء . كان فشلها في العثور على ليلى يزيدها حنقاً وهياجاً . تلتفت الي بين الحين والحين وتقول :

ـ الليله بيجوك .

قلت لها :

ـ طزفيك وفيهم .

هبطت السلم وجلست في الصـالـون . قلت لنفسي : يجب ان انهي ذلـك كله ، واغادر هذه المدينة . قدّرت ان سهام سوف تكتشف ان جميع شكوكها لااساس لها من الصحة . والاغلب انها سوف تصرف بعد قليل .

مضى بعض الوقت وانا لااسمع لها صوتاً . هل انصرفت ؟ لااعتقد . لو انها

انصرفت لسمعت صوت البوابة الخارجية وهو يفتح . لاعطها بعض الوقت ، تزيل فيه الغبار عن شعرها . اية مجنونة سهام هذه !

انفجر باب الصالون كقنبلة . وتذكرت ان الباب لايفتح الا بهذه الطريقة . ومن خلفه بدت . . . من ؟ . . . سهام . كانت ترتدي قميص نوم من الحرير الطبيعي الابيض ؛ ومنه بدا نحرها وعنقها بلون الحليب ، وشعرها الاسود الفاحم يهبط على كتفيها . سارت نحوي ، تنظر الي بعينين مضببتين بالدمع وجلست على وركي . وضعت رأسها بين كتفي والرأس . وسكنت . احسست بارتعاش جسدها ، وبدموعها تبلل خدي . همست :

ـ سهام .

لم ترد . همست لها :

ـ سهام حبيبتي .

ازداد بكاؤ ها . قلت :

ـ اش بيك ؟ اش صارلك ؟

قالت :

ـ احبك .

ـ ادري لكن شنهي حكايه ليلى ؟

سمعت ضحكتها ، وقالت خلالها :

ـ آني مخبلة .

ـ ٧ ـ

كان اشبه بالدهليز ، ذلك الذي وجدت نفسي في داخله . كان رطباً ، دافئاً ، واشم فيه عطور قديمة . كنت اقول : هذه رائحة المسك ، وهذه العنبر ، وهذه العود . . . وانا اعلم انني اخدع نفسي . . . فالرائحة غير محددة ، رائحة جسد معطر ، يكاد يكون لها ملمس ، ولكن بدون تحديد . كانت رائحة تماس وألفة .

واسير في ذلك الدهليز ، وانا اتظاهر بانني اعرف طريقي تماماً . ولكن حقيقة الامر كانت مختلفة . لم اكن اعرف اين انا ، ولااين ينتهي بي ذلك الدهليز ؛ غير

انني كنت اعلم بغموض ، ولكن بثقة ان هنالك محبين يرعونني رعاية فائقة ، ويوجهون خطواتي ، وان لاخطر على الاطلاق .

كان الدهليز يضيق ، ويلامسني في اكثر من موضع ، ولكنه كان ليناً ، رطباً بل مبلولاً بسوائل دافئة . ولم يكن ذلك يزعجني باية حال . . كنت جائعاً وحسب ، واود لو توفر لي مقدار كبير من الحلويات .

تبينت طريقي الآن . انا اصعد السلم المؤدي الى الطابق العلوي ، حيث حجرة ايوب . السلم كان غريباً . درجاته فسيحة ، وعلى جانبي كل درجة زهور كثيفة ، فاقعة الالوان ، قد وضعت في اصص غير مرئية لكثرة الزهور والورود . بدا لي ذلك شبيهاً بعيد الورود الذي اقيم في جنينة الاورمان في القاهرة . لماذا اقول جنينة الاورمان ؟ لقد اقيم في المتحف الزراعي . ماالهمية ذلك !

المهم انني اخذت اواصل الصعود ، فرحاً ، دون ان اشعر بارهاق لصعود السلم .

دون مقدمات لقيت نفسي في حجرات ايوب . كانت حجرة اخرى ، نظيفة بسيطة ، مرتبة ؛ ولكنها حجرة ايوب . وكانت ليلى هناك التي استقبلتني بمودة ، وقالت :

ـ اعرف انك تموت جوعاً .

قلت لها :

ـ مشتاق لك جداً ، جداً .

ولم اكن صادقاً تماماً ، فشوقي الى الطعام كان اكبر . وعلى الفور سحبت صينية من خلفها ، ووضعتها بيننا . كان عشاء خفيفاً : بيض مسلوق ، سلطة ، جبنة ، خبز . كدت اعلن غضبي صريحاً ؛ فلقد كنت اتوقع طعاماً آخر ، اكثر وفرة ودسامة . ولكنها حين وضعت الصينية بيننا ، وحين دعتني الى تناول الطعام ، كان مرسوم على وجهها تعبير خجل وترقب ، وكأنها تتوقع اطراء لتقديمها الطعام . فاقبلت على الطعام .

كنت آكل بشهية هائلة ، ولكنني لااحس للآكل طعماً . وكان احساس بالجوع يتزايد . كنت اود ان اطلب اليها ان تأتيني بكمية كبيرة من الحلاوة الطحينية . فهي وحدها القادرة على تخفيف هذا الجوع المخيف الذي اشعر به . ولكنني بدلاً من ذلك اخذت اقول كلاماً آخر .

قلت : ليلى ، انني الآن ، في هذه اللحظة اكوّن افكاراً خاطئة . كانت تعلم ماقصده ؛ ولكنها بذلك التحفظ المؤدب ، الذي نصطنعه امام أناس غرباء ، حتى نفهمهم ، اننا حين نستمع اليهم فاننا في حقيقة الامر نفعل ذلك مرغمين . قالت : عن ماذا ؟ قلت : عن الزواج . لم تندهش . بدا انها توقعت ذلك مني ، فلذا جاء صوتها بلاعمق ، رتيباً ، تسأل لمجرد ادارة الحديث : كيف ؟ وتنهدت لأنها ادركت ـ كانت تعلم تماماً ـ ماارید قوله .

كانت الانفعالات تشتعل في داخلي ، وتتوهج الى حد البكاء ـ اود ان احطم هذا الحاجز الجليدي التي تقيمه ليلى بيننا حقيقة مشاعرها وقلت ان هذه السعادة التي اشعر بها وانا معك ، الآن ، سعادة تتحول الى نقيضها ، فاود ان ابكي ولااتوقف ابداً . . . هذه الحجرة مثلاً ، المنتزعة من قصر في الجنة ـ تذكرت السلم الذي صعدته منذ قليل : الورود والزخارف والهواء النقي كالبلّور ـ وهذا البيت الكبير جداً والخالي جداً كبيوت القصص ، وحديقته الكبيرة ، بيت وحديقة مسكونان بارواح لطيفة ناعمة ، وارواح اشباح مخيفة ، تكتب عنهما روايات رعب وحب وجنون . . قالت :

ـ جنون ؟

وادركت على نحو بهم انني اهنتها دون قصد ، فقلت بحدة : جنون . . نعم جنون ، لأنك اعقل انسانة في الكون . . . وانت جميلة ، جميلة مثل . . مثل . . . قالت وكأنها تتحداني :

ـ استمر !

قلت : هذه كلها فخاخ ، فخاخ ياليلى . . . واود ان اقول شيئاً فيتوه مني ، وانا مطالب ان استمر ، فاصيح :

ـ ليلى .

فتقول :

ـ اسمعك .

واخذت توجّه الي نظرة ثابتة ، لامعة ، تكاد تبدو عمياء . بدت عيناها تزدادان اتساعاً ببطء ، تتسعان ؛ وقلت لنفسي بفزع ، هذه ليست ليلى ، انها في سبيلها لأن تصبح فتاة اخرى . قلت : ياليلى ، انك تخيفنني . قالت :

ـ فهمت الآن ؟

قلت :

- فهمت .

فابتسمت ، واضاء وجهها فتأكدت انها ليلى . نظرت الي طويلاً ، وابتسامة عابثة على وجهها ، ثم اقترب وجهها من وجهي ولامسه ، وهمست شيئاً لم اتبينه ، قلت :

- نعم ؟

قالت :

- وسهام ؟

مرة أخرى شعرت بذلك الدوار ، ودخلت تلك المنطقة الغريبة ، منطقة الكوابيس ، حيث تتحقق اعمق واروع الرغبات في ظرف يفقدها كل طعم وكل متعة . سهام ؟ اي سؤال حقاً ؟

لسبب غير مفهوم صحت :

- قلت لك انا عايز حلاوة طحينية .

اشارت باصبعها . وقالت ببرود :

- قدامك .

وفعلاً كانت هناك ، اكوام منها . ولكنني لم اعد ارغب فيها .

قلت :

- مش عايز .

قالت :

- انت حر .

صمتنا . احنيت رأسي لاهرب من نظرتها اللائمة . وخلال ذلك كنت اعلم ان تحولات غريبة تحدث حولي . وان علي ان استعيد احترام ليلى حتى لاتصبح امرأة . قلت :

- بحبك .

قلت ذلك بهمس ، وانا مطرق ، حتى ابدو اكثر اقناعاً . رفعت رأسي ببطء ، وهنالك كان ذلك التجهم ؛ وتلك النظرة الصارمة الغاضبة . . . لماذا اخفي الحقيقة ؟ كانت تكرهني في تلك اللحظة . قالت بهمس مشحون بوعيد احسسته رهيباً :

ـ وسهام ؟

قلت :

ـ مالها ؟ انا بحبك انتِ .

قالت باللهجة المصرية التي تتقنها :

ـ مش بتيجي لك كل يوم ؟

ـ ايوه

ـ مش بتمارس معها الجنس كل يوم ؟

قالت ذلك واضافت الى ماقالته حركات وكلمات بذيئة جداً . ولكنني ابتسمت ابتسامة المذنب وقلت :

ـ ايوه .

قالت بشراسة :

ـ وبتقول وبتصر انك بتحبني ؟

ـ طبعاً .

قالت بعصبية :

ـ طبعاً . . طبعاً . . . ايه هوه اللي طبعاً ؟

قلت ، وكأني اناديها :

ـ ليلى .

ـ سامعاك .

قلت :

ـ ماتنسي اننا في عصر الامومة .

حدثت امور غير محددة . تبدو ليلى حزينة وحانية ، وانا احاول ان اوضّح لها بعض المسائل . قلت :

ـ نسيتي ياليلى ؟

ـ نسيت ايه ؟

ـ بطّلي سرحان ، وخليك معايا .

ـ حاضر .

قلت :

ـ من البداية . كانت الرسالة موجهة لك . واضح ؟ وانا اعطيتك اياها ؟

فاكرة ؟ كنت اعتقد ان اسمك سهام . واللبس ممكن في ظروف بغداد . وصار اللي صار .

ـ مش فاكره .

ـ مش فاكره ؟

ـ ايوه مش فاكره . بس اذا كان خطأ زي مابتقول ، ماحاولتش ليه تصحيح الخطأ ؟

ـ ازاي ؟

قالت :

ـ ازاي ؟ انت كنت بتحبني انا ، انالذاتي ، مش كنت بتحبني لأن اسمي سهام .

ـ اذن ؟

قالت :

ـ المسألة واضحة .

قلت وكأنني استنجد :

ـ ليلى !

ـ نعم ؟

ـ انت فقدت الذاكرة ؟

ـ لا .

ـ اذن ؟

ـ اذن ايه ؟

ـ ايه معنى الكلام دا كله ؟

اخذت تصرخ بهستيرية : كيف ، قل لي كيف تستقبل فتاة كل يوم في بيتك ، كل يوم ، كل يوم ، وتمارس معها الجنس كل يوم ، ولم تحاول ، ولو لمرة واحدة ، انت تشرح لها انها لم تكن هي المقصودة . وبالمناسبة ، لماذا الجنس كل يوم ، وطيلة الوقت ، الم تكونا تأكلان وتشربان . . ؟ جنس فقط جنس ولاشيء غير الجنس .

قلت لها ان هذا غير صحيح . من قال لك هذا ؟ بالعكس كنت احاول ان ارفع مستواها السياسي .

ضحكت طويلا ، وعندما سالتني اعترفت اني اكذب . عاودت خطبتها بحمية اشد : جنس فقط جنس . . .

قلت :

ـ ليلى مش معقول .

ـ عايزه افهم .

قلت :

ـ ليلى . . .

ولم تدعني اتم عبارتي . قاطعتني قائلة :

ـ شلون خربطات هذي !

قالتها بمرح انفلت عقاله ، بذلك التهريج الخفيف الظل ، وفي عينها لمع ذلك البريق الذي هزني من اعماقي . وكانت تلك اشارة البدء . اندمجنا فوق سرير ايوب في عناق ـ عراك صاخب ، ضاحك ، لاهث . امتزج الجسدان ، وسمعتها تقول وهي في قمة ذلك الاندماج « نسينا الأكل » اطبقت على فمها . وانا اقول :

ـ الكلام المناسب في الوقت المناسب !

شعرت بجسم صلب تحت البطانية جنبي فآلمني . انفصلت عن ليلى وامسكت به ، والبطانية تحيطه ، وسألتها :

ـ ايه ده ؟

هدأت ليلى تماماً ، واخفت وجهها بكفيها ، ولم تجب . كان ذلك الشيء بيني وبين ليلى فلم استطع استخلاصه . كررت سؤالي :

ـ ايه ده ؟

ـ قزازه .

ـ قزازه ؟

وانهض . وارفع البطانية ، واجد زجاجة جوني ووكر فارغة ، وبدون غطاء . امسكها واتأملها ، واتساءل : ماالذي جاء بها ؟ وانظر الى ليلى مستفسراً . تبادلني النظر ، دون ان تقول شيئاً . اسألها : ماذا تفعلين بزجاجة فارغة ، بحق الله ؟ فتجيبني بصوت اخشنه نحيب مكتوم .

ـ ماتعرف ؟

قلت :

ـ لا .

ـ لا ؟ ماتعرف ؟

وكأنها تتهمني . اضافت :

ـ اتدرب عليها .

وفجأة فهمت . قلت :

ـ على هذه ؟

ـ ايه .

ـ بس هاي كبيرة .

قالت :

ـ اعرف .

ـ لكن همه بيستعملوا قزايز بيبسي .

قالت بصوت شاك :

ـ اتدرب على الكبيرة ، علشان الصغيره ماتئلمني .

قلت لها ان من الافضل ان تتدرب على نفس الزجاجة ، زجاجة البيبسي . واصلت كلامي بهدوء وحيادية : على كل حال اعتقد انهم في حالة فتاة جميلة مثلك سيستخدمون الرجال . اعتقد ذلك . ولن يكونوا اكثر من ستة او سبعه ، اوعشرة على الاكثر . وربما يختارك الكبار انفسهم . ليش لا .

قالت : انها تتمنى ان يكتفوا بذلك . ياريت . ولكن من يضمن . الانسان يجب ان يكون مستعداً لكل الاحتمالات . على كل حال ، التدريب على زجاجة الجوني ووكر ، جلست عليها نصف ساعة كل يوم تقريباً ، يجعل كل ماعداها سهلاً . الاترى ذلك ؟

قلت :

ـ معقول .

ثم قالت وهي تبتسم ابتسامة خجلة :

ـ معقول ؟

قلت :

ـ تحبي اساعدك ؟

نظرت الي بذهول . قالت :

ـ تساعدني ؟

وانطلقت في ضحك هستيري . تحني رأسها وتضحك . ترفع رأسها ، تحاول ان تقول شيئاً ، فيمنعها الضحك .

قلت بلعثمة :

ـ يعني ، ليلى ، كنت بحاول يعني . . .

احتوتني بين ذراعيها وجسدها يهتز بالضحك . قلت :

ـ بطلي ضحك !

فمها الذي يضحك على فمي ، وايقاع الضحك في جسدها يجعل صدرها يلمس صدري ويبتعد ، وهي خلال ذلك تقول :

ـ تريد تساعدني ؟

ـ وليه لا ؟

وتغرق في الضحك .

اشعر ببلاهة وضعي ، فاتخلص من عناقها ، واهبط من السرير . اقف وامسك بالزجاجة ، واتأملها . افحص عنقها بتدقيق . العنق ليس مشكلة ؛ ذلك الانفلاش المربع هو الرهيب حقاً . فجأة اقذف الزجاجة من النافذة المفتوحة . كيف تركناها مفتوحة في هذا البرد ، وفعلنا كل مافعلناه امام عيون المتلصصين ؟ سمعت الزجاجة تهوي محدثة ضجيجاً وهي تصطدم بفروع الشجر والاعشاب . ولكنها لم تتحطم .

سرت الى النافذة واغلقتها . رأيت رأس شخص يظهر من وراء خزان المياه ، القائم فوق سطح البيت المقابل ، ثم يختفي بسرعة . جذبت الستائر ، واتجهت الى ليلى ، وقلت لها :

ـ من هنا وطالع تدربي على قزازة بيبسي كولا .

كانت تجلس هادئة ، وفي وجهها خوف . قلت بصرامة :

ـ مفهوم ؟ قزازة بيبسي كولا .

هزت رأسها وقالت بصوت خافت :

ـ مفهوم .

جلست على السرير انظر اليها . قالت :

ـ زعلت مني ؟

ـ لا .

ـ لا . زعلت .

ـ لا . مازعلت .

قالت ، وكانت على اهبة البكاء :

ـ انا آسفة .

واحنت رأسها .

لم اكن ازيدها ان تبكي . ماكنت استطيع تحمل ذلك . ملت نحوها ولمست شعرها بشفتي . ثم احطت كتفيها بذراعي . قلت :

ـ ليلى حبيبتي .

أخذ جسدها يهتز (ابا لضحك ام بالبكاء ؟) . همست لها بكلمات رقيقة وقد اخذ البكاء يخنقني ، واخذت اضغط بخدي على شعرها . رفعت الي وجهاً جميلاً ، بريئاً كوجوه الملائكة . البكاء (ام الضحك ؟) جعل وجهها اكثر رقة وحساسية . كان جمال ذلك الوجه موجعاً .

ـ ليلى .

ـ نعم ؟

ـ احبك .

عدلنا وضع اجسادنا ، ونحن مانزال متماسكين ، وشيئاً فشيئاً ، انسجمت اجسادنا ، واستغرقنا في عناق باك لاهث ، صامت ، ثم اخذت ليلى تتأوه وتئن . كانت تردد :

ـ فدوى ، عيوني ، فدوى . . .

وكلمات مبهمة .

خلال ذلك ، وبنصف وعي ، اسمع باب المطبخ يفتح (ام تخيلت ذلك ؟) واسمع خطوات تتجول . اسمع همهمة وصوت ادوات المطبخ يتم تحريكها . بدا من استغراق ليلى في العناق والانين ، ومن عبارات التأوه والضراعة انها لم تسمع شيئاً احاول ابعادها عني ولكن تشبثها بي يزداد . احسست بها تطوقني بيدين يستحيل الفكاك منهما . اقول :

ـ ليلى .

فتهمس همساً مختنقاً خشناً :

ـ اسكت .

وتندفع في العناق الذي بدأ يتخذ طابعاً عنيفاً ، وقد اصبح ذراعاها كطوقين من الفولاذ المرن . وتقول بهمس مليء بالعنف :

ـ اسكت ، اسكت ، اسكت . . .

عناقها يكاد يحبس تنفسي ، اكاد اصرخ الماً ، وانا اجاهد بكل ما املك من قوة لابعادها ، وانا اقول :

ـ فيه حد دخل البيت .

تقول :

ـ خله يدخل .

فيجن جنوني . واصيح بصوت مختنق :

ـ حد ، حد دخل البيت .

تقبلني عل فمي ، وتقول لاهثة :

ـ اعرف . ماتدير بال .

واستغرق في محاولاتي اليائسة للتخلص من عناقها الذي اختلط بالانين والرجاء ، والصرخات الثاقبة التي تطلقها بين حين وآخر . . . واكابد للتخلص من احتواء ذراعيها وساقيها ، فلاانجح بل ادفعها الى تشديد الضغط والاحتواء ثم اصبح لذلك كله ايقاع اشبه بضربات ملاكم تتجه الى اسفل البطن ، وهي خلال ذلك تردد :

ـ تحبني ؟ تحبني ؟ تحبني ؟ تحبني ؟

لما لا نهاية .

واقول لها ، وانا اكاد ابكي :

ـ ليلى ، حد دخل . . .

وهي ماضية في ترديد :

ـ تحبني ؟ تحبني ؟ تحبني ؟

اصرخ دون تحفظ :

ـ ليلى ، فيه حد دخل البيت .

يتوقف ايقاعها ، وتنظر الي بعينين خابيتين وتقول :

ـ ماتدير بال .

ـ شلون ماادير بال ، احنا في خطر .

ـ يجوز سهام بابا . . .

وانتقلت الى الجنون المطلق ، اجتاحتني وهي تطلق صرخات القتال . عضت كتفي وهي تهدر . اسمع باب حجرة ايوب وهو يصدر صريراً . استدير بقوة نحو الباب . نتوقف . تتوقف ليلى . ترفع رأسها وتحدّق بالباب . ينفتح الباب ببطء شديد ، دون ان يظهر خلفه احد ، مازالت ليلى تحتضنني من الخلف ، وبنفس القوة ، والباب مازال يواصل الانفتاح حتى اصطدم بالجدار ، وليس وراءه سوى العتمة الكثيفة .

تقول ليلى :

ـ من هو ؟

لفظتها « منهو » وذقنها يستقر على قمة رأسي . ولانسمع رداً . نسمع حركة اقدام في الخارج وهمساً ، وليلى تتنفس بعمق . انزلق ذقنها على سطح رأسي ، وهي تتساءل :

ـ منهو خوي ؟

يصمت الهمس وحركة الاقدام وتنفس ليلى ، وانا احاول النهوض فلااستطيع . مازلت في قبضتها . تهمس ليلى :

ـ ماكو احد . يجوز الهوا .

ـ لا . ليلى . فيه حد .

تقول بنفاذ صبر :

ـ ماكو .

فجأة ينغلق الباب بعنف ، وضجيج . فعل ذلك من تلقاء نفسه . اهمس لليلى :

ـ شافونا .

تقول :

ـ قلت لك ماكو احد .

وتعاود تقبيلي . ادفعها واهمس :

ـ مخبلة انت ؟

ـ ماكو احد .

ـ ماتسمعي ؟

ـ ماكو احد .

وينفتح الباب فجأة ، ويندفع ايوب الى الداخل حاملاً سكيناً ، راكضاً ، يصرخ ، شعره متناثر على وجهه ، وعيناه تلمعان ببريق مخيف .

ـ على سريري ياكلاب ؟

قفز نحونا . طار بالضبط .

ملأ الظلام عيني ، ورحت في غيبوبة .

ـ ٨ ـ

كنا نجلس في حجرة المكتب ، وكانت ترتدي قميص النوم الذي يجعلها خفيفة كفراشة سألتها : الاتبردين ؟ الجو بارد هنا . قالت : كيف ابرد ؟ وانت ماوظيفتك ؟ قلت : انني احياناً ادخل الحمام : او احلق لحيتي . . . او . . . قالت : هنا ، يصبح البرد مشكلة .

سألتها إن كانت تحبني ؛ قالت : احبك ، ولكنك انت تحب ليلى . قلت : ولكن اين ليلى حتى احبها ؟ قالت : لاتلعب بالكلام . انت تحب ليلى .

ـ تاني ؟

ـ وثالث ورابع وخامس . تعال واياي .

مسكت بيدي ونهضنا . صعدنا ، وهي تقودني ، السلم المؤدي الى حجرة أيوب لم فتحت باب الحجرة . قالت :

- باوع همّا .

دخلت . كان السرير مهوشاً . وعلى الكومودينو التي بجانب السرير صينية عليها بقايا طعام وبيضة مسلوقة ، وطبق مليء بالحلاوة الطحينية . قلت :

ـ شيء غريب . ولكن رغم غرابته ، ايه علاقته .

قالت ، لم ننته بعد ، فتحت الخزانة ، وانحنت تبحث ، ثم استقامت وفي يدها شنطة من القماش الازرق ، مكتوب عليها بالخط الابيض : « شركة الطيران

العراقية » . فتحت الشنطة بجذب السوسته واخرجت قميص نوم احمر ، وخفاً مخملياً احمر ، وفرشة اسنان ومعجون . القتها على السرير واحتفظت بالحقيبة .

قالت :

ـ اش تقول ؟

قالت ، وكأنها توجه الي سؤالاً عادياً . قلت :

ـ غريب ؟

قالت ، وكأنا توجه الي سؤال عادي . قلت :

ـ غريب طبعاً . ولكن من الواضح ان هذه الاشياء تخص ايوب .

قالت :

ـ ايوب ؟

وضحكت . ثم اضافت : هذا قميص نوم ليلى ، اشتريناه سوياً . وهنالك علامة انظر ، ونظرت الى التطريز الذي في الصدر . قالت : تأمله جيداً . تأملته ، واكتشفت بالفعل ان التطريز هو عبارة عن اسم ليلى بحروف على شكل قوس ، جعل الاسم يبدو كدائرة .

اخذت اهز رأسي . قالت : اتعرف من الذي طرّز هذا الاسم ؟ قلت : لا .

قالت :

ـ انا .

ولم لا ؟ قلت لنفسي . غادرنا الحجرة وهبطنا السلم . دخلنا حجرة المكتب . جلست سهام بجواري ، ووضعت رأسها على صدري . اخذت اقبل شعرها ، ثم ادفن وجهي في غزارته .

قالت :

ـ تحب شعري ؟

ـ شعرك وكلك . كل شيء فيك .

ـ وعيوني ؟

ـ وعيونك خليني ابوس عيونك .

رفعت وجهها الي ، فقبلت عينيها ، وانفها (قلت : واحب انفك) وفمها ، وذقنها . قالت :

ـ وتحب كمان . . .

وتمهلت ، فقلت :

ـ من غير ماتقولي . كله . . . كلك . .

وضحكت .

صمتنا . وعادت تضع رأسها على صدري . قالت بعد قليل : لقد سألتني منذ حين إن كنت بردانه ، وانا البس ملابس داخلية وقميص نوم . ولكن الم توجّه السؤال الى ليلى ؟

قلت :

ـ مش فاهم .

قالت : وهي تسير عارية خلال البيت كله ، وتجلس على الكنبات عارية ، الم تسألها إن كانت بردانه ؟

قلت ، كيف عرفت ان ليلى تسير عريانه ، وتجلس عريانه ؟

قالت :

ـ باوع .

واشارت باصبعها الى جسد ليلى المرسوم على غبار الكنبات . واضافت انها شاهدت آثار اقدام ليلى الحافية على السلم .

قلت :

ـ غريبة ليلى هذه .

وخلال ذلك كنت احاول ان اتذكر ، ان افهم . ثم اهملت المحاولة .

٩ـ

لم اذهب الى العمل اليوم

بدأ اليوم جميلاً . شمس الصباح طلعت في سماء صافية ، والهواء ساكن ، جاف عابق برائحة الشجر . كان صفاء الجو يجعل المرئيات شديدة الوضوح والتحديد وبدأ كل شيء ناعماً .

كنت اقف امام شباك حجرة النوم المفتوح على الحديقة ، التي هاجت وتوحشت حتى اصبحت اشبه بغابة صغيرة ، او غابة مصغرة . وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة بقليل .

لا احد يزورني في البيت ولا ازور احداً . وفي العمل يبدو انهم نسوني تماماً . لا اقدم اي مادة للمجلة ، ورئيس التحرير لا يطالبني بشيء . ولم يعد احد من الزملاء يزورني في حجرتي الا نادراً جداً . وحين يفعل احس به شديد الضجر ، راغباً في المغادرة باسرع ما يمكن . لا اعرف لذلك سبباً محدداً . قد يكون السبب عدم قدرتي على ادارة حديث متصل ؛ اذا اصبحت كثير الشرود . ففي بعض الاحيان لا يفوتني فقط ما يقوله محدثي ، بل انسى وجوده كلية .

اما المدير العام ومدير المكتبة فقد ابتعدا عن طريقي ، حتى نسيت انهما موجودان . او قد يكون العكس هو الصحيح ؛ اعني انني ابتعدت عن طريقهما فنسيا انني موجود .

اصبحت كثير السرحان ، وقدرتي على التركيز انعدمت . يحدث احياناً ان اقوم بارتداء ملابسي استعداداً للخروج . وقبل ان انتهي من ارتدائها اجد نفسي اقوم بعملية عكسية . اعني ، انني اخلع ملابسي والبس البيجاما ، وادخل السرير . ثم افطن الى وضعي ، فارتدي ملابسي مرة اخرى .

انتاجي في الكتابة صار قليلاً ، وتوقفت تقريباً عن مواصلة كتابة الرواية . وحين كنت اسير عبر الممرات المؤدية الى حجرتي ، كنت الاحظ ان لا احد يرقبني وانا داخل ، او يرفع رأسه ويطالعني ، انتظاراً لتحيتي . احسست ان هنالك شيئاً ما يحاك ، او ان ترتيباً ما قد حدث . ولكنني لم اكترث لذلك . ما كان يؤذيني هو هذا الصدود المبرمج . ورغم ان هذه العزلة هي ما كنت اتمناه، فانها ، ما إن تحققت حتى احسست بها كطوق فولاذي يضغط على عنقي

كنت اجلس في حجرتي اطالع السور الكرتوني الاسود ، اركز النظر على البقعة الرمادية . في كل يوم كانت تبدو جديدة . اصبحت تفتنني.

واما سهام فها قد مر ربيع وصيف وها نحن في الخريف على رؤيتي اياها لآخر مرة . لم تعد تزورني ولم اعد اراها في العمل . اختفت هكذا دون مقدمات . ظلت تأتي كل يوم بانتظام وانقطعت عني فجأة ، دون ان تمهد لذلك بكلمة واحدة . في آخر مرة زارتني فيها قبلتني وهي تغادر ، قالت :

ـ في امان الله .

كما تفعل كل يوم . ولكنها في هذا اليوم مضت ولم تعد

بعد الكثير جداً من التردد سألت احدى زميلاتها عنها (البنية السمينة ،

اسمها شنهو ؟ هاي . . . ايه سهام . . قالت لي عن كتاب . . هية وينها . . اوشيء كهذا) فقالت الزميلة انها غائبة . غائبة ؟ قلت . قالت : غائبة في مهمة . مهمة ؟ قلت .

- اي مهمة ؟

قالت :

- اشمدريني .

وزميلاتها ؟ الايعرفن ؟ قالت لي من الخير لي الا اسأل . الآن ابتعد ، فقد يراني احد اكلمك ، ويبلغ مدير المكتبة . وابتعدت .

وقد حدث امر غريب بعد انقطاع سهام عن المجيء، انتظرتها طيلة ذلك اليوم ، وانا مندهش - مجرد مندهش - لعدم مجيئها . جلست في المساء اواصل الكتابة في الرواية . ثم سمعت حركة في حجرة ايوب . خطر لي انه ربما كانت سهام مختفية هناك تمارس احدى الاعيبها المبهمة . صعدت السلم دون ان يصدر عني صوت ، وفتحت حجرة ايوب واضأت النور بشكل فجائي .

كانت الحجرة على حالها التي تركها فيها ايوب . لم اجد فراشاً منكوشاً او صينية عليها بقايا طعام . او حقيبة قماشية تخفي فيها ليلى قميص نومها . بحثت طويلاً في الحجرة فلم اجد اثراً لانسان فيها منذ ان ذهب ايوب الى المستشفى . قلت لنفسي : « لاتفكر . فقد تصاب بالجنون » . اطفأت النور ، واغلقت الباب وهبطت .

جلست اكتب ، ثم خطر لي مرة اخرى ان ابحث عن اثار جسد ليلى العاري فوق كنبات المكتب الجلدية . نهضت واخذت افحص الكنبات . ولفزعي الشديد لم اعثر على اثر لليلى .

جلست المكتب عاجزاً عن فعل اي شيء ، عاجزاً عن التفكير في اي شيء . كنت انتظر فقط ان ينفتح الباب الخارجي ، وباب المطبخ ، وتدخل ليلى . بعد ان جلست طويلاً هكذا ، قلت بصوت مسموع : « انا تعبت » .

نهضت لاعد لنفسي فنجان قهوة .

ايوب مازال في مصح غامض للامراض العصبية . بعد بحث اكتشفت المصح فذهبت لزيارته . سألت الاستعلامات ، فأخذ يفتش عن الاسم ، فالتفت اليه رجل يجلس بجواره وقال :

- ايوب الذي يعوي .

قلت :

ـ يعوي ؟

لم يردا على سؤالي . قال لي رجل الاستعملامات :

ـ هناك .

قلت :

ـ فين هناك ؟

قال لي ، هناك ، اسأل عن الدكتور حبيب . سألت عنه بالفعل وادخلوني اليه . قال :

ـ تريد ايوب .

ـ نعم .

ـ زيارته ممنوعه .

سألت عن السبب فلم يجب . سألته عن حاله ، فقال انه يتحسن ببطء ، ويحتاج الى فترة طويلة من العلاج . وعندما سألته عن طبيعة مرض ايوب ؛ اجاب بجفاف ان هذا ليس من شأني .

قبل ان انصرف سألت الطبيب :

ـ صحيح انه يعوي ؟

سأل بكشرة :

ـ ان ايوب يعوي كـكلب ، هل هذا صحيح .

نظر الي الطبيب طويلاً ، وقال : يبدو انك لست احسن حالا منه . ونهض فتخيلت انه يود الامساك بي ؛ فانصرفت مسرعاً . ومنذ ذلك الوقت لم اعد للسؤال عن ايوب .

* * *

في هذا الخريف تتساقط اوارق الشجر اليابسة بغزارة . صفراء ، ملوثة بالطين كانت ، والمشي فوقها ، تحت الشجر كان اشبه **بالمشي** فوق الثلج . كانت تملأ **ارصفة** الشوراع الخالية ، وتهبط على قنوات المياه فتعطي سطحها .

قبل ان انام اجذب شرشف السرير وانفضه لازيل اوارق الشجر التي تساقطت

عليه . تظل فيه رائحة الورق والطين ؛ رائحة مادة عضوية متحسه .

واقول لنفسي : عندما كانت سهام تجيء ، كان البيت نظيفاً ، ولم يكن الطين واوراق الشجر يعلق بالسرير . اما الآن فقد اصبح البيت مزبلة .

وفي الليل ، كان مرور الزواحف بين اوارق الشجر والاعشاب الجافة في الحديقة يثير خشخشة صاخبة ، تثير اعصابي ، وتجعلني احياناً اصحو من نومي مذعوراً . حتى بلا هذا وذاك ، فانني كثير ما اصحو من نومي مذعوراً . وكانت اصوات الحديقة تجعلني اتخيل ان هنالك اناساً على الشبابيك ، يتفرجون على ويهمسون .

في كل مكان كانت تنتشر طبقة من التراب الاسود اللزج . في الليل والفجر خاصة يكون لزجاً . اما في النهار ، خاصة في الاماكن المشمسة ، كان يبدو كالطلاء حين المسه يلتصق بيدي كالقار . ولايزول الا ادا غسلته اكثر من مرة بالماء الساخن والصابون

* * *

عندما استيقظت من النوم سمعت حركه بدور فوقي في حجرة ايوب . اوعلى الاصح انني استيقظت من نومي بسبب هذه الحركة . ورغم انني لم اعد اندهش لشيء في هذه المدينة ، فانني قد فوجئت بالفعل من الحركة التي تدور فوقي . كانت خافتة جداً ، اشبه بهمس ملحّ لاناس كثيرين ؛ او ، ربما كانت حركة اقدام كثيرة ، تتحرك بحيطة وحذر . على الفور تشكلت في ذهني صورة مجموعة كبيرة من الرجال والنساء ، يحيطون برجل يحتضر ، وهم يتدافعون ويهمسون ؛ ولكنهم ، في الوقت ذاته ، يحاولون ان يصمتوا اجلالاً للمناسبة .

قلت لنفسي : فلاتوقف . انا متأكد انني اتخيل اشياء ، وانني إن واصلت ذلك فسوف اصاب بالجنون . لهذا حاولت ان انسى الحركة التي فوقي . لم انجح كنت استعيد صوة المحتضر ، والنساء والرجال المحيطين به ، ولكنها اصبحت كصورة زيتية : حركة معلّقة .

لايمكن تجاهل هذه الحركة . يستحيل ان اعزوها للوهم وهي بهذا الوضوح . هل يوقصون الدبكة ؟ نظرت الى السقف متسائلاً ، كأنه سوف ينبئني عما يحدث في

حجرة ايوب . كان صامتاً . لاحظت ان عنكبوتاً قد نسج خيوطه في احد الاركان ، وان تراباً اسود قد طرّز دائرة محيطة بالنسيج . ثم تنبهت ان الحركة توقفت تماماً فوقي ، وكأن ذلك حدث استجابة لنظرتي المتسائلة

كطعنة في صميم القلب ـ احسست بقلبي ينكمش كأن يداً تعصره ثم يهبط ـ .

تذكرت وجه سهام وهي تنظر للسقف وتبتسم . شوقي اتخذ شكل احساس جسدي بأنها تتمدد قربي ، وباحساس آخر انها اصبحت بعيدة حد الاستحالة ومستعصية على اللمس . لقد كانت سهام قادرة على قراءة الحركة التي تدور فوقنا . لقد قرأتها وعلقت عليها بتلك الابتسامة . اصبح الشوق الى سهام كابوساً ، يكاد يخنقني . كنت اختنق ببكاء صامت يمسك بالحلق ، ويود ان يتحول الى دموع فلايستطيع .

ثم اتى الاسترخاء ، نصف اليقظة . اصبحت سهام نصف موجودة ، تنقل الي روحها عبر اللحاف الذي يكن بين ذراعي كامرأة . هنا اصبح مايدور فوقي مجرد وهم ، بقايا من لغة احلام المنام امتدت حتى لحظات اليقظة .

ـ هل عذّبوك كثيراً ياسهام ؟

ـ اود ان **انسى** .

ـ والزجاجة ؟

تتنهد :

ـ مره او مرتين .

كان النهوض من السرير ، والسير الى الحمام ، ثم الحلاقة وشرب القهوة ، وتناول الفطور والشاي . . . كان ذلك كله يتم في جو الفة مع العالم . للسيجارة طعماً يبعث على دوار خفيف ممتع ، في البداية ، ثم تصبح ارضاء لتوق .

ـ هل سألوك عني ياسهام ؟

ـ حين يسألون عنك فلن يسمعوا اجابة مني .

والدوران في البيت واستعادة حلم اليقظة مرة **بعد** مرة . ثم اشتاق الى العالم الخارجي : الشمس والحديقة واصوات انسانية . ادخل حجرة النوم واقف امام الشباك . جارتنا تقف على السطح تنظر الي . اتساءل : هل هي بداية شيء ما ؟ تختفي تاركة وراءها فضائح من الرغبة .

ـ هل سألوك عني ياسهام ؟

ـ حتى لوسألوني عنك فلن يسمعوا اجابة مني .

ـ والزجاجة ؟ . . . الرجال فقط ؟

خارج الشباك الشمس ساطعة ، والسماء والبيوت والاشجار وصورة النساء في خيالي ساطعة ايضاً . كل الاشياء ، وانا كذلك ، في قلب إناء بلّوري ضخم .

ثم حدث ذلك الشيء الغريب الذي لم اشهد له مثيلاً في حياتي . كان للجو ملمس بارد ، شديد النعومة . ثم اخذت اوراق الشجر تهتز وترتعش بسرعة مذهلة ، مصدرة صليلاً يكاد يكون معدنياً . كل ورقة كانت تهتز بمفردها ، اهتزازاً خاصاً بها ، ثم تنفصل عن الشجرة وتسقط عامودية كأنها حجر . لم يكن هنالك ريح ؛ بل لاهواء على الاطلاق . وهذا اعجب مافي الامر . بدا وكأن الاوراق ترتعش من تلقاء نفسها . وكانت اوراق الشجر شديدة البريق ، ذلك البريق المتذبذب ، المتعدد المصادر ، الذي يزغلل العين .

شيئاً فشيئاً اخذت الاوراق تفقد بريقها ، وتتحول الى سمرة كسمرة الحديد المطفأة ، واخذت زرقة السماء تعمق ، حتى اصبح يشوبها سمرة باردة . حتى الشمس شحبت واخذ الجو يعتم .

لم تكن غيوما تلك التي حجبت نور الشمس ، بل لون اسود . كان مجرد لون اسود ، انبثق من قلب النخيل الذي يشكّل الجزء الارضي من الافق ، واخذ ينتشر في السماء بسرعة مخيفة زحف السواد من كل جزء من محيط دائرة الافق الى المركز . احتجبت الشمس .

بعد دقيقة او اكثر قليلا هبطت على المدينة ظلمة ككابوس خانق ، كثيفة عدوانية ، شاملة ، لاوجود لضوء من اي نوع في قلبها . عجزت حتى عن رؤية يدي . ظلمة كانت كالعمى المفاجيء . استدرت متجها الى موضع مفتاح الضوء . تلمست الجدار حتى عثرت على مفتاح الضوء . كان التيار الكهربائي مقطوعاً . ووقفت حائرا ، عاجزا عن تحديد الاتجاهات ، وسط ظلمة مفترسة ، رافقتها عاصفة مفاجئة ، تجأر وتزأر ، محاولة ان تحتوي كل شيء في اندفاعها ، بما فيه البيت وانا .

سرت ببطء نحو الشباك . اخذت اصطدام بكراسٍ ، وطرابيزات صغيرة كيف تولّد فجأة كل هذا الاثاث ؟

اخذت عيناي تتعودان الظلمة ، التي اصبحت ، مع العاصفة اقل كثافة . اخذت الاشجار تتجرد من اوراقها . وراحت الاوراق في كتل هائلة ، تتخذ شكل كرة ضخمة راحت تدور وتدور في حركة لولبية : تدور حول نفسها بسرعة كبيرة

وتتقدم الى الامام ببطء.ولكن **ماافزعتني** بالفعل هوان تلك الكتلة الهائلة من اوراق الشجر تقدمت نحو البيت ، وقد اصبحت تياراً عاتياً ، واندفعت بتصميم عبر نوافذ البيت .

احتجبت حجرة النوم عن النظر خلف ستار الاوراق الذي ملأ فضاء الحجرة . حاولت اغلاق النافذة ، وكانت الريح تقاومني بضراوة . ولم يكن لمقاومتها طابع اندفاع لعاصفة ، بل كانت كايد بشرية **كثيرة** ، بالغة القوة ، تحاول منعي ، وتدفع درفتي الشباك . في اللحظة التي نجحت فيها باغلاق النافذة تحطم **زجاجها** بقرقعة مروّعة ، اصابتني شظايا . وتناثرت فوق ارضية الحجرة . وفي تلك اللحظة بالذات ، وكأنها كانت تقف بانتظار انفتاح النافذة اندفعت الموجة الثانية من اوراق الشجر . من الضربات التي اصبت بها في وجهي وصدري وبطني علمت انها محملة ، بالاضافة الى ورق الشجر ، بالاتربة والحصى

اخذت اقاوم الريح حتى لااسقط ، فكنت اندفع الى الخلف خطوات ، ثم اتوقف ، واتقدم خطوة واحدة ، ولكن الريح كانت تجعلني ادور حول نفسي عدة مرات ، ثم اسقط على الارض ، لاقوم ثانية واحاول ان اتقدم الى اتجاه غير محدد . فقد اضعت الاتجاه .

ورغم زئير الريح ، وعويلها ، ورغم العتمة ، فلقد استطعت ان ارى المرآة الكبيرة التي تعلو الشوفنيره ، وهي ترتد الى الخلف ، ثم ترتطم بالجدار بصوت هائل فيتحطم خشبها وزجاجها ، ويرتفع في الهواء كأنه ناتج عن انفجار . وعمّ التدمير . شراشف السرير ارتفعت في الهواء عملاقة ، تملأ فضاء الحجرة ، ثم اراها ترقص وتتلوى ، وتطوى لتصبح مجرد كتلة بيضاء ، تزحف على الارض .

فقدت القدرة على التماسك واصبحت العاصفة التي تجوب البيت ناشرة الخراب والدمار توجهني كيف شاءت . على **نحو ما** ، كان ذلك مريحاً . كنت انزلق خارجاً من حجرة النوم وانا امد ذراعي على امتداد كتفي . انزلقت الى الممر الموصل بين حجرة النوم والمطبخ . دخلت المطبخ وكأنني البس قبقاب انزلاق . قلت لنفسي : يجب ان ادخل غرفة المكتب حتى اطمئن على الرواية . على ارضية المطبخ تناثر زجاج الاكواب وصيني فناجين القهوة والاطباق ، ومعدن الملاعق والسكاكين والشوك وسط اوراق الشجر التي بلغت كاحلي وانا انزلق بينها . ثم استدرت ، معطياً الريح جانبي ، ووصلت الى باب حجرة المكتب . **فتحته** واغلقت الباب خلفي بسرعة .

كانت النوافذ مغلقة وسليمه ولكن الاوراق ، اوراق الراوية ، كانت تسبح في فضاء الحجرة برقة كأنها حمامات بيضاء بسبب بطء حركتها بدت وكأنها معلقة في الفراغ . لاخوف عليها ، قلت لنفسي ، ستهبط على الارض ، وسوف اجمعها واعيد فرزها . رأيت ورقة بيضاء ، منمنمة بالخط الازرق ، تتجه بتقصد واضح الى الباب ، وتقف مرفرفة على الحد الفاصل بين الجدار والباب . اذن ، هي تبحث عن فرصة للخروج لتشارك في الهدير الخارجي المشؤوم . اقتربت منها ببطء وبسرعة امسكت بطرفها . حاولت ان تنفلت من يدي وقد اصبحت ككائن حي ، يرتعش ، وينبض ، ويقاوم . ولكنني امسكت بها بيدي الاثنتين ووضعتها في جيبي .

خرجت من الحجرة واغلقت الباب خلفي بسرعة . اصبح للعاصفة عضلات . فما كدت اخطو عرض الممر ، وهو المسافة الفاصلة مابين باب حجرة المكتب وبداية السلم الصاعد الى الدور العلوي ، ماكدت افعل ذلك حتى صدمني بقوة لوح خشبي ، قدّرت انه باب الخزانة .

اخذت اصعد السلم ، وانا اتحسس اعضائي بعد ان صدمها اللوح الخشبي . كانت سليمة . بدت العاصفة كامرأة تنوح . كنت اشعر برغبة جارفة ان اكلم احداً عن هذا الرعب الذي يجتاح البيت . وكنت متيقناً انني ساجد احداً في غرفة ايوب ، وتمنيت ان يكون ذلك الاحد ليلى . من بسطة السلم رأيت باب حجرة ايوب مفتوحاً . صعدت بسرعة وتوقفت امام الباب .اذهلتني المفاجأة . لم اكن اتصور حجرة ايوب تتسع لهذا العدد الكبير من الناس . كانوا جميعا هنالك : المدير العام السابق ، مدير المكتبة ، وسكرتيراته الست ، سهام ايوب ، محررون في المجلة ، رجال ونساء من مكتب الوزير ، وآخرون وأخريات لم استطع التعرف عليهم . اما ليلى فلم تكن بينهم . وكان يبدو على الجميع الانهماك والجدية التامة . عبوسهم كان عبوس اناس عمليين استغرقوا في عمل بالغ الاهمية منعهم حتى من التنبه لحضوري بينهم . لم يلق واحد منهم نظرة نحوي .

ورغم ان النوافذ كانت مفتوحة على اتساعها ، فلم يكن هنا للريح اثر ، او لضوضائها . هنا صمت اشبه بصمت القبور , كما كانت الرؤية في الحجرة ممكنة . لون رمادي كغبشة الفجر كان يخيّم ، يرسم اطاراً للاشخاص ، ويضيء الوجوه الى الحد الذي يكفي للتعرف عليها وتمييز حركاتها .

بدا الجميع منشغلون باستغراق صامت . وإن كان يدور بينهم حديث

فلاصوت يصدر عنهم . اخذت اراقبهم . كان ايوب عارياً تقريباً ، يلبس فانيلة صيفية تكشف كتفيه ونحره وقوساً من ظهره . واما مدير المكتبة ، فقد كان يرتدي قميصاً ناصع البياض ، ورباط عنق عى شكل فراشة ، وجاكته سوداء . لاحظت زرين ذهبيين يلمعان على كمي قميصه . اما الجزء الاسفل من جسده فقد كان عارياً تماماً . وكان مدير المكتبة ينحني على السرير ، يدقق النظر ، ويشير بسبابته . واما ايوب فقد كان يقف خلفه ، يكاد يلتصق به ؛ كان يقف على رؤوس اصابع قدميه ، وينحني ليرى بوضوح ايشير اليه مدير المكتبة .

لم يكن ايوب شاهداً محايداً لما يجري على السرير . بل كان انفعاله وحب ستطلاعه ينعكسان بوضوح على وجهه . كان يضيّق عينيه ، كما يفعل قصار النظر ثم يزداد اقتراباً برأسه من السرير ، ثم يبتعد برأسه فجأة كأنما ليحمي نفسه من شيء سوف يصطدم بوجهه . ثم يعاود النظر مرة من فوق كتف مدير المكتبة الايمن ، ومرة فوق الايسر ، ومرة من فوق رأسه ، أومن وراء خاصرته . وخلال ذلك كان المدير يشرح ويكرر الاشارات الى السرير باصبعه ، دون ان يصدر عنه صوت .

ماذا يفعلان ؟ سألت نفسي . وانا في كل لحظة اتخيّل ان ايوب سوف يحتضن مدير المكتبة من الخلف . ولكن ذلك لم يحدث . اذن فما معنى تعرية العجيزتين واقترابهما من بعضهما على هذا النحو ؟

حاولت ان انادي سهام . قلت لنفسي : قد يكشف صوتي مكاني ، فاخذت الوّح واشير لها بذراعي اليمنى ، ولكنها لم تنظر في اتجاهي ، ولم تلحظ محاولاتي لاجتذاب انتباهها . كان ذلك مؤلماً جداً . هل نسيت كل شيء ؟ هل كانت تحب المدير العام السابق طيلة الوقت وتخدعني ؟ ولكن ماالذي يدعوها لأن تفعل ذلك ؟

كانت سهام ترتدي احدى بيجاماتي ، وقد كفكفت ردنيها حتى الكوع وطوت رجلي البنطلون حتى الركبة . بدت كياناً عضلياً متماسكاً وشامخاً كانت تمسك بوجه المدير العام السابق بين كفيها ؛ ووجهها قريب جداً من وجهه . الغيرة هي التي جعلتني اتصور انها تفعل ذلك تحبباً . ولكنني ، في داخلي كنت اعلم انها تفعل ذلك تمنعه من ارتكاب احدى حماقاته المعروفة ، وانها بهذه الامساكة تسيطر عليه .

كان المدير العام يرتدي سروالاً داخلياً قصيراً ، وواسعاً ، وفانيله بنصف كم . ساقاه وذراعاه كانتا نحيلتين ، يغطيهما شعر اسود كثيف . كان وجهه يتشنج ببكاء صامت ، وهو يشير بيمناه الى السرير . كان الذراع يشير الى السرير اشارات

سريعة متوالية ، وجسده يتلوى ويحاول الاسراع في اتجاه السرير . ولكن رأسه كان ثابتاً وكأنه لاعلاقة له بجسده الكثير الحركة . كان الرأس مثبتاً في مكانه بين كفي سهام وكأنه رأس تمثال . كانت سهام تلتفت ، وتشير برأسها في اتجاه ايوب ، الذي كان يبذل مجهوداً جسدياً كبيراً ليتابع سبابة مدير المكتبة وهي ترتفع في الهواء ، ثم تنقض على السرير كأنها تودان تطعنه . وايوب خلال ذلك يكثر من التنقل والحركة ليتابع مسار السبابة .

ولكن مامعنى هذا ؟ هل سهام هي التي تحدد الادوار في هذه المجموعة ؟ ولكن ماذا يحدث بالضبط ؟ رغم هذا فقد شعرت بالاعتزاز لهذا الدور المميز الذي تقوم به سهام .

يبدو ان سهام قد سئمت محاولات المدير العام السابق ، التي لاتتوقف للوصول الى السرير . كان يتفلت منها ، وهو يشير بذراعه على امتداده الى السرير . احاطت جسده النحيل بذراعيها ، واخذت تضغط . فسّرت ذلك تفسيراً خاطئاً في البداية ، اذ ظننت انها تعانقه . ولكنني رأيته يتلوى بين ذراعيها ، ثم اذ به يفرد ذراعيه الى الحد الاقصى ، ويلقي رأسه الى الخلف ، وقد جحظت عيناه ، وانفتح فمه . بدا كالمصلوب . ثم رأيت ذراعيه يسقطان ، ورأسه يسقط على صدره . رأيت سهام تفك ذراعيها . واذا بالمدير يسقط على الارض كومة واحدة بلاحركة .

هل مات ؟

اقتربت من الكومة . واخذت اراقبها . لقد كانت ساكنة تماماً . سكون الموت قلت لنفسي .

دون ان تلقي نظرة واحدة على الجثة سارت سهام الى الشباك . اتكأت بكوعيها على حافته واخذت تنظر للخارج . سرت وتوقفت بجوارها ، محاذراً ان المسها . التفت اليها . لايبدو انها شعرت بوجودي جوارها . قررت ان اسألها عن معنى هذا كله ؛ وعندما فتحت فمي اكتشفت انني فقدت صوتي .

ادارت سهام رأسها الى الخلف . ثم استدارت وسارت نحو مدير المكتبة .

كانت مسألة اخرى تلح علي : لماذا ابتعدت العاصفة عن هذه الحجرة ، في حين انها تهدر في الطابق السفلي ، وقد حولته الى انقاض ؟ اخذت اتأمل المنظر الذي امامي من النافذة . كان كل شيء هادئا . الاشجار تغرق في صمت قديم ، والنخيل ساكن لاتتحرك ورقة واحدة من اوراقه . والصمت ، فلقد انتهت جميع الاصوات

تأملت السماء . كانت رمادية ـ زرقاء وفي الشرق كانت بيضاء ، لامعة ، فيها لمسات حمراء شفافة ورقيقة . كان هذا الجزء من السماء يقبع لامعاً ، ناعماً ، ساكناً بانتظار طلوع الشمس .

استدرت واخذت اسير في الحجرة . لم يعترضني او يتعرف على احد . المدير العام مازال كومة ساكنة ، سكون المادة الميتة . كان يفتح فمه ، وقد برز جزء من لسانه . كانت سهام الواقفة بجوار مدير المكتبة تنحني لتطوي ساقي البيجاما ، اللذين يبدو انهما هبطا خلال عراكهما مع المدير العام . طوتهما حتى اصبحا فوق الركبة . ثم اخذت تطالع الجميع بنظرة يقظة . ملكة تطالع رعاياها ، تريد من الجميع ان يكون كل في مكانه .

كان مدير المكتبة مابزال يشير الى السرير ، ولكن وجهه كان مرفوعاً الى سهام ، وعيناه معلقتان بعينيها . بدت حركة يده ، وهو في هذا الوضع ، ميكانيكية خالية من الحياة . اشارت سهام الى السرير ، ثم خبطته بكفها على عجيزته العارية . لم يصدر صوت عن الخبطة ـ ، ولم تبعد كفها عن عجيزته .

بفعل ضغط كف سهام ، او ان ذلك كان بسبب امر تلقاه بصوت غير مسموع رأيت مدير المكتبة يقفز بخفة على السرير ، يستقر على ركبتيه وينحني . بدا انه يمسك شيئاً ، ويحاول انتزاعه . من الواضح انه كان يبذل جهداً ، فقد انتفخت طاقتا انفه ، وتورد وجهه ، واصبحت اذناه مثل قطعتين من الكبدة .

كان ايوب قلقاً تزايدت حركته حول السرير .

ثم سمعت صوتاً اشبه بصوت انفتاح غطاء زجاجة شمبانيا ، وقد تضاعف عشرات المرات ، ورأيت المدير يسقط على قفاه وهو ممسك بزجاجة ويسكي جوني ووكر فارغة . وفي نفس اللحظة حدثت عدة اشياء . اقترب الكثيرون من السرير بحذر . باشارة من يدها ، على شكل نصف دائرة في الهواء ، اعطتها سهام لايوب رأيته يطير في الهواء ويسقط بجسده على السرير . وفي اللحظة ذاتها ، وايوب يطير في الهواء ، قام مدير المكتبة بحركة بهلوانية مدهشة اقتربت ركبتاه من وجهه ، ثم قفز بسرعة مذهلة ، واذا به يقف على الارض .

ماذا بقي لافعله ؟

سرت نحو الباب ، توقفت قليلاً ثم التفت خلفي . من تحت كتف ايوب برز شعر كثيف ، ثم وجه لم استطع تحديد ملامحه . اخذ يرتفع ، حتى ارتفع بالقدر

الكافي ، ثم ناداني

ـ غالب . لاتنس ان تأتي للحفلة .

تأملت الوجه . كان وجهاً مجهولاً ، وكذلك الصوت كان من الصعب التعرف عليه ، اذ كان مختنقاً

سوف اجيء للحفله بالطبع .

واخذت اهبط السلم الى الدمار .

١٩٨٤/١/٣٠٠٠

للدراسات والنشر
نيقوسيا - قبرص - ص.ب ٣٩٩٧
السعر ٢٥ ل .